د . زاهية الدجاني

أحسن القصص

بين إعجاز القرآن وتحريف التوراة

نوح
هود
صالح
لوط
شعيب
موسى
«عليهم السلام»

http://kotob.has.it/

دار التقريب
بين المذاهب الإسلامية

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد.
ص.ب ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان.
تلفون ٢/ ٣٥٠٧٢١ (١ـ٩٦١+)
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ (١ـ٩٦١+)
e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثالثة
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

تصميم الغلاف: عبّاس مكّي

http://kotob.has.it/

بين طيات الكتاب

إن كتاب « القصة في القرآن الكريم» يدور في محوره حول دراسة ست قصص قرآنية وهي نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم بالاضافة الى « قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل» ؛ ويعتمد جوهره على الاجتهاد الشخصي للمؤلفة ، ويأتي بافكار عديدة لم يسبق اليها . كما وأنه في ذات الوقت يعرض بأسلوب علمي يؤكد من خلاله إعجاز القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان . وفيما يلي «تعريف» بالكتاب .

إن هذه الدراسة تبين بأن القرآن الكريم قد نهج أساليب مختلفة في إيصال الوحي الالهي ؛ والقصة المتميزة بالاعجاز من حيث القالب والمضمون ، تمثل أحد تلك الاساليب كما ورد في قوله تعالى :

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ ١٢/٣ .

إن القصص القرآنية تعرف بخصائص لا مثيل لها من حيث الاسلوب . كما انها تتميز في الوقت نفسه ، بالتنويع من حيث المحتوى ، وذلك لأن أحداث كل قصة قرآنية تخضع لظروف تختلف في طبيعتها عن الظروف التي تخضع لها قصة أخرى . ولكن ، وبالرغم من ذلك ، فإن كل تلك القصص تزود القارىء بمعلومات موجزة عن حدوث «صدع» في مجتمع ما ، كان قد خرج عن السيطرة في وقت ما من التاريخ الانساني . ومن هنا تُعنى القصص بإظهار الاسباب التي أدت الى حدوث مثل هذا الصدع ، مبرزة عاملين في هذا الصدد : عدم الالتزام بالعقيدة الروحية أولا ومن ثم التصرف ضمن إطار لا وزن فيه للأخلاق القويمة ، ولا اعتبار لها ثانياً . وإنطلاقاً من هذه النقطة تمضي الدراسة لتظهر بإن القصص القرآنية تتحدث عن ارسال النبي

http://kotob.has.it/

بدعوته السماوية لاحداث الاصلاح اللازم في المجتمع الذي تعرض للتصدع . هذا ، وفي مهمته الاصلاحية تلك ، فإن القصص تكشف عن الخطوات التي كان النبي يتبعها لتحقيق الهدف ؛ والتي تتمثل في ثلاث مراحل : في المرحلة الاولى ، كان النبي يدعو لضرورة الالتزام بالوحدانية حتى يدرك الانسان مكانته كمخلوق تابع لواجب الوجود ، فلا يطغى ولا يعلو في الارض بغير حق ولا يفسد . ومن هذه الخطوة ، كان ينتقل في مرحلة ثانية للكشف عن الأخطاء التي أدت الى حدوث الصدع في المجتمع المعني بالامر ، ومن ثم يمضي ، في مرحلة ثالثة ، الى التقدم بالاحكام والقوانين المناسبة للاصلاح أو الصالحة للعلاج . غير أنه في حالة إصرار القوم في المجتمع السائد وقتئذ على المخالفة للاوامر الالهية ، فقد كان النبي يتوجه بإنذار شديد يتوعد فيه الذين كذبوا منهم بعقاب قريب قادم . عَلى أن كل تلك المعاني العظيمة ، كما تركز عليها البحث في هذه الدراسة ، كانت تقدم من خلال حوار بين النبي والمكذبين من قومه . وهذا الحوار كان ينتهي عادة بعدم استجابة المكذبين للنبي الكريم . وعليه فقد كان يحق عليهم العقاب الالهي الذي لا مرد له .

ومن الجدير بالذكر هنا الى انه إستناداً الى القصص القرآنية ، فالدراسة تبين بأن النبي الذي يتلقى الوحي كان يقف كرمز لتأكيد الوجود الالهي في كل مكان الى جانب تأكيد القدرة الالهية لفعل كل أمر . وهذا يُبرز الجانب الالهي في القصة القرآنية . ولكن عدا عن هذا الجانب الرئيسي فيها ، فالبنية القصصية تحتوي على الجانب البشري ، والسياق للأحداث عقلاني أو يخضع لاصول المنطق في طابعه . هذا ، وفيما يتعلق بالمشهد الأخير من كل قصة ، فهو يتميز بإنزال كارثة طبيعية بالمكذبين من أي قوم مختص بالامر : مثل الطوفان ، أو الزلزال أو العاصفة المدمرة أو الصيحة . وهذه الكوارث كانت تؤدي الى إنزال الهلاك التام بالمفسدين . فالقوة الفاعلة في هذه القصص ، إذن هي قوة الله تعالى الذي تخضع « الطبيعة » لأمره الذي لا مردَّ له ، اذا أراد إنزال العقاب بأي مجتمع إنساني تميز بالطغيان .

ويجمل بنا أن نذكر في هذا المقام بإن الدراسة تظهر بأن القصص القرآنية تقدم «كأمثلة» كما يتجلى في الآلية التالية :

﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف

http://kotob.has.it/

فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ . ١٤/٤٥ .

أو بكلمة أخرى ،فالقصص تقدم « كنماذج » بالتعبير الحديث . وبهذا الاطار ، فالقصص القرآنية تتصف بأسلوب « غير معقد » يركز على العوامل الحاسمة التي تؤدي الى احداث مشكلة في مجتمع انساني ما . هذا وتظهر الدراسة بأن السياق القرآني يؤكد بأن القصص قد تستخدم كغيرها من النماذج ، كمعايير لمعالجة قضايا إجتماعية مشابهة لقضايا سابقة تنشأ باستمرار ، أمر يبرز اهمية تلك القصص بالنسبة لعالم المعرفة الانسانية . إن تلك القصص تقدم صورة مختصرة عن كيفية نشوء المجتمعات الانسانية ، ودورات الرقي والانحطاط فيها ، هذا الى جانب تطرقها للقوى المحركة لتلك المجتمعات من ثراء وفقر ، واتباع أو مخالفة للقانون ، أو من التزام بالعقيدة أو عدم تطبيق لها وهلم جراً . ومن هذه الزوايا كلها ، يبرز الطابع الأزلي لتلك القصص التي يصلح تطبيقها لكل زمان ولكل مكان . وتجدر الاشارة هنا ، الى أن القصص تتكرر في عدة مناسبات في القرآن الكريم وتكرارها هذا يرمي الى تذكير الانسان بالوجود الالهي في كل مكان . أما التنوع في المواضيع القصصية فهو يهدف الى تقديم تغطية واسعة المدى لكل المشاكل الاجتماعية التي تنشأ بإستمرار عبر التاريخ . وهذه كلها نقاط هامة تؤكد بدورها ضرورة تلك الدراسة لعالم الفكر الانساني الحديث .

هذا ومما يزيد من أهمية تلك الدراسة بأنها تتناول موضوع «المقارنة» بين القرآن والتوراة بصدد ثلاث قصص : نوح ، ولوط من قوميهما ، إضافة الى قصة «موسى مع فرعون وبني إسرائيل» ، مظهرة الفرق بين الموقف القرآني والتوراتي بصدد قضايا كثيرة من أبرزها ، مسألة الوحدانية ، والقضاء والقدر ، والخير والشر ، والثواب والعقاب ، ومبينة في الوقت ذاته الأثر النابع عن هذه الفروق في تفسير الاختلاف الجوهري المتعلق بحكاية «بني اسرائيل والارض المقدسة» ، في كل من القرآن والتوراة .

الدكتورة زاهية راغب الدجاني

أكتوبر / ١٩٩١

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

بســـم اللـــه الر حمـــن الر حيـــم

المقدمة

إن قصص الانبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى مع أقوامهم تركز في جوهرها على موضوع الرسالات السماوية وانكارها ، وتبين نقاطاً مشتركة فيها ، واخرى مختلفة نابعة من الظرف التاريخي . هذا وان النقاط المشتركة في تلك الرسالات تشتمل اولا على الدعوة الى الوحدانية ، ثم التذكير بالحساب «الجماعي» الدنيوي ، مع تأكيد على التفريق بينه وبين الحساب «الفردي» الاخروي . كما انها تشتمل على الحث على وجوب اقامة موازنة صحيحة بين «المادة» و «الروح» . هذا من جهة ، اما فيما يختص بالعناصر المختلفة في الرسالات السماوية ، فهذه تتمثل في المعالجة لمفاسد تنشأ بين الشعوب بظروف معينة ، فيأتي النبي لكي يعلمهم بأن طريقتهم في الحياة فاسدة وان هنالك طريقة صحيحة وبديلة عنها يتوجب عليهم أن يتبعوها بكل صدق وأمانة . وذلك من اجل اقرار الحق ومحق الظلم ونيل السعادة المرجوة على نطاق فردي وجماعي معا . ومن الجدير بالذكر ان القصص القرآنية تعالج الظلم «كقضية» ذات عواقب وخيمة وآثار سلبية على المجتمعات الانسانية . كما انها تظهر في الوقت نفسه ، بأن الظلم يأتي كنتيجة حتمية للتوجه بالعقل - الذي يميز الانسان على باقي المخلوقات - نحو الشر والفساد بدل التوجه به نحو الخير والصلاح ، ثم ان تلك القصص تبين أن الظلم لا يقتصر على نوع واحد فقط ، بل يتعدى ذلك ليشمل عدة انواع متعلقة بالاحوال الروحية والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في حياة الشعوب .

وعند هذه النقطة ، يجمل بنا أن نقدم «أنواع» الظلم كما وردت في القصص

http://kotob.has.it/

القرآنية . ان الظلم المبين في قصة نوح مع قومه يمكن تصنيفه كظلم «اجتماعي» من حيث طبيعته ، وهو في اساسه منبثق عن اضطراب في الموازين الاجتماعية والاخلاقية ، وذلك بسبب هيمنة «الطبقية» باللغة العصرية ، على المجتمع السائد وقتئذ . فهذا قد أدى الى نشوء هوة ساحقة بين الاقوياء ، اصحاب الثروة والنفوذ كما تمثلوا بالملاء او الاشراف من القوم وبين الضعفاء والفقراء والمحتاجين منهم . ان سياق الاحداث لقصة نوح يظهر استغلال واستعباد الطبقة الاولى للطبقة الثانية ، امر ادى بطبيعة الحال الى نشر الباطل والظلم في المجتمع السائد وقتئذ . ومن هنا نشأت الحاجة الملحة الى الاصلاح وتعديل الموازين . هذا وعدا عن تلك الزاوية من الظلم التي ظهرت على المسرح البشري في وقت مبكر جدا من التاريخ فهنالك زاوية اخرى من الظلم ظهرت مع «عاد» قوم هود . والظلم لهذه القبيلة مرتبط في اساسه «بالاستكبار» و«الاستعلاء» في الارض دون حق . لقد هيأت المقادير حظا وافرا من النمو الزراعي والثراء الاقتصادي والرقي العمراني لتلك القبيلة . فاشتهرت بفن العمارة القائم على اسس منظمة ، وساهمت من ثم في تشييد قصور شاهقة وقلاع محكمة لم يوجد لها مثيل . وهذا التقدم قد دفع بمعظم ابناء هذه القبيلة الى الشعور بالتعالي والاعتزاز بالقوة «المادية» من دون القوة «الروحية» . وهذا الاعتزاز الطائش بالحياة ومادياتها ، بتعبيرنا العصري ، قد اغرى القوم للبطش الشديد بالاقوام المجاورة دون أي وازع اخلاقي . ومن هذه الزاوية نشأ ظلم البلد القوي للاقوام الضعيفة المجاورة وآثاره السلبية البعيدة المدى . على أنه فيما يتعلق بثمود ، قوم صالح ، فقد تجسد ظلمهم بتخطي الحدود المرسومة لهم كبشر . فقد كذب غالبية أبناء ثمود بصالح ورسالته ، وطلبوا منه «خارقة» لاثبات صحة دعواه بالرغم مما قدم لهم من دلائل وبراهين في هذا الصدد ، على انه عندما افاض الله تعالى عليه بالخارقة ، وبعث لهم «بالناقة» على شرط تعهد من جانبهم بعدم التعدي عليها ، عقرها السفهاء منهم بدون توجيه اي معارضة لهم من قبل الاكثرية . ومن هنا ، ارتكب الجميع ظلما وا ثما عظيما .

ولو ان ثمود ، قوم صالح ، قد طغوا طغياناً كبيراً من الناحية الروحية ، فان قوم لوط قد تعدوا ايضا على المثل والفضائل المحددة للانسان بشأن تصرفاته على نطاق ديني . فمن المصطلح عليه روحياً ان الانسان كمخلوق عاقل مكلف بالالتزام بفضائل

http://kotob.has.it/

ومثل معينة تكفل سعادته في الاطار الفردي والجماعي . كما انه ملزم باتباع قوانين واحكام تكفل النمو والازدياد بين الجنس البشري ، وذلك لاستمرارية الحياة . ومن تلك الاحكام «الزواج» بين الذكر والانثى بالطرق المشروعة . اما وذلك ما يجرى به دينيا ، فان اي خروج عليه يعد خروجا عن الدين وعن القوانين الطبيعية المقررة للانسان في حياتنا الارضية . ان ماورد عن قوم لوط في القصة القرآنية يبين ان الرجال منهم قد اتصفوا بالانحراف او «الشذوذ» الجنسي بكل ما سببه ذلك من انحطاط في قدرهم كافراد ومكانة مجتمعهم ككل عبر التاريخ . فالانحراف الاخلاقي ظلم يحمل في طياته عواقب وخيمة تمتد آثارها الى نواة المجتمع ، العائلة . على انه فيما يختص بالظلم الذي اتصف به اهل مدين ، قوم شعيب ، فقد اتخذ وجهة اخرى . وهذه الوجهة متعلقة بعدم الصدق والامانة في المعاملات . ان قصة قوم شعيب تكشف عن مدى حب بعض الفئات المنتفعة للمال ، والتضحية بالمثل والمبادىء في سبيل جمعه والتمتع به . لقد ذهب البعض من اهل مدين ، وبالتعبير الحديث ، لفرض ضرائب مرهقة على التجار الذين كانوا يمرون بقوافلهم من خلال ديارهم ، مستغلين بذلك اهمية موقعهم الجغرافي ابشع استغلال . كما انهم عمدوا الى الغش والتدليس في معاملاتهم التجارية اضافة الى استيلائهم على اموال الغير عن طريق القهر والغصب . ويعملهم اللا أخلاقي هذا سببوا عذابا وشقاء وتعاسة للضعفاء والمساكين . وبالانتقال الاخير الى الظلم المتجسد في قصة فرعون ، نرى ان القرآن الكريم يزود القارىء بصورة جلية عن الظلم السياسي والاجتماعي الناتج عن ما نطلق عليه بلغة العصر بحكم الفرد «المستبد» الظالم او بالحكم «الدكتاتوري» ، كما هو متمثل في شخصية فرعون التى اصبحت رمزا لهذا النوع من الحكم . إن طغيان فرعون الذي حكم مصر لفترة من الزمان قد تجسد في عدة اتجاهات : منها اتباع سياسة التفريق بين فئة واخرى في المجتمع ، والبطش بالفئة المكروهة لديه باستخدام كافة وسائل التعذيب المعروفة عندئذ ثم القتل . وبالاضافة الى ذلك ، فقد اتخذ طغيانه هذا طابعا روحيا ، اذ انه باستكباره وغروره قد وضع نفسه في مركز «تأليه» في حين ان الالوهية لا تنسب الا الى الله تعالى وحده .

يتضح مما تقدم ان أنواع الظلم المبينة في القصص القرآنية المذكورة أعلاه تضم عدة

http://kotob.has.it/

آفاق : روحية ، واجتماعية ، واخلاقية ، واقتصادية وسياسية . وهذه الآفاق قد تظهر في ازمنة متعاقبة وامكنة متعددة ، أو قد تظهر في زمان واحد ، وامكنة متعددة كما هو الحال في العصر الذي نعيش فيه ، حيث يبرز العالم كله كوحدة مع وسائل التكنولوجيا الحديثة . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه الظواهر المشتركة بين العصور بالنسبة للظلم وآفاته وعواقبه تستوقف النظر . فهي تدل على ان ما في الحياة من شر وظلم ، فهو نتاج للتفاعل الذي يأخذ مكانا بين النفوس البشرية والبيئات من حولها ، على اننا لو عدنا الآن الى القصص القرآنية من حيث تركيزها على الشر في ارتباطه بالقصور في التفكير والاسراف في العاطفة ، لرأينا ان تلك القصص تقدم صورة واقعية نابضة بالحركة عن الانسان المستكبر والمغرور والمكذب بالدين عبر التاريخ البشري . إن مثل هذا الانسان يتصف قبل كل شيء بعدم التعقل او عدم المعرفة للحكمة في حياته . إن غروره يمنعه في واقع الامر من رؤية الامور في منظارها الصحيح ، ومن هنا يتخبط في تصرفاته وفي حكمه على الاشياء . إن القصص القرآنية تظهر أن مثل هذا الشخص ينزع الى رفض اي قانون او نصيحة تهدف لاظهار طريق الحق والواجب امامه . فهو يقاوم اى تغيير يمنعه من المفاسد ومن تحقيق مآربه الذاتية ومنافعه الخاصة .

ومن هذا المنطلق ، فهو يرفض ان يتقبل هداية النبي له للالتزام «بالوحدانية» ومبدأ العدل في معاملاته مع الاخرين . ولا يكتفي بذلك ، بل يعمد عادة الى شن هجوم شخصي على النبي فيقدم بكل غباء للاستخفاف والسخرية منه ومن دعوته ، ولكن أية سخرية هذه ، إنها سخرية الانسان الجاهل الذي لا يعرف حقيقة نفسه ، فيظن الحكمة والمعرفة بالنفس . ان جهل مثل هذا الانسان المصطحب بغرور اجوف يدفع به الى التعالي . وتعاليه هذا يمنعه بطبيعة الحال من الشعور مع الضعفاء ومن الرأفة بهم وقسوته تلك تقوده الى التعدي على حقوق الضعفاء بكل وسيلة ممكنة طالما أن ذلك يتوافق مع مصالحه ومآربه وتطلعاته . باختصار ، إن القصص القرآنية تبرز الانسان المستكبر والمكذب بالدين كشخص متصف بضيق الافق في التفكير ، وحب الاستئثار والطمع والجشع والقسوة في العاطفة ، والجحود ، والكفر بالنعم الالهية . وعند هذه النقطة ، يجب ان نذكر أن ظاهرة الضحالة الفكرية لدى الانسان المكذب

http://kotob.has.it/

بالدين تظهر جلية من خلال رده على «حوار» اي نبي بعث لهداية قومه . إن الطريقة التي اتبعها المكذبون من اقوام نوح ، هود وصالح ولوط وشعيب كانت تتصف بالسطحية والتحدي المعتمد على الغرور فلا دلائل ولا براهين تطرح لتدعيم اقوالهم ، بل اقوال ترضي الغرور ، ويأبى المنطق ان يرضى بها او يتقبلها باي شكل . ولكن مقابل ذلك ، فإن القصص القرآنية تظهر بأن الانبياء الذين آزرهم الله تعالى برحمته وعلمه كانوا يتحاورون مع اقوامهم بمنطق «العقل» . وكان منطق العقل لديهم مصطحبا بتوازن مع منطق «العاطفة» بغية دفع القلوب نحو التصديق والايمان المستنير . فمنطقهم ، اي الانبياء ، كان يركز على التوفيق بين العقل والحس او بين التفكير والعاطفة . وهذا يرمي الى تذكير الانسان بوجوب اقامة موازنة صحيحة بين واجباته الدينية والدنيوية حتى يقوم بمسوؤليته على اكمل وجه ممكن . ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الطريقة في الحوار من جانب الانبياء لاقوامهم كانت تبلغ الدرجة القصوى من الرفعة والسمو والقوة الجدالية . وهذا بدوره كان يسبب نوعا من التوتر العصبي والتخبط لدى المكذبين الذين يبدو انهم كانوا يشعرون بضعفهم الفكري امام الانبياء بالرغم من تحديهم لهم . ولاعطاء مثل في هذا الصدد ، فإنه قصة نوح مثلا تكشف عن توجيه طلب من جانب الملاء له بالتعجيل بالعذاب الذي انذرهم به دون تقدير منهم لعواقب ذلك .

هذا ومن خلال ابراز هذا الفرق الشاسع بين مفهوم الانبياء للحوار وطريقة المكذبين بالدين في الجدال ، تلوح في الاجواء القصصية عناصر «الاثارة» و«التشويق» ـ وهذه العناصر كانت تأخذ اتجاهين في قصص الانبياء : اتجاه «عاطفي» وآخر «عقلاني» . فعندما يقرأ الانسان القصص القرآنية ويركز على الحوار الذي كان يدور بين الانبياء واقوامهم ، يجد نفسه وهو يتفاعل معه بكل احاسيسه . فيحمل اسمى واعظم شعور بالمحبة والاعجاب والتقدير العميق للانبياء لمواقفهم المتسمة بالتضحية والصبر وقوة العزيمة والارادة والثبات حتى النهاية في اثناء اداء مهمة التبليغ . على انه في الوقت ذاته ، يجد هذا القارىء نفسه وقد سيطر عليه شعور من السخط للتحدي السافر والعناد والغرور الاجوف الذي كان يتصف به المكذبون . هذا وبين شعور بالاكبار العظيم للانبياء ، وشعور بالنفور من مواقف المكذبين نحو

http://kotob.has.it/

الانبياء ، تمضي الاحداث في القصص القرآنية لتضع حداً لتطاول الكفرة على الانبياء ومن هذه الزاوية ، يدخل دور «الانذار» في القصة القرآنية الى الصورة . ومن الجدير بالذكر هنا أنه من آيات رحمته عز وجل أنه لا يعاقب قوما حتى يبعث الانبياء لهداية الناس الى طريق الحق والنور . ولكن ما ان تستنزف كل وسيلة للاصلاح حتى يوجه الانبياء الانذارات الى اقوامهم بعقاب اكيد قادم . على أن الانذارات تلك كانت تأخذ اشكالا متعددة في القصص بمقتضى الازمات حتى تصل الى «اوجها» . فالانذار في قصة نوح تجسد في تهديده للمكذبين من قومه بعذاب قريب قادم حين اشتدت سخريتهم الواهية منه اثناء بنائه للسفينة . اما الانذار الموجه من هود الى الكفرة من قومه ، فقد تمثل في التأكيد لهم على قدرة الله تعالى على انزال الهلاك بهم ، واستخلاف قوم غيرهم اذا استمروا في طغيانهم وتحديهم للرسالة السماوية . على أن الانذار الموجه من قبل صالح الى المكذبين من قومه بدا في امهالهم لمدة ثلاثة ايام للتمتع في ديارهم بعد ارتكاب خطيئتهم المتجسدة في عقر الناقة من قبل السفهاء منهم . اما بالنسبة للانذار المختص بقصة لوط ، فقد تجلى في ارسال عدد من الملائكة في هيئة شبان بوجوه حسنة لابلاغ لوط في لحظات يأس ومعاناة من تصرفات قومه اللا اخلاقية ؛ بقرب حلول ساعة العقاب بهؤلاء المفسدين . ثم ان الانذار الذي وجهه شعيب للمكذبين من قومه تمثل في تهديده لهم بسوء العاقبة في حالة استمرارهم في الاعراض عن الله تعالى ، والكفر والجحود بنعمه والتلاعب بالموازين .

واخيرا فان الانذار في قصة موسى مع فرعون تجسد ايضاً في تحذير فرعون ومساعديه بالعقاب الصارم اذا لم يكفوا عن طغيانهم الروحي والسياسي والاخلاقي . ويجمل بنا ان نذكر في هذا المقام أن وجود عنصر الانذار في القصة القرآنية امر هام جدا من ناحيتي المحتوى والمبنى . فمن ناحية المضمون فهو يبرز مسألة «العدل الالهي» المطلق في ادارة شؤون الكون وتنظيمه . فالله تعالى لاينزل العقاب بقوم الا بعد اصرار غالبيتهم على التكذيب والكفر بكل عناد . فالعقاب من هذه الزاوية يتبع الاعمال . اما من حيث القالب ، فان للانذار اهمية بالغة في علاقته بموضوع «العناصر القصصية» ، وبالتخصيص فيما يرتبط بعنصر «العقدة» في القصة . إن الانذار الاخير في كل قصة قرآنية يشير الى «الذروة» في تأزم الاحداث . على ان الوصول الى الذروة تلك في

http://kotob.has.it/

المشكلة المعنية بالامر ، يعني بدوره قرب حدوث «الحل» . والحل في القصص القرآنية قوي جداً لانه يأتي من خلال «معجزة» الهية ترمي الى انزال الهلاك التام بقوم مفسدين .

وعند هذه النقطة يجب ان نذكر أنه طالما أن القصص القرآنية تنتهي بحل في اطار المعجزات ، فهذا يعني بالتأكيد وجوب وضع «حد» فاصل بين مزايا وعناصر القصة القرآنية من جهة والقصة الصادرة عن المفكرين من ابناء البشر من جهة اخرى . في الحقيقة ، ان التاريخ بكل واقعيته يمثل المكان الحقيقي للاحداث القصصية في القرآن الكريم لكل الاقوام الذين اهلكو بسبب طغيانهم وفجورهم . فالمسرح هنا كبير جدا ويسمح لتطورات واسعة المدى من حيث الاحداث . ولكن على العكس من ذلك ، فالمكان للاحداث القصصية الصادرة عن الادباء وغيرهم محدود طبعاً ومقيد ببيئات محددة ، وظروف ا جتماعية معينة يدركها الكاتب من خلال قدراته الذهنية المحدودة كبشر . هذا من ناحية ، وفي مجال آخر ، فان الحد الفاصل بين القصة القرآنية والقصة الانسانية يتجلى في تقديم «الشخصيات» . فبينما تركز القصص القرآنية على الانبياء كأهم الشخصيات الانسانية لمكانتهم الخاصة من ناحية دينية ، وتبرز دورهم العظيم في هداية الانسانية نحو طريق الحق والنور بكل انتظام ، فان القصة الصادرة عن ابناء البشر تركز على شخصيات من صنع «خيال» الكاتب غالباً ، وتبين ارتباطهم بمجتمعات وبيئات ضيقة . وعدا عن ذلك ، فان الحد الفاصل بين القصة القرآنية والقصة الانسانية ، يظهر من خلال الطريقة في عرض الاحداث وتطورها الى حين وصول نقطة التأزم فيها التي تتبع بحل بالعادة . فالعرض هذا يأخذ اتجاهات واسعة المدى في الاولى ، بينما ياخذ منحى ضيق الافق في الثانية . وهذا امر طبيعي يتبع الطابع «الازلي» الذي تتصف به القصص القرآنية والتي يتجلى الحل فيها بانزال العقاب الصارم بالفئات الطاغية المكذبة التي تشمل الغالبية من كل قوم . على ان القصص القرآنية التي تزود القارىء بأمثلة واقعية عن العقاب الجماعي الدنيوي تربط بين نوعية «العقاب» هذا ونوعية «الذنب» بقصد الاعتبار . ولاحضار امثلة في هذا الصدد يجب ان نذكر أنه بالنسبة لنوع الاثم الذي ارتكب من قبل الملاء الكفرة من قوم نوح ، فهو يتجسد في المغالاة في إلحاق الظلم بالضعفاء والمساكين منهم ، وفي تحديهم

http://kotob.has.it/

المستمر لنوح ورسالته ، بالاضافة الى احتقارهم لاتباعه . وقد طاف تحديهم هذا كل الحدود ، واغرق القلوب الطيبة . ولكن عندما اتت ساعة العقاب المستحقة عليهم فقد هلكوا بالغرق . اذن فان «اغراق» الضعفاء بالظلم والتحدي السافر قوبل «باغراق» الكفرة في مياه الطوفان بكل شدته وعنفوانه دون اي اسف عليهم . اما ابناء قبيلة عاد والمتحكمين فيهم الذين استخدموا قوتهم الناتجة عن التفوق الحضاري للبطش والطغيان بالقبائل الضعيفة المجاورة وارهاقهم ماليا ، وظنوا أنهم لا غالب لهم بسبب سيادتهم المطلقة على العالم في زمانهم ؛ فقد اهلكهم الله تعالى اهلاكا تاما بريح صرصر عاتية في ايام نحسات قلعتهم من جذورهم عن مسرح الحياة مذمومين ، ومدحورين وملعونين .

اذن فان الاعتزاز بالقوة المادية واستخدامها للظلم امر غير مقبول قطعيا على نطاق ديني . فالقوة «المادية» تفنى وتهزم بشكل قاطع بالقوة «الروحية» التي لا يمكن لشيء ان يقف امامها . ومن جانب آخر ، فان قوة صالح ، اي ثمود الذين عقر السفهاء منهم الناقة التي امرهم الله تعالى بالحفاظ عليها ، وضربوا بعرض الحائط بكل القوانين والاحكام الالهية وسببوا «رجفة» في القلوب المؤمنة بسبب عظم الاثم الذي ارتكبوه ، فقد أُخذوا «بالرجفة» السماوية التي اهلكت كل المفسدين منهم اهلاكا . على أن قوم لوط الذين انحرفوا جنسيا ملوثين اسمهم ومجتمعهم بخطيئتهم البشعة تلك ، فقد عوقبوا بارسال حجارة «ملوثة بالطين عليهم من السماء» . اذن فجزاء التلوث الاخلاقي القذف بالحجارة الملوثة بالطين لاظهار مدى حقارة الفئة الشاذة . ثم أن قوم شعيب ، اهل مدين ، الذين اعتدوا على اموال الناس غشا وقسرا مسببين «حرقة» في قلوب الكثيرين قد أخذوا بلوعة «الحر» الشديد الخانق للصدور ، والمتبع بصاعقة مدوية مفزعة دمرت المفسدين الطغاة منهم تدميراً . أما بالنسبة لفرعون وأعوانه الذين بطشوا بالأطفال ، وأذلوا النساء ، و«اغرقوا» قلوب الضعفاء بظلمهم ، فقد «اغرقوا» باليم من خلال معجزة إلهية كشفت لهم بالدليل والبرهان عن حقيقة ضعفهم بعد ظن منهم بالقدرة على فعل أي شيء . وعند هذه النقطة ، يجدر بنا أن نذكر بأن العذاب الجماعي الذي ينزله الله تعالى بالجماعة المفسدة «دنيوي» ؛ في حين ان الحساب الذي يقع على كل انسان فرد هو في النتيجة «أخروي» . وقد يكون في الدنيا

http://kotob.has.it/

والآخرة معاً ، لأنه مهما كان الحساب الجماعي ، فهناك أناس لا بد وأن يكونوا غير مذنبين بنفس القدر مع غيرهم ، إذ لا يمكن أن يكون كل المجتمع مذنباً بنفس القدر . ولكن العذاب يصيبهم بإستثناء القلة الناجية . وحكمته تعالى هنا لا تقتصر على انه ينعم بالنجاة على الذين آمنوا ، إنما ينجيهم لهدف عظيم . وهو أنهم يروا قصة ما حصل للمكذبين من قومهم ، فينقلوها لتكون الدرس للغير . ومن هنا ، يبرز التطابق بين قوله تعالى :

﴿ولا تَزرُ وازرة وزر اخرى . . .﴾(١)

وما تحمله هذه الآية من معاني المسؤولية الفردية والعذاب الذي يصيب الرهط الكامل من الناس . ويجب أن نبين هنا أن الله تعالى لم يعد الانسان المؤمن بالعيش برغد تام ومأمن كلي في هذه الناحية ؛ بل نبهه الى أنه قد يتعرض للشدائد والآلام كما ورد في الآية التالية :

﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والأنفس . . .﴾(٢)

هذا ، وقد يتعرض الانسان المؤمن للظلم والتجبر أيضاً . إنما وعد الله بالحساب الأخروي حتى يقع الحساب النهائي على الانسان هناك . على ان هذا الحساب ، هو حساب فردي قائم على المبادىء الواردة في الآيات الكريمة الآتية :

﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه . . .﴾(٣)

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى . . .﴾(٤)

﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . . (٥)

في الحقيقة ، ان ما يحصل للمجموع دنيوي ، أما حساب الأفراد فهو أخروي . هذا ولم يحصل الانسان على وعد بالسعادة والطمأنينة الدنيوية الكاملة ، لأنه خلق «للابتلاء» في هذه الدار .فالانسان لا يصل الى جنات الخلد إلا بعد إجتيازه لإمتحان صبر طويل في حياته الدنيوية .

فلو ابقينا كل هذه المعلومات في ذهننا وركزنا الآن على مسألة « العقاب» الصارم

http://kotob.has.it/

للجماعة المفسدة بمقابل مسألة «النجاة» للقلة المؤمنة بالنسبة للأقوام المتقدمة الذكر من ناحية «تاريخية» ، لرأينا أن العقاب هذا يمثل نهاية فترة تاريخية متسمة بالطغيان ، وبالمقابل ، إبتداء دورة تاريخية جديدة من الناجين من كل قوم . فالقصص القرآنية ، من هذه الزاوية ، تغني عالم المعرفة الانسانية بمعلومات في غاية الدقة عن «المسيرة» التاريخية .معلومات قيمة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في حياة كل الامم عبر التاريخ . إن تلك القصص تبين ان التاريخ يسير بخط «مستقيم» مع التقدم السريع لعجلة الزمن ، ولكنه في اثناء سيره هذا يمر «بدورات» من الظلم البشري تخل «بالموازين» التي امر الله تعالى بعدم الطغيان عليها لما يسببه ذلك من ازمات وكوارث في حياة المظلومين من أبناء البشر . وهنا ينزل الله تعالى بعقابه على المجرمين للقضاء على الظلم من ناحية ، وينعم برحمته على القلة المؤمنة من كل قوم من ناحية اخرى . وتجدر الاشارة هنا انه في هذا الصعيد الذي تنتهي في اطاره حياة قوم ضالين ، وتبدأ بالمقابل حياة جديدة لامة اخرى ، فان القصص القرآنية تلقي الاضواء على مفهوم القلة والكثرة من وجهة روحية عبر التاريخ الانساني .

ان «القلة» كتعبير تعني الفئة الممتازة او الخاصة من كل قوم او امة . اما «الكثرة» كتعبير ايضا ، فتشير الى الغالبية العظمى من الناس في حياة الامم . على انه فيما يتعلق بالقصص القرآنية ، فالاقلية الممتازة كانت تتكون من الفئة المؤمنة ايمان نظر وفكر وتدبر دون اعتبار لثروة او جاه او نفوذ . ويتحلى افراد تلك الفئة بالصفات الاخلاقية العظيمة من قوة ارادة وعزيمة وتضحية بالنفس في سبيل الحق والواجب ، وثبات حتى ساعة الفرج . وهذه الفئة كانت تضم القلة الناجية من العقاب الالهي الذي كان يحيق بالمفسدين . اما باقي الناس الذين كانوا يشكلون غالبية المجتمع فيما يختص بالاقوام المندثرة ، فقد كانوا ينقسمون الى فئتين : الفئة الاولى وتضم المستكبرين والمتعالين والمتحكمين بالامور . وهؤلاء كانوا يتصفون بالتكذيب الروحي ، والفساد الاخلاقي والصلف والغرور الاجوف وقصر النظر . وكما يظهر من سياق الاحداث للقصص القرآنية المدرجة للدرس ، فقد كان لهم دوما تأثير سيء على المحكومين . اذ ان الكثير من هؤلاء كانوا يتبعونهم ويمتثلون لاوامرهم دون وعي او ادراك او تفكير . ومن هنا فقد اشتركت الفئتان في الافساد والعبث بالموازين ولكن بدرجات متفاوتة تتبع الثراء

http://kotob.has.it/

والجاه والنفوذ . اذن في هذا الاطار الفكري ، فالاكثرية المفسدة كانت تضم فئة الولاة وكل من كان يتبعهم اتباعا اعمى من عامة الناس دون ادراك للعواقب الوخيمة التي تنتج عن عملهم هذا . وفي هذا الصدد يقول تعالى بشأن عاد :

(وتلك عاد مجدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة الا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود) (٦)

لقد اصبح واضحا الآن أن القصص القرآنية المدرجة للدرس تصف الغالبية العظمى من كل قوم بالتكذيب بالحق ، والكفر بالنعم الالهية بالاضافة الى الطغيان الاخلاقي . وهذا بدوره يؤكد ثانية على أن الظلم بكل اشكاله وانماطه وانواعه رذيلة موجودة منذ فجر التاريخ على الساحة البشرية . وتلك الرذيلة تنبع في اساسها من جنوح الانسان المفرط نحو المفاسد الدنيوية .

على أن التركيز القصصي على الظلم البشري عبر التاريخ في هذا الاطار امر يؤكد «ازلية» القرآن الكريم ، اي صلاحيته لكل زمان ومكان . هذا وفي الصعيد الذي تعالج فيه مواضيع هامة من خلال اطار زمني يؤخذ فيه الماضي والحاضر والمستقبل في القصص القرآنية بعين الاعتبار ، تبرز في الاجواء «وحدة» زمنية لا يحدها الا انتهاء عالمنا الارضي . وهذا بدوره يشكل عاملاً آخر في تأكيد موضوع الحد الفاصل بين القصص القرانية ، والقصص المؤلفة من قبل أبناء البشر الذي تحدثنا عنه سابقا . على أن الحد الفاصل هذا بكل مظاهره من وحدة زمانية ، ومكانية ، وشخصيات ، وحركية ، واثارة ، وتشويق في عرض الاحداث وتطورها وتأزمها الى حين حلها من خلال خارقة الهية ؛ يؤكد الاعجاز القرآني من حيث «الموضوع» والاسلوب . إن القصص القرآنية بطابعها الازلي الذي يدعو الانسان للتأمل والتفكير بمصير الاقوام التي اهلكت عبر التاريخ الانساني لطغيانها امر هام . كما أن التوجيه القصصي للانسان بوجوب الايمان المطلق بالله تعالى ، والالتزام بالاحكام والقوانين والمثل التي تكفل له الراحة امر في غاية الاهمية ايضا . فالقصص القرآنية من هذا المنطلق ،تحمل دروسا وعبرا للانسانية برمتها عبر التاريخ . ثم انها بمعاينتها العظيمة تعمل على صقل

http://kotob.has.it/

الشخصية الانسانية وعلى تطهيرها من آفات الظلم والشر والجشع وغير ذلك . وعليه فهي تساهم في بناء نظام «اجتماعي» قائم في جوهره على الاخلاق القومية مثل العدل والاخاء والمساواة والمحبة والتعاون بين الافراد . هذا وبما أن الحضارات السلمية في قواعدها لا تقوم الا على مثل هذه المبادىء ، فان القصص القرآنية تساهم ايضا في اثراء عالم المعرفة الانسانية ، وفي المقدمة علم الاخلاق والاجتماع والنفس والتاريخ بالاضافة الى حقل الادب . ومما لا ريب فيه ان كل هذه العوامل بالاضافة الى عوامل ذكرت سابقاً تؤكد بدورها اهمية الدراسة الحالية «القصة في القرآن الكريم» بالنسبة لعالم الفكر الحديث . ومن الجدير ذكره هنا أنه في وقت يتعرض فيه الاسلام كعقيدة ولغة وتاريخ وحضارة لتحديات واسعة المدى من قبل الكثيرين بقصد تشويه صورته وزعزعة الثقة به ، وفي وقت يصف فيه اعداء الاسلام ، القرآن ، ككتاب يقف عائقا في طريق العقلانية والتشجيع على البحث الحر ، والاكتشاف ، واكتساب المعارف ، فان هذه الدراسة تؤكد أن القرآن يشكل «المصدر الاول» لكل المعارف التي تهم الانسان بالنسبة لوجوده وكيانه ومصيره .

ومن ناحية اخرى ، فان هذه الدراسة تساهم في تأكيد مبدأ «عقلانية» الاسلام ، ومن ثم تساهم في نفي صفة «الجبرية المطلقة» التي ينسبها اعداء هذا الدين المعظم له . فالدراسة تبين انه بعد ان تعرف الانسان على طريق الحق والنور والهدى من خلال الرسالات السماوية التي اتى بها الانبياء ترك له المجال للتفكير والتأمل والتدبر واختيار طريقه في الحياة . وهذا يعني بدوره ان ما يحظى به من جزاء حسن ، فيأتي من جراء سعيه نحو عمل الخير . على ان ما يناله من شر ، فيأتي من جراء توجهه بفكره وقلبه نحو الشر . ان هذه الامور الهامة تؤكد بدورها ان الاسلام دين يحث على السعي والارادة والعمل المثمر البناء الذي يعتمد على التفكير السليم والايمان المستنير . اذن ، فالاسلام في هذا الاطار الفكري ليس دين «تخاذل» أو دين «بدع» و «خرافات» كما يدعي اعداؤه ، بل هو دين «عمل» و «تفكير» بكل معنى الكلمة ويصلح لكل زمان ومكان . هذا ومن خلال ابراز كل هذه النقاط ، فان الدراسة الحالية تساهم في اثبات «صحة الوحي» . وهذا امر هام جدا وخصوصا على ضوء وجود محاولات كثيرة من قبل اعداء الاسلام لنفي صدق الوحي بكل وسيلة عنه ، ان المواضيع القصصية المختصة

http://kotob.has.it/

بوصف نفسية الانسان المكذب عبر التاريخ من جهة ، والمختصة بموضوع نشوء الحضارات الانسانية ، وعوامل ازدهارها وانحطاطها من جهة اخرى تشكل عناصر بارزة لاثبات الاعجاز القرآني .(٧)

وعند هذه النقطة ، يجب ان نبين بأن كتاب «القصة في القرآن الكريم» يعتمد في معظم افكاره على الاجتهاد الشخصي للمؤلفة . كما يقدم تلك الافكار من خلال اسلوب مفهوم لدى القارىء الحديث(٨) . صحيح ان موضوع القصة قد عولج في كل كتب التفسير القرآنية ، ولكن يجب ان لا ننسى هنا بأن كتب التفسير تتبع عادة المفاهيم والافكار السائدة في كل عصر ، كما انها تتبع مذاهب المفسرين في كثير من الاحيان . فلو اخذنا العصر الاسلامي القديم نجد بأنه لو كان المفسر للقرآن معتزليا على سبيل المثال ، فقد يأتي التفسير في اطار يتناسب مع افكار واسلوب الفرقة الاسلامية التي ينتمي اليها . وهذا يبدو جليا في التفسير الذي الفه ابو القاسم الزمخشري «الكشاف» . ولو كان المفسر من علماء المتصوفة مثلا ، لرأينا أنه يفسر القرآن الكريم في اطار يتناسب مع مفهوم المتصوفة للمعرفة ، كما ينطبق ذلك على التفسير الذي وضعه محي الدين ابن عربي «تفسير القرآن الكريم» . هذا ولو كان المفسر للقرآن متوجها بأفكاره بشكل ملحوظ نحو النحو والصرف اكثر مما يكون متوجها نحو المعاني الازلية القرآنية بكل اهميتها للانسان ووجوده وكيانه ومصيره ، لطغت الناحية اللغوية على الجانب الفكري لديه ؛ هذا بالرغم من اهمية اللغة ، وذلك ما نراه في كثير من كتب التفسير القديمة وحتى الحديثة منها.هذا من ناحية ، اما من جانب آخر فصحيح ان موضوع «القصة في القرآن الكريم» قد عولج في كتب مختصة بالقصة حديثا ولكن التركيز في بعض تلك الكتب كان موجها نوعا ما نحو الزاوية التاريخية اكثر من الزاوية الاخلاقية الاجتماعية ، او موجها احيانا نحو اجراء مقارنة بين القصص القرآنية وما ورد منها في التوراة والانجيل ، كما ينطبق الحال على كتاب «قصص الانبياء» لعبد الوهاب النجار . هذا بالرغم من الاهمية لمثل هؤلاء المفكرين جميعاً في مجال الفكر الاسلامي القديم والحديث . وتجدر الاشارة هنا الى أنه بالرغم من ان دراستنا الحالية عن القصة تعنى ايضا كغيرها في بعض فصولها بمسألة المقارنة بين القرآن والتوراة ، الا انها تاخذ منحى جديدا في هذا الشأن . وذلك

http://kotob.has.it/

يتبلور في امرين : أولهما ، ابراز الاضافات القرآنية الواردة بالقصص مع التركيز على اهميتها في كل زمان ومكان . ثانيهما ، الاشارة الى اي «تحريف» وارد في التوراة في القصص بعد كشف دقيق عن الاسباب المؤدية لذلك من نواحي روحية واجتماعية واخلاقية ومنطقية . وعدا كل ذلك فإن كتاب «القصة في القرآن الكريم» يعنى بتقديم القصص كنماذج او كمعايير لمعالجة قضايا اجتماعية مشابهة لقضايا سالفة تظهر دوما على الساحة البشرية . كما أنه يعنى في الوقت ذاته بتقديم صورة جلية ولكن مختصرة في طبيعتها عن كيفية نشوء المجتمعات الانسانية ودورات الرقي والانحطاط فيها كما بينا سابقاً . وهذه كلها مواضيع هامة للفكر الاسلامي .

بناء على هذه الطبيعة للبحث كما هي مبرزة اعلاه فلا بد وان يدرك القارىء بأن الاهتمام بدراستنا تلك لن يكون موجها في جوهره نحو امور تاريخية مختصة بتحديد للفترة التاريخية التي عاش في اثنائها كل قوم ، أو بالبحث عن الاسم المتداول به تاريخيا فيما يتعلق بكل قوم . فالكتاب سيُبقي على اسم كل قوم تماماً كما ورد ذلك في القرآن الكريم ، ولو أن الدراسات الحديثة تظهر بأن لكل قوم اسم مختص بهم من الناحية التاريخية ، فالقرآن قد ترك بعض امور للانسان للبحث عنها والتوصل اليها . ومن ناحية اخرى فالدراسة غير موجهة نحو تحديد للاماكن التي وجد بها الاقوام المتعددة بشكل عام ، بالرغم من اشارتها لاماكن هنا وهناك . ويجب ان نذكر هنا أنه بالرغم من أن القصص القرآنية متسمة بالصبغة التاريخية في بعض مظاهرها ، ولكن تلك الصبغة جاءت بالواقع في اطار التذكير بأن أحداث تلك القصص قد جرت بالفعل لبعض الأقوام في مواقع جغرافية من عالمنا هذا . فالمهم اذن هو التركيز على تلك القصص من زاوية التجارب الانسانية ، والمعاني الروحية والاخلاقية التي تهم الانسان في شتى الأزمنة والأمكنة .

في ضوء ما ذكرناه يحسن بنا أن نذكر بأنه إضافة الى ما تقدم ، فإن كتاب «القصة في القرآن الكريم» يهتم في جوهره بالتوصل الى «النظرية الاسلامية» المتعلقة بمفهوم العقيدة السماوية لكل قوم ، مع تتبع لموضوع التطور في العقيدة كما تمشى ذلك مع التطور الزمني والتنوع في البيئات . وهذا امر هام بحد ذاته لأنه يؤكد الوجود الالهي في كل مكان الى جانب تأكيد القدرة الالهية لفعل كل امر دوماً وابداً . على أن ذلك

http://kotob.has.it/

يدعو بدوره الى ضرورة الأخذ بكل الأحكام والقوانين المناسبة للإصلاح في كل قصة ، لان ذلك يؤدي الى النهوض بالأمة الاسلامية في وقت هي في أمس الحاجة لذلك .

حتى الآن لقد بينا بأن كتاب «القصة في القرآن الكريم» يعتمد على الاجتهاد الشخصي للمؤلفة في معظمه ، وأوضحنا الأسباب التي تدعو لذلك مع إظهار لأهمية الكتاب . ويبقى أن نضيف هنا بأن اتجاهنا نحو الإجتهاد الشخصي قد شكل عاملاً هاماً في تحديدنا للمصادر التي رجعنا إليها . ففي حقيقة الأمر ، لم نستخدم هنا سوى مصدرين من كتب التفسير أحدهما «قديم» وهو كتاب «مجموعة من التفاسير» البيضاوي والنفسي والخازن وابن عباس ، وثانيهما «حديث» في طبيعته ، وهو كتاب «في ظلال القرآن» لسيد قطب . أي اننا جمعنا بين وجهات نظر قديمة ووجهات نظر حديثة فيما يتعلق بموضوع «القصة القرآنية» ولكن على نطاق محدود . هذا ، وقد استخدمنا مصادر قليلة لتدعيم وجهة نظر هنا وهناك ، ويراها القارىء في مواضعها . ولكن لو انتقلنا الآن من موضوع «المصادر» الى موضوع «فصول الكتاب» وطريقة البحث فيه ، يجمل بنا أن نذكر بأن الكتاب يحتوي على أربعة عشر فصلاً : تتناول خمسة فصول منه قصص نوح ، وهود ، ولوط ، وشعيب مع أقوامهم . أما الفصول التالية ، فتتناول قصة موسى مع فرعون وبني اسرائيل إضافة الى موضوع التطور في العقيدة السماوية إبتداء من عهد نوح الى عهد موسى والشبه في الشخصيات البشرية عبر التاريخ ، ثم موضوع المقارنة بين القرآن والتوراة بصدد قصص نوح ولوط وموسى . ففيما يتعلق بالفصول الأولى من هذا الكتاب ، فسوف نقدم القصص المذكورة أعلاه من خلال ثلاث مراحل ، سنعمد في أول مرحلة منها إلى إعطاء صورة مختصرة عن البيئة الاجتماعية والأحوال الأخلاقية التي تضافرت ، وتفاعلت ، ودعت الى ظهور نبي كريم بغرض الإصلاح والهداية الى طريق الحق والنور والهدى . أما في المرحلة الثانية ، فسوف نزود القارىء بصورة جلية عن الفرق بين طريقة الأنبياء في الحوار بكل منطقيتها والحكمة المتسمة بها ، وبين طريقة المكذبين في الجدال بكل سطحيتها وخروجها عن حدود المنطق . ومن خلال ذلك ، نبين نفسية المفسدين وأثرها على تصرفهم الأحمق الذي كان يؤدي إلى إنزال العقاب بهم

http://kotob.has.it/

بالنتيجة . هذا وفي مرحلة ثالثة ، نركز على الطرق المتعددة لإهلاك الجماعات المفسدة من أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، مع حرص على ربط لتلك الطرق مع نوعية الذنب المرتكب من قبل المفسدين والمكذبين بالدين من كل قوم . على أن تلك المراحل تقدم من خلال تقسيم كل قصة الى «مشاهد» يركز فيها على «الاعجاز» في المحتوى والأسلوب القرآني .

على أن الفصول المتعلقة بقصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل تختلف في طريقة عرضها للمادة عن الفصول الأولى إنطلاقاً من وجود الإختلافات في أسلوب العرض القرآني نفسه . فالأحداث هنا تقع في عدة أمكنة تبعاً لحياة موسى الشخصية أولاً ، وعلاقته مع فرعون وبني اسرائيل بعد اختياره للنبوة ثانياً ، وتشتمل ، في الوقت ذاته على عدة حكايات تتمثل كالآتي : حكاية ولادة موسى واستنقاذه من بطش فرعون ، وسيرته قبيل النبوة التي تشمل وجوده في قصر فرعون لفترة ما ، وإبقاء صلته مع بني اسرائيل الى حين مغادرته لمصر . ثم حكايته المتعلقة بمرحلة اصطفائه للنبوة ومواجهته لفرعون . ثم الحكاية المختصة بفرار فرعون وأعوانه ، وبالمقابل معجزة النجاة لموسى وأتباعه وهلاك فرعون ومن معه . ثم الحكايات المختصة بمسألة «التيه والردة» لبني اسرائيل . المهم في الامر هنا أننا لن نتناول القسم المتعلق بقصة موسى في إطار تقسيمه إلى مشاهد كما كان الحال في القصص الخمس الأولى ، بل سنقدمه بشكل فصول تغطي النقاط المذكورة أعلاه بتفصيل .

وتجدر الاشارة أخيراً الى أنه فيما يختص بالفصول الأخيرة من الكتاب ، فقد عنيت الدراسة بالتوصل الى النظرية الاسلامية بشأن قضايا هامة ، كما أستنتجت من القصص القرآنية ، وهي الوحدانية ، حرية الاختيار ، الخير والشر ، والثواب والعقاب ، إضافة الى مسائل أخرى متعلقة بالاخلاق وأثرها في التاريخ . ثم توجهت الدراسة نحو الكشف عن الموقف التوراتي بصدد كل هذه القضايا وغيرها .

فعسى أن يوفقنا الله عز وجل في هذه المهمة ، وله الحمد أولاً وآخراً .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ـ ١٨ فاطر ٣٥.

٢ـ ١٥٥ البقرة ٢.

٣ـ ١٣ الإسراء ١٧.

٤ـ ١٨ فاطر ٣٥.

٥ـ ٢٨٦ البقرة ٢.

٦ـ ٥٩، ٦٠ هود ١١.

٧ـ بشأن موضوع الاعجاز القرآني المتمثل في وحدته، فقد تحدث طه حسين عنه في كتابه «مرآة الاسلام» بما يلي:

فللقرآن وحدته من حيث أنه يدعو دائماً الى أصول معينة: الى توحيد الله، ونبذ الشرك على اختلاف صوره، والايمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وما جاء به من القرآن، والايمان بالرسل الذين جاءوا قبل محمد وما انزل عليهم من الكتب، والايمان بالبعث وبالحياة الآخرة بعد هذه الحياة الأولى وما يكون فيها من ثواب ونعيم لمن اجابوا دعوة الله، ومن عذاب وجحيم لمن أعرضوا عن هذه الدعوة ونفروا منها واستكبروا على الله ورسوله....

طه حسين، مرآة الإسلام (مصر: دار المعارف، لا .ت.)، ص ١٦٣.

وعدا عن ناحية الاعجاز القرآني من حيث المضمون، فهذا الاعجاز يتجلى أيضاً في الأسلوب الذي لا مثيل له كما ذكرنا سابقا. إن القصص القرآنية تبرز هذا الأمر بوضوح تام كما سيتبين فيما بعد. هذا وسنكتفي الآن بعرض فقرة طه حسين عن الاعجاز الاسلوبي المختص بقصة نوح كما وردت في سورة «هود» حيث قال مخاطباً القارئ بما يلي:

http://kotob.has.it/

وما أشك في أنك حين قرأت هذه الآيات لم تعجل في قراءتها لأنها مبسوطة قد اطمأنت وتتابعت في رفق وفي مهل أيضاً. فأنت تقرأها مفكرا فيها معتبرا في أحداثها لا يعجلك عن ذلك شيء. وأنت معجب بانبساط الحديث ومضي القصة في أناة تؤدي المعاني مستوية، ويأتي الإيجاز حين يجب أن يأتي، فلا يضيع عليك شيئا من تمهلك ولا يعجلك عن التأمل والتدبر.

المصدر نفسه، ص ص. ١٤٨ ـ ١٤٩.

٨ ـ وعند هذه النقطة، يجب أن نُذكر بأن القرآن الكريم هو أصدق مرجع لأنه كتاب الله تعالى الذي أنزل بالنص على رسوله محمد (ﷺ)، والذي لم يدخل اليه أي تحوير أو تبديل بشكل قطعي، كما يؤكد من الفقرة التالية المستقاة من كتاب «حياة محمد» لمحمد حسين هيكل، والتي جاء فيها ما يلي:

«والنتيجة التي نستطيع الاطمئنان إلى ذكرها هي أن مصحف زيد وعثمان لم يكن دقيقا فحسب، بل كان، كما تدل الوقائع عليه، كاملا، وأن جامعيه لم يتعمدوا اغفال أي شيء من الوحي. ونستطيع كذلك أن نؤكد، استنادا إلى أقوى الأدلة، ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها كما تلاها محمد.»

محمد حسين هيكل، حياة محمد (القاهرة: مكتبة النهضة، ١٩٦٨)، ص. ٣٨.

http://kotob.has.it/

الفصل الاول

قصة نوح عليه السلام مع قومه

الاتجاهات النفسية والفكرية لدى الاشراف والضعفاء من القوم

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

من الطبيعي ان نبدأ بدراستنا عن موضوع «القصة في القرآن الكريم» بقصة نوح ، أول قصة قرآنية جرت احداثها الطوال في وقت مبكر جداً من تاريخ الانسانية . وهذه القصة تشتمل على عدة مشاهد شيقة ومثيرة بأحداثها للفكر والوجدان . على أنها كغيرها من القصص القرآنية قدمت من خلال «وحدة» زمنية ظهرت من خلالها علاقة وثيقة بين زمن الرسول محمد (ﷺ) وزمن نوح . على ان تلك الوحدة كانت تهدف الى امرين :

اولهما ، اظهار مدى جهد الانبياء في التبليغ ومدى صبرهم ومعاناتهم في اداء المهمة . ثانيهما ، ابراز مدى التشابه في نفسية وطبيعة الفئات المكذبة من ابناء البشر عبر التاريخ . فالحقد والاستكبار الذي تميز به الملاء من قوم نوح يشابه الحقد والغرور الذي اتصف به الكفار من قريش . كما أن طريقة حوار الملاء مع نوح تشابه طريقة حوار كفار قريش للرسول محمد (ﷺ) . فالطريقتان تتميزان بالتحدي المصطحب بالجهل من جانب الكفر والحرص على المصالح الدنيوية ومن ثم رفض التغيير المتمثل في الرسالات السماوية . وعند هذه النقطة ، يجب ان نذكر أن القارىء لقصة نوح يدرك من سياق الاحداث أن الاشراف من قوم نوح كانوا يعيشون في حالة من الفوضى والجهل والظلام . وفي اطار ذلك ، فقد طغت المادية على نفوسهم . وبطغيانها هذا ، أستاثرت بهم الانانية . ففقدت الرحمة مكانها في قلوبهم . على أن ذلك بالمفهوم النظري امر طبيعي ، لأن التوجه نحو المادية بكل ما يتبعها من انانية يؤدي الى الجبروت والقسوة الانسانية . ومن هذا المنطلق ، فإن قصة نوح مع قومه تبين طغيان الفئة المستكبرة على الفئة المستضعفة من القوم . فقد اذل الاشراف الضعفاء ، وكبتوا حرياتهم الفكرية والعملية ، واخلوا من ثم بمبدأ الحقوق والواجبات .

من هنا ، نشأت الحاجة الماسة الى الاصلاح وتعديل الموازين ، فجاء نوح برسالته السماوية للقضاء على الظلم ، واقرار العدل والحق ، والحث على اقامة موازنة دقيقة بين المتطلبات الروحية والمتطلبات المادية .

http://kotob.has.it/

المشهد الاول

ان هذا المشهد يركز على النقاط الاساسية التي بدأ بها نوح في ابلاغ رسالته للقوم من جهة ورد فعل القوم ازاء تلك النقاط من جهة اخرى . لقد بدأ نوح بمخاطبة قومه كالتالي كما ورد في هذه الآيات :

(ولقد ارسلنا نوحا الى قومه إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني اخاف عليكم عذاب يوم أليم) (١) .

اذن ، كما هو الحال في كل دعوة سماوية ، فقد بدأ نوح ، كنذير مبين بالدعوة الى ضرورة الايمان بالله تعالى وحده ونبذ الشرك . وهذا امر هام للغاية يهدف الى ما يلي : اولا ، تذكير القوم بمكانتهم كمخلوقين تابعين الى الله تعالى الذي لا ينسب الكبرياء الا له وحده ، ومن هنا وضعهم في مكانتهم الصحيحة حتى لا يعطوا انفسهم منزلة فوق الحدود المرسومة لهم . ثانيا ، تذكير القوم بأن خلقهم لم يأت عبثاً ، فهم قد خلقوا من أجل هدف أو «مسؤولية» معينة ، ولو أصروا على الاخلال بهَا ، فلا بد وأن يحاسبوا على ذلك . ومن هذه الزاوية ، فقد تم التركيز على مسألة «الحساب» كثاني نقطة في رسالة نوح . ومسألة الحساب تلك هامة جداً ،لانها تبين للانسان أن حياته ليست دنيوية فقط ، بل هناك حياة اخروية يحاسب فيها كل فرد بموجب اعماله . على أن ذلك كان يرمي الى حث القوم على الالتزام بالاحكام والقوانين السماوية حتى يتجنبوا المصير السيء والعذاب الاليم بما قدمت ايديهم . فكيف كان رد فعل الملاء لدعوة نوح التي تحمل وعيدا وتهديدا لهم لطغيانهم بين طياتها ؟ من الطبيعي لقوم سيطر عليهم الغرور المقترن بالجهل ان يكون رد الفعل لديهم سلبيا بكل معنى الكلمة . فقد توجه هؤلاء نحو طريق الهجوم الشخصي بدل التوجه نحو الجدل المنطقي البناء . فالجدل البناء يحتاج عادة الى حسن الرؤيا وقوة التعبير والحكمة ، امور افتقدها الملاء الكفرة من قوم نوح . ومن هنا ، فقد ركزوا على مسألة التكذيب بنبوته من منطلق هذه النقاط : كونه بشر مثلهم ، ففي اطار رؤيتهم للامور استبعد هؤلاء حمل الرسالة السماوية من قبل مخلوق بشري . فالرسالة في نظرهم يجب ان تحمل من قبل ملك على سبيل المثال . على أنهم بعد تهجمهم هذا على نوح بقصد هز الثقة

http://kotob.has.it/

به منذ البداية ، انتقل الملاء الكفرة في خطوة اخرى للتهجم على اتباعه بقصد تدعيم موقفهم . وهذه سياسة متوقعة تتناسب مع نفسية واتجاهات المستكبرين من الفئات البشرية . فمن عادة الانسان المتعالي الذي لايدرك جوهر الاشياء بقصر نظره ، ان يبدأ في صدد تحديه للانبياء ، بالتحقير اولا من شأن صاحب الرسالة ، ثم التدرج للتحقير من شأن اتباعه ، وبعد ذلك الانقضاض بهجوم على الجميع من اجل تبرير تكذيبه للرسالة كما ورد في الآية القرآنية التالية :

﴿فقال الملاء الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾(٢) .

ان استخدام كلمة «الاراذل» تستوقف النظر بشكل بعيد المدى هنا . وهي تحمل المعنى الآتي :

اراذلنا . . . تعني سفلتنا والرذل الدون من كل شيء قيل هم الحاكة والاساكفة وأصحاب الصنائع الخسيسة . . .(٣) .

ان نسبة هذه الكلمة لأتباع نوح تظهر مدى الحقد والاحتقار الذي حمله الملاء او الاشراف من القوم للضعفاء منهم . فهؤلاء الضعفاء لا مكانة لهم ، ولا قيمة لتحركاتهم او لتوجهاتهم الروحية . فتوجهاتهم تلك نابعة في رأي الملاء عن عدم تثبت او تفكر في رسالة نوح بسبب سطحيتهم في النظرة الى الاشياء . على أن تلك الفكرة الواهية من جانب الملاء كان لها رد فعل عكسي دون ادنى شك . فهي بالواقع لم تظهر جهل اتباع نوح كما ظن الملاء الكفرة بل اظهرت جهلهم هم انفسهم ، اذ ان الرفعة والمكانة في المفهوم الروحي لا تعتمد على المال والجاه ، بل تعتمد على التخلي بالاخلاق والمثل والفضائل ، على ان حقد الملاء على اتباع نوح دفعهم الى افتراضات لا جدوى منها . وضمن هذا الاطار الفكري والاخلاقي الواهي ، فقد ذهب الملاء في خطوة ثالثة لاخبار نوح بعدم رؤيتهم لاي فضل له عليهم يؤهله للنبوة ، كما أنهم في الوقت نفسه ، لا يرون اي فضل لاتباعه يستحق المتابعة . وعند هذا الحد في هذه المرحلة اختتموا ردهم على نوح بالتشكيك به ، وبصدق رسالته التي آمن بها اتباعه .

http://kotob.has.it/

وهكذا انتهى المشهد الاول باعطاء صورة حية عن مدى تحدي الاشراف من القوم لنوح ورسالته واتباعه انطلاقاً من حرص منهم على مصالحهم الدينوية ، وخوفا من احداث تغيير تنقلب فيه الموازين رأسا على عقب في المجتمع السائد وقتئذ . فكيف رد عليهم نوح ازاء ذلك ؟ هذا ما تقدمه لنا القصة القرآنية في المشهد الثاني منها .

المشهد الثاني

في هذا المشهد ، تظهر القصة نوح وهو يأخذ نقطة نقطة من اقوال الملاء ويدحضها بقوة استخدامه لكل وسائل المنطق في معركته الجدالية معهم . ومن هنا يؤكد المشهد الفرق الشاسع بين طريقة نوح الرفيعة في الجدال وطريقة الكفار الواهية التي تعتمد على الهجوم الشخصي بدل النقاش الفعال . على أن كل ذلك بدوره يبعث على الاثارة الفكرية والشوق للتمعن في رد نوح الذي وجهه للملاء الكفرة من قومه . إن رد نوح على قومه يتميز باللطف بالرغم مما يحمله من تهديد في بعض الاحيان ، والهدف من ذلك يكمن في السعي «نحو الترغيب» و «الترهيب» . ففي مجال حديثه اولا عن صدق نبوته مقابل تشكيك او نفي الكفار لها ، فقد اكد لهم بطريقة متسمة باللطف الشديد بأنه على يقين تام بأن الله تعالى قد انعم عليه بالنبوة كما يتجلى من الرسالة التي تلقاها . فهذه الرسالة تهدف الى الفيض عليه بالرحمة ، وبالتالي على كل من يتلقاها من خلال التبليغ . ولكن معاني الرحمة تلك لم تدرك من قبل الملاء الكفرة بسبب الغشاوة الموضوعة على اعينهم . ومن هنا ، فقد اعرضوا عن الرسالة . اذن ، لقد ربط نوح هنا التكذيب بجهل الكفار وعدم قدرتهم على رؤية الامور من منظارها الصحيح . وعند هذه النقطة ، اخبرهم نوح بطريقته المتسمة باللطف ، بأنه لن يجبرهم على الالتزام برسالته طالما أنهم كانوا كارهين لها كما جاء في قوله الكريم :

(قال يا قوم ارأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون) (٤) .

اذن ، لقد بين نوح للملاء بأن الالتزام بالعقيدة امر لا يخضع للقوة ، بل على العكس من ذلك ، فهو يخضع للفهم والاقتناع . ومن هنا ، اظهر امامهم مبدأ

http://kotob.has.it/

«التسامح» في الدين . فالانسان روحيا يحظى بحرية الاختيار بحكم تميزه بالعقل على باقي المخلوقات ، ويحاسب بموجب تلك الحرية . وبذلك يكون قد أحضر الى أذهانهم الآن مبدأ ديني آخر بالاضافة الى «الوحدانية» و «الحساب» الذين تحدث عنهما منذ البداية ، وهذا المبدأ هو «حرية الاختيار» الانسانية التي وردت التفاصيل عنها بالرسالة التي انزلت على النبي محمد (ﷺ) فيما بعد . هذا وبعد اثبات نبوته ، وابراز التسامح في الدين ، انتقل نوح الآن الى اظهار سماحته وفضائله «كإنسان» امامهم . فهو في دعوته لهم بكل المبادىء المبينة اعلاه لا يرمي الى الحصول على مال منهم . فالمال الذي ينظرون اليه نظرة تقديس شي ء لا قيمة له عنده ، فالقيمة والاهمية تكمن في نيل الاجر الروحي بالنسبة لديه . وبهذا وضع ميزان «الاعمال» فوق ميزان «المال» امامهم . وهذا امر هام جداً لأنه يهدف الى حث القوم على ضرورة العمل لآخرتهم . فحبهم الجم للمال ، وخوفهم على ضياعه يقف حائلا دون التوجه نحو العمل للآخرة . هذا وبدخوله للحديث عن ميزان الاعمال ، تطرق نوح الآن الى مسالة ازدراء الملاء الكفرة لاتباعه كما عبروا عن ذلك في المشهد الاول حين لقبوهم «بالأراذل» الذين يتصرفون دون وعي او ادراك للامور ، إن موقف الملاء هذا ، الذي ربما كان يحمل ادعاء باستعدادهم لاتباع دعوته في حالة طرد اتباعه ، لقي رفضا تاما من جانب نوح . فاتباعه الذين يسمونهم بالأراذل يلقون تكريما من ناحيته لمكانتهم العالية عند الله تعالى . وعند هذه النقطة ، ركز نوح ثانية على جهل الملاء الكفرة اذ بين لهم أنه لولا جهلهم هذا لما اقدموا على الطلب منه لطرد اتباعه مقابل اتباعهم لدعوته كما ورد في قوله الكريم :

(ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما انا بطارد
الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون) (٥) .

وبهذا وضع نوح امام الملاء الاسس الصحيحة للتصرف والمعاملات مع الغير . إن تلك المعاملات يجب ان تكون مبنية على اسس اخلاقية وروحية وليس على اسس مادية . إن الاسس الروحية الاخلاقية تلك تلزم الانسان بضرورة القضاء على الظلم الناتج عن النظرة الاستعلائية . هذا وان القضاء على الظلم يؤدي بدوره الى توطيد روابط المحبة والتعاون بين افراد المجتمع الواحد .

http://kotob.has.it/

على أنه باهتمامه بمسألة وجوب القضاء على الظلم ، عاد نوح ثانية لتأكيد موقفه بعدم وجود اية نية من جانبه لطرد اتباعه لارضاء اهواء الملأ فرضاهم عنه الناجح عن تلبيته لرغباتهم امر لا يهمه لأنهم لا يستطيعون نصره من دون الله ، وعند هذه النقطة ، ابلغهم بوجوب تذكر ذلك كما ورد في قوله الكريم :

(ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون)(٦) .

اذن ، لقد كشف نوح للقوم هنا عن مبادىء اخرى في المجال الديني . إن الولاء والطاعة يجب ان تعطى الى الله تعالى دون خشية من احد ، لأن النصر من عند الله . على أن النصر هذا مرتبط بدوره بالالتزام «بالحق» و «العدل» من جانب الانسان . هذا وبإظهاره لتلك المبادىء ، فقد كان نوح يهدف الى وتأكيد عدم تخوفه من الملاء بكل مالهم وجاههم وعددهم ، وتأكيد عدم اكتراثه لمواقفهم المتسمة بالتحدي ضده ، وضمن هذا الاطار فقد ابلغهم نوح الآن بأنه لن يقول لهم بأنه يمتلك خزائن الله ، التي لا يغنيها شيء لاعطائهم منها من اجل اتباعهم لدعوته . وهذا يعني أنه اكد لهم ثانية أن الدخول في طاعة الله عز وجل امر غير مرتبط بالمال ، بل هو مرتبط بالاقتناع . وعدا عن تأكيد هذه النقطة ، فقد مضى نوح الآن لتأكيد نقاط اخرى كان قد تحدث بصددها سابقا بشأن تكذيبهم لنبوته على اساس قولهم له بأنه بشر مثلهم ، فقد اخبرهم بأنه لا يدعي العلم بالغيب ولا يدعي بأنه ملك . وعند هذه الزاوية ، مضى نوح للمرة الثالثة للتعقيب على احتقار الملاء الاشراف لاتباعه ، فاخبرهم بأنه لن يخضع الى رغبتهم للقول بأن الله تعالى لن يؤتي اتباعه خيرا ، بل على العكس من ذلك سيقول بكل تأكيد بأن ما اعد الله تعالى لهؤلاء المؤمنين من خير في الآخرة افضل بكثير مما يتمتع به الاشراف من القوم في الدنيا كما جاء في قوله الكريم :

(ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول اني
ملك ولا اقول للذين تزدري اعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله
أعلم بما في أنفسهم إني اذاً لمن الظالمين)(٧) .

اذن ، لقد بين نوح لهم في هذه الآية الكريمة أنه بشر مثلهم . على أن الاختلاف بينه وبينهم يتجلى في تلقيه للوحي من الله الذي يملك مفاتيح السموات والارض ،

http://kotob.has.it/

والذي يملك علم الغيب . وبهذا وضع حداً فاصلا بين «الالوهية و و «النبوة» . فالنبي انسان يختاره الله تعالى لتميزه بصفات تعلو على غيره من ابناء البشر . ومن هنا ، فهو يشكل مثلا اعلى لهم . وعند هذا الحد ، انتهى رد نوح على قومه في المشهد الثاني من القصة . وبالواقع ، فقد كان ردا شديدا في لهجته ، قويا في منطقه ، غنيا في محتوياته ، ومفحما في اسلوبه ، وشاملا في معانيه . هذا وبالنسبة لقوم مستكبرين لا يعرفون للحق طريقا في حياتهم ، فقد وضعهم هذا الرد من قبل نوح في مكانهم الصحيح اجتماعيا وفكريا .

المشهد الثالث

على أن الكشف لهم عن مكانتهم وقدراتهم في الاطار المبين اعلاه قد ادى الى حدوث ارتباك في صفوف الملاء ، وضعضعة ملحوظة في تفكيرهم . اذ أن هولاء الذين ظنوا العظمة بالنفس ، والتفوق في التفكيرقد صدموا بالواقع . لقد استطاع نوح اذن ان ينقل المعركة مع الملاء من مستوى «الهجوم الشخصي» الهدام الذي اتبعه هؤلاء في اسلوبهم في الرد على دعوته لهم بضرورة الالتزام بالوحدانية ، وتذكر الحساب والتصرف بعدل ـ الى مستوى «الحوار» البناء المتسم بالرفعة والقوة والمنطق الذي يحمل في طياته معاني الترغيب والترهيب . على أن الملاء في صدفتهم تلك لم يدركوا اهمية رده بالنسبة لمسألة وجودهم ومصيرهم . اذ تهيأ لهم أن رده هذا كان يهدف الى مخاصمتهم بشدة ، ومن هنا ، فبدلا من التفاهم معه ، تمادوا في غيهم ضده وتحديهم له . وفي تماديهم الاحمق هذا ، طلبوا من نوح لإن يلحق بهم العذاب الذي كان قد وعدهم به مسبقا ، على اساس اثبات نبوته كما جاء في قوله الكريم :

(قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)(٨) .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الانسان المتزن العاقل لا يمكن ان يلجأ الى الطلب لاستعجال العذاب ، بل على العكس من ذلك ، يلجأ عادة الى التوسل الى الله تعالى للفيض عليه بالرحمة والسلام . ولكن ارتباك الملاء النفسي والذهني منعهم من ادراك عواقب طلبهم هذا ، فظنوا أنهم كانوا معجزين في موقفهم هذا . فقد تهيأ لهم أن عدم

http://kotob.has.it/

التلبية لطلبهم باستعمال العذاب يشكل عاملا جديدا في اثبات تشكيكهم وتكذيبهم لنبوة نوح . ومن هذه الزاوية ، يبدو أنهم اعتقدوا بتمكنهم من وضع نوح في موقف حرج يصعب الخروج منه . ولكن مقابل جهلهم هذا المبني على الغرور ، جاء رد نوح عليهم في الآية الآتية كما يلي :

(قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين)(٩) .

لقد عمد نوح في رده لتذكيرهم اولا بالهيمنة الالهية على الكون . وذلك من اجل تأكيد مبدأ الوحدانية مرة اخرى لهم وتأكيد السنن الثابتة التي يسير كل شيء بموجبها . وفي هذا الاطار ، أبلغهم بأن امر العذاب الذين يستعجلونه يكمن بيد الله تعالى القادر على فعل اي شيء بموجب حكمته الفائقة وعلمه اللامحدود . ومن هنا ، فقد تبين لهم أن طلبهم الذي ظنوا انه يحمل «تعجيزا» في طياته ليس كذلك مظهرا لهم بهذا مدى قصورهم الفكري للمرة الثانية . ومن ثم تابع نوح حواره معهم قائلا كما ورد في الآية الكريمة الآتية :

(ولا ينفعكم نصحي إن اردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون)(١٠)

اي كما جاء في تفسير سيد قطب :

فاذا كانت سنة الله تقضي أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضي فيكم ، مهما بذلت لكم من النصح . لا لان الله سيصدكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضي أن تضلوا ، وما أنتم بمعجزين لله عن ان ينالكم ما يقدر لكم ، فأنتم دائما في قبضته ، وهو المدبر والمقدر لامركم كله ، ولا مفر لكم من لقائه وحسبانه وجزائه(١١)

اذن ، فقد تطرق نوح مرة اخرى لمسألة «القضاء والقدر» مبينا لقومه أن ما يقع على الانسان من مكروه ، فبما كسبت يداه . أكد لهم أن الله تعالى منزه عن فعل

http://kotob.has.it/

الشر ، فالخير بأكمله بيده ، اما الشر ، فيتبع عمل الانسان نفسه ، الذي يجازى عليه يوم الحساب . ومن الجدير بالذكر هنا أن رسالة نوح ركزت مرارا على النقاط الآتية : الوحدانية ، المسؤولية الانسانية وما يدور حولها من احكام ثم الحساب . وهذه النقاط تحدد الالتزامات الدينية والدنيوية للانسان التي ينال السعادة المرجوة بموجبها . على أن رفض الملاء المتكرر لهذه المبادىء الجوهرية يبين مدى اصرارهم على التحدي لنوح والتكذيب برسالته دون وعي او ادراك لكنهها . ومما يثير الانتباه عند هذه النقطة ، أنه بمقابل هذا التكذيب من قبل الملاء لنوح ، واذ بالسياق القرآني للاحداث يركز على تكذيب مماثل من قبل ملاء قريش للرسول محمد (ﷺ) . فبحركة خاطفة تنتقل الصورة من موطن نوح الى مكة حيث يكشف النقاب عن مشركي قريش ، وهم يتهمون الرسول الكريم باختلاق القصة المتعلقة بنوح ، والرسول (ﷺ) يرد عليهم بقوله : «إن كنت افتريت مثل هذه القصة ، فأنا اتحمل عقوبة افترائي ، ولكني بالتأكيد بريء من تهمة الافتراء تلك» . وهذا يتجلى في قوله الكريم :

(أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلي إجرامي وانا بريء مما تجرمون)(١٢) .

ويجب ان نذكر في هذا المقام أن هذه الآية «اعتراضية» ووجودها بهذا الشكل في السياق القرآني أمر هام من ناحية الاسلوب والمعنى . فمن الناحية الاولى ، فهي تربط بين عصرين متباعدين مبرزة بذلك «وحدة» زمنية بكل ما يتخللها من «حركية» و«اثارة» و «تشويق» . اما فيما يتعلق بالمضمون ، فالآية الكريمة تزود القارىء بصورة واقعية عن «نفسية» الانسان المستكبر بالرغم من اختلاف الاسماء والامكنة . إن طبع هذا الانسان واحد ، كما أن طريقته في التفكير والتعبير واحدة . فهو بالغشاوة الموضوعة على عينيه لا يعرف للحق ولا للعدل طريقا في حياته ، ولا ينتهي عبثه بالقيم والموازين الا عندما تأتيه ساعة الحساب من عند الله تعالى . وفي هذا الاطار تلقى نوح وحيا بقرب اهلاك الملاء من قومه كما يتجلى في المشهد القادم من القصة .

المشهد الرابع

إن هذا المشهد يركز على نوح «كنبي» و «انسان» ايضا . فهو كغيره من ابناء البشر يمتلك احاسيس ومشاعر ، يحزن ، ويجزع اذا دعت الضرورة لذلك . وهذا ما حدث

http://kotob.has.it/

بالفعل كما يظهر السياق القرآني . فعلى اثر قضاء وقت طويل من حياته وهو يبلغ وينذر قومه بصبر دون استجابة من الاكثرية غمره احساس من الحزن البائس وخيبة الامل . ولكن الله تعالى الذي تشمل رحمته كل شيء افاض بعطفه على عبده نوح في ساعات جزعه ويأسه تلك ، فأوحى اليه بأن القلوب النقية المستعدة للتصديق قد آمنت ، اما القلوب الجاحدة القاسية فلن تؤمن ، ومن هنا ، فلا فائدة من المضي في حث الملاء على تقبل الدعوة . وعند هذه النقطة ، ابلغه الله تعالى بأن لا يحفل ولا يهتم بما كان يصدر عن الملاء من تحد له ومن تكذيب لرسالته . فهذا لن يضره بشيء ، فقد اوشكت ساعة العقاب على القدوم . وما عليه الا أن يشرع الآن في بناء السفينة وهو محفوظ بالرعاية الالهية ومكرم بالعلم السماوي . على أن ابلاغ نوح بصنع السفينة كان مصحوبا بأمر من الله تعالى بعدم مراجعته باستدفاع العقاب على الذين ظلموا (وربما يكون ذلك اشارة لابنه كنعان) فهؤلاء قد تقرر مصيرهم بالاغراق ، كما ورد في قوله الكريم :

(وأوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون)(١٣) .

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن هاتين الآيتين تحملان المعاني الآتية : اولا ، إن الانسان الذي يطغى الشر على تفكيره بشكل مطبق لن يؤمن مهما بذل النبي من جهد لاصلاحه . ثانيا ، إن التبليغ مهمة صعبة للغاية وتحتاج الى تضحية وقوة ارادة وصبر طويل ، ومن اجل ذلك ، يجب اعطاء التقدير اللازم للانبياء والرسل بكل صدق . على أنه بالعودة مرة اخرى الى نوح بعد تلقيه الامر الالهي لصنع الفلك ، يظهر المشهد نوحاً وقد شرع « بالعمل » بالفعل ، كما ورد في قوله الكريم :

(ويصنع الفلك كلما مر عليه ملاء من قومه سخروا منه قال ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم)(١٤) .

إن شروع نوح ببناء السفينة يظهر «حركية» عملية في القصة بعد حركية طويلة

http://kotob.has.it/

في عالم التبليغ . ومع أهمية تحركه في مجال صنع الفلك ، الا أن الملاء الكفرة لم يدركوا ذلك ، وظنوا مرة اخرى أنه بامكانهم الآن التعبير عن استخفافهم منه ببساطة . فلو لم يتمكنوا من الوقوف امامه في طريقته الجدالية المدعمة بالعلم والمنطق وادواته ، كما كان الحال سابقا ، فعلى الاقل يتمكنوا ، بحسب اعتقادهم من الوقوف امامه اجتماعيا . ومن هذه الزاوية ، مضوا «للسخرية» منه وهو يصنع السفينة . هذا كما يروي بعض المفسرين ، فبسبب تقطيعه للخشب وضربه للحديد ، وتهيئته للقار ، عمد من كان يمر به من الملاء وهو يصنع الفلك ، بالاستخفاف منه بالقول له «قد صرت نجار بعد النبوة»(١٥) ، فكما ذكرنا سابقا ، كان الملاء ، بكل غبائهم وغرورهم الاجوف ينظرون نظرة دونية لاصحاب الصنائع ، أمر يؤكد مدى جهلهم بالمقومات الاساسية اللازمة للرقي الحضاري . فهؤلاء لم يكتفوا بإعلان حرب شعواء على المبادىء الروحية والمثل الاخلاقية التي تجلت في رسالة نوح ، بل وقفوا باستكبارهم ، ضد انجاز الصناعات اللازمة في حياة الاقوام . ومن هنا ، فقد استحقوا هم انفسهم «السخرية» من مواقفهم تلك . ولم تلبث تلك السخرية ان وجهت من جانب نوح اليهم كالآتي كما ورد في كتاب مجموعة من التفاسير :

> ان تستجهلوننا في صنعنا (للفلك) فإننا نستجهلكم لتعرضكم لما يوجب سخط الله وعذابه(١٦) .

ومن ثم اردف قائلا لهم بأنكم سوف تعلمون من الذي سيلحق به عذاب يخزيه في الدنيا ، كما أنكم سوف تعلمون من سيلحق به عذاب مقيم ، أي في الآخرة . ومن الجدير بالذكر هنا أن نوح فرق لقومه بين نوعين من العذاب . اولهما ، العذاب الدنيوي وهو «جماعي» بطبيعته وثانيهما ، العقاب الاخروي ، وهو «فردي» بطبيعته كما تحدثنا عن ذلك مسبقا . إن سخرية نوح من القوم إذن ، قائمة على علم ومعرفة وهي تسير بخط معاكس لسخريتهم منه . على أن ذلك يظهر أن السخرية «كمفهوم» تشير الى اتجاهين : اتجاه «ايجابي» مرتبط بالمعرفة والعلم والمنطق والالمام التام بعواقب الامور كما يتجلى من سخرية نوح الاخيرة من الملاء . ثم اتجاه «سلبي» مرتبط بالجهل والغطرسة وعدم التقدير لعواقب الاشياء كما يتمثل في سخرية الملاء من نوح حين كان يصنع السفينة . هذا وان العرض والتفريق القرآني لهذين الاتجاهين هام للغاية ،

http://kotob.has.it/

لانه يبرز احد عناصر المعرفة التي يقدمها القرآن بالخطوط العريضة الى عالم الفكر الانساني ، حيث يترك الباقي للذهن البشري . هذا وبالعودة مرة اخرى الى القصة لمتابعة الاحداث بعد تحذير نوح للملاء بحتمية قدوم عذاب مخزي لهم في الاطار المبين اعلاه ، واذ بعلامات العقاب بدأت بالظهور في الاجواء .

المشهد الخامس

فها قد جاء الامر الالهي بفوران التنور اي البدء في انبعاث الماء من قاع الارض نحو اليابسة كعلامة او اشارة لبوادر «الطوفان» كما جاء في قوله عز وجل :

﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه الا قليل ﴾ (١٧) .

إن الامر الالهي هذا كان مصطحبا بالاوامر التالية الموجهة الى نوح : أولا ، الالتزام بالحمل بالسفينة من كل صنف ذكر أو صنف انثى . ثانيا ، الالتزام بحمل اهله فيها الا من استحق عليه العقاب منهم . والاشارة هنا كانت موجهة نحو كنعان ابن نوح كما يعتقد الكثير من المفسرين . ثالثا ، حمل كل من آمن بالرسالة السماوية معه ، وهؤلاء كانوا قلة من حيث العدد . على أنه فيما يختص بالنقطة الاولى ، فإن ما يثير الانتباه هنا التوجيه الالهي لنوح نحو ضرورة وضع مجموعات من الجنسين في السفينة ، الذكور والاناث معا . إن هذا يلقي الضوء على العلاقة بين الرجل والمرأة في الاسلام من خلال تقديم مفهوم يساوي بينهما من حيث التفكير السليم والايمان المستنير . كما أنه ، في الوقت نفسه ، يلقي الضوء على المفهوم الاسلامي لضرورة بناء مجتمع سليم نواته «العائلة المستقرة» . اما ما يسترعي الانتباه فما يختص بالنقطة الثانية المبينة اعلاه ، فهو موقف الاسلام من مبدأ «المساواة» . إن الاسلام دين الله تعالى ، يساوي بين أبناء البشر ، ويجازي كل إنسان بمقتضى أعماله . فمع أن كنعان كان ابنا لنبي كريم ، الا أنه استحق العقاب بسبب اصراره على الكفر . على أنه مما يلفت النظر بالنسبة للنقطة الثالثة المذكورة اعلاه ، هو التزام «القلة» من قوم نوح بالتصديق والايمان من دون «الكثرة» . وهذا بدوره يلقي الضوء على مفهوم القلة والكثرة الذي كنا قد تحدثنا عنه في «مقدمة» الكتاب .

http://kotob.has.it/

هذا وبالعودة مرة اخرى الى احداث القصة منذ فوران التنور ، والاوامر الالهية لنوح «لتعبئة» السفينة ، تمضي الآيات القرآنية للتركيز على نوح وهو يطلب من كل تابعيه من اهل وغيرهم بالشروع للركوب بالسفينة وهم يذكرون اسم الله جل جلاله في اقلاعها ورسوها كما جاء في هذه الآية الكريمة :

﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾(١٨) .

إن هذه الآية تحمل في طياتها تعليمات من الله تعالى للانسانية . فالذي يريد أن يشرع في انجاز امر ما ، فإن عليه أن يتوكل على الله تعالى حتى يحظى بالنجاح والفوز . اذن ، وبالتوكل على الله فقد تم اقلاع السفينة . وهنا يفاجيء القاريء بالاحداث التي تظهر السفينة من خلالها ، وهي تشق طريقها بسرعة فائقة عبر موج مرتفع جدا غطى قمم الجبال كما ورد في قوله الكريم :

(وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)(١٩) .

وفي شرح لهذه الآية ، جاء ما يلي :

الموج ما ارتفع من الماء اذا اشتدت عليه الريح شبهه سبحانه وتعالى بالجبال في عظمه وارتفاعه . . . (وقيل) ارسل الله المطر أربعين يوما وليلة وخرج الماء من الارض فذلك قوله سبحانه وتعالى ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر ، يعني صار الماء نصفين نصفا من السماء ونصفا من الارض وارتفع الماء على أعلى جبل وأطوله أربعين ذراعا وقيل خمسة عشر ذراعا حتى اغرق كل شيء(٢٠) .

إن هذه الفقرة تظهر مدى ثورة الطبيعة في أيام العقاب الذي احاق بالملاء الكفرة من كل جانب . هذا وبينما كانت القصة تركز على تلك الثورة التي بدت سفينة نوح من خلالها شامخة قادرة على اختراق امواج الطوفان بقوة بالحماية الالهية لها ، واذ

http://kotob.has.it/

بالصورة للاحداث تعود فجأة الى الوراء ، الى زمن اقلاع السفينة ، لتكشف للقارىء عن محادثة كانت قد جرت سابقا بين نوح وابنه كنعان . فهذا كنعان كان واقفا في معزل عن المؤمنين وعن السفينة وهي تستعد للاقلاع . وازاء ذلك اذ بنوح يناديه قائلا له ، يا بني أسلم واركب معنا ، ولا تكن في الدين وفي الانعزال مع الملاء الكفرة من القوم . فنوح هنا اظهر حرصا حتى باللحظات الاخيرة الحاسمة على اسلام ابنه ونجاته . ولكن يبدو أنه كان يفكر في اتجاه ، بينما كان ابنه يفكر في اتجاه آخر . فكنعان ، حتى هذه اللحظة ، كان قاصرا في نظرته للامور بسبب استكباره وغروره كغيره من الكفرة من القوم . ومن اجل ذلك ، رفض الاصغاء الى نصيحة والده ظنا بجهله بأن صعوده الى قمة الجبل سيحميه من الغرق . فلم يدخل الى تصوره مطلقا بأن ماء الطوفان يمكن ان يغطي قمم الجبال فالانسان الكافر يستبعد وقوع المعجزات ولا يفهم علاماتها بسبب الغشاوة الموضوعة على عينيه ، على أن نوح عاد فكرر نصيحته لابنه لتغيير موقفه قبل فوات الاوان . فأبلغه بأن لا عاصم له من الغرق ولا نجاة الا بالالتحاق به وبالمؤمنين بالسفينة ، مكان الرحمة . وإنهما لكذلك ، واذ بالموج يحول بينهما ، فتمضي سفينة النجاة بطريقها ، ويغرق كنعان مع غيره من الكفرة من القوم ، كما جاء في قوله الكريم :

(قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما فكان من المغرقين)(٢١) .

من الملاحظ ان مشهد الطوفان هذا وما تخلله من احداث حمل بين طياته «عناصر» هامة من ناحية الاسلوب القصصي فقد اكتنفه عنصر «المفاجأة» بكل اثارته . إن الانتقال السريع من منظر السفينة وهي تشق طريقها عبر امواج البحر المتلاطمة بنجاح الى صورة سابقة متمثلة في الحوار الاخير «المؤثر» بين نوح وابنه امر مفاجىء للقارىء ومثير للدهشة . فالقارىء الذي تابع بفكره السفينة وهي تنطلق كالصاروخ من حيث السرعة بالتعبير الحديث ، كان في حالة توقع لاحداث «مستقبلية» . ومن هنا ، فالعودة بالصورة الى الماضي امر ملفت للانتباه ، ومثير للفكر والوجدان . فهو يبين اعطاء الاولية لتأكيد النجاة بالنسبة لنوح ومن آمن معه من أهله وقومه بالرغم من الصعوبات الجمة الناتجة عن ثورة الطبيعة بطوفانها . ولكن ما ان تم تأكيد هذه النقطة

http://kotob.has.it/

حتى عاد السياق القرآني للاحداث القصصية الى الوراء لكي يزود القارىء «بمثل» حي عن مصير أي انسان كافر، حتى لو كان ابن نبي كريم. وعند هذه النقطة، تغلق القصة الابواب عن الحديث عما جرى للمغرقين، تاركة بذلك النوافذ مفتوحة امام الذهن البشري لتصور ما يمكن ان يكون قد حدث «للمغرقين». وفي هذا «الايجاز» الذي لا مثيل له تصوير لهول الموقف من جهة، ودعوة للاعتبار من جهة اخرى. على أن الايجاز القرآني للقصة لم يقتصر على امر المغرقين، بل شمل سفينة النجاة الى حد ما. فالقصة التي كانت قد ركزت على قدرة السفينة على اختراق امواج الطوفان وهي مكللة بالعناية الالهية، تفاجىء القارىء بمنظر السفينة وهي تستقر على الجودي. فقد جاء الامر الالهي للارض للانشقاق وبلع الماء، والى السماء بحبس الماء. وهكذا نقص الماء ونضب وانجز وعد الله تعالى بالفيض بالنجاة على نوح، وكل من اتبع رسالته. وبالمقابل تم اهلاك المكذبين اهلاكا تاماً، كما ورد في قوله الكريم:

(وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين)(٢٢).

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الآية الكريمة، تبين أن كل الموجودات في الكون على اتصال وثيق بالله تعالى، اذ انها كلها تخضع لمشيئته. فكما أن الانسان متصل بالحيوان ،فهو متصل بالجماد ايضا. وكل شيء يسير بانتظام تام وفق ارادة الله تعالى، وامره الذي لا مرد له. وبالعودة ثانية الى القصة منذ هدوء العاصفة، واستقرار السفينة بسلام على الجودي، واذ بالاحداث تركز الآن على «حوار» بين نوح والله. فنوح الذي اصابه حزن عميق على ابنه كنعان المغرق، قد دعا ربه الآن قائلا، رب ابني كنعان من أهلي الذين وعدت ان تنجيهم، فلماذا لم ينج؟ وان وعدك هو الحق الذي لا ريب في انجازه، وانت احكم الحكام كما يتجلى في قوله الكريم الذي يحمل الرد معه:

(ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني اعظك ان تكون من الجاهلين)(٢٣).

http://kotob.has.it/

اذن ، جاءه الجواب :

> بالحقيقة التي غفل عنها . فالاهل ـ عند الله وفي دينه وميزانه ـ ليسوا قرابة الدم ، انما هم قرابة العقيدة . وهذا الولد لم يكن مؤمنا ، فليس اذن من اهله وهو النبي المؤمن . . . جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد ، وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد(٢٤) .

وازاء هذا الرد ، يقدم نوح اعتذاره الصادق الى الله تعالى لما فرط به من السؤال ، مؤكدا بأنه لن يلجأ في المستقبل الى طلب ما ليس له به علم بصحته ، متضرعا في الوقت نفسه ، لطلب الغفران والرحمة من الله تعالى حتى لا يكون من الخاسرين اعمالا . وهنا ادركته الرحمة الالهية ، فأخبره الله تعالى الان بالشروع للنزول من السفينة الى الارض بسلام منعما عليه وعلى الصالحين والمؤمنين ممن معه بالبركات . اما اؤلئك النسل من ذرية الناجين الذين سوف يجرفهم حرصهم على الحياة للتمتع بها ، فسوف يمتعوا ثم يصب عليهم العذاب الاليم ، كما ورد في قوله الكريم :

> ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم﴾(٢٥) .

اذن ، فخاتمة القصة حملت في طياتها بشرى ـ لنوح وكل من صدق من ذريته بالرسالة ـ بالفيض وبالرحمة والبركة عليهم . وبالمقابل ، حملت تهديدا ووعيدا لكل من صب اهتمامه نحو متاع الدنيا وزخرفها من نسل ذرية الناجين . وعند هذه النقطة ، التفت السياق القرآني مرة اخرى الى النبي محمد (ﷺ) من اجل تأكيد صحة الوحي . وذلك من خلال ابلاغه بأن الانباء التي تلقاها هو وقومه في صدد قصة نوح لم تكن معلومة لديهم سابقا ، كما جاء في قوله الكريم :

> ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾(٢٦) .

وهنا يبرز هدف رئيسي من ابلاغ قصة نوح للنبي محمد (ﷺ) . إن قصة نوح

http://kotob.has.it/

تركز في احداثها مرارا على صبر نوح الطويل المدى ، وهو يحاور الملاء الكفرة الذين فاض تحديهم للرسالة السماوية كل الحدود . ولكن صبره هذا لم يذهب سدى ، اذ انعم الله تعالى عليه وعلى من آمن معه بالفرج والنجاة ، ودارت الدائرة على الملاء بكل جبروتهم وأبعدوا نهائيا عن التاريخ ، وعن الحياة وهم ملعونين في الدنيا والآخرة . ومن أجل ذلك ، فالآية الأخيرة تدعو النبي محمد (ﷺ) للتذرع بالصبر في ابلاغ الرسالة ومن ثم ، مواجهة الكفار بكل قوة ورباطة جأش . فالغلبة والفوز دائما في جانب المتقن . ومن الجدير بالذكر هنا ان قصة نوح تلقي الضوء على مفهوم «الصبر»في الاسلام . ان الصبر«قوة» لأنه يبرز مدى القدرة على تحمل المصاعب والمتاعب التي لا بد وأن تواجه الانسان في حياته . فالصبر اذن يحمل معنى التضحية ، وقوة الارادة ، والعزيمة ، والشجاعة ، والثبات ، ونهايته النصر الاكيد من عند الله تعالى . ومن هنا ، فمن الضروري ان يتحلى الانسان دوما بهذه الصفة مع التذكر بأنه خلق «للابتلاء» في حياته الدنيوية هذه .

وأخيرا ولاعطاء صورة مختصرة عن ما قدم بصدد قصه نوح في هذه الدراسة ، يجب ان نذكر أننا بدأنا بالكشف عن مشكلة «اجتماعية» حدثت في زمن مبكر من تاريخ الانسانية . ثم بيّنا تطورها التدريجي من خلال عرض لمناقشة نوح مع الملاء من قومه ـ الى ان وصلت تلك المشكلة الى نقطة «التأزم» التي تطلبت «حلا» . ثم اظهرنا بعد ذلك كيف جاء الحل الجازم الذي لا هزل فيه من خلال «معجزة» الهية متمثلة «بالطوفان» الذي اهلك الجماعة المفسرة من قوم نوح . . تلك الجماعة التي اختفت من الساحة البشرية . ويجب ان نضيف هنا أنه بانتهاء حياة الاكثرية من قوم نوح بالغرق ، فقد انتهت حقبة طويلة من الظلم البشري ، وابتدأت بالمقابل دورة تاريخية جديدة مع رسو السفينة على الجودي . وبذلك استمرت عجلة التاريخ في سيرها الى الامام . على أن قصة نوح تظهر في مراحلها النهائية ، إن تلك الدورة كانت قائمة في بدايتها على مقومات ودعائم روحية ، متضمنة في رسالة نوح السماوية ، وهذه كما بينا في شرحنا للقصة تتضمن الالتزام بالوحدانية ، المسؤولية الفردية ، ثم الايمان بالحساب من ثواب وعقاب . هذا بالاضافة الى الحث على ضرورة مراعاة مبدأ العدل والمساواة في المعاملات الانسانة ، وامور اخرى تهم الفرد ، والعائلة والمجتمع ككل .

http://kotob.has.it/

ولكن قصة نوح تظهر ، من جانب آخر ، أن تلك الدورة التي استندت على اسس روحية في بدايتها ، بدأت بالتغير من حيث النظرة الى الروحانيات . فمع مرور الزمن ، فقد عمد الكثيرون الى الاتجاه نحو المتاع الدنيوي بكل مفاسده . وبهذا عاد الظلم ، باشكال جديدة اخرى ، بالانتشار ثانية على الساحة البشرية . على أن هذا الامر يتجلى بوضوح في القصة التالية التي سنتحدث عنها ، وهي قصة «هود» مع قومه «عاد» .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٢٥ ، ٢٦ هود ١١ .

٢ ـ ٢٧ هود ١١ .

٣ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، كتاب مجموعة من التفاسير ، جزء ٣ (بيروت : دار احياء التراث العربي ، لا . ت .) ، ص . ٣١٧ .

٤ ـ ٢٨ هود ١١ .

٥ ـ ٢٩ هود ١١ .

٦ ـ ٣٠ هود ١١ .

٧ ـ ٣١ هود ١١ .

٨ ـ ٣٢ هود ١١ .

٩ ـ ٣٣ هود ١١ .

١٠ ـ ٣٤ هود ١١ .

١١ ـ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جزء ٤ (القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٩) ، ص ص . ١٨٧٥ ـ ١٨٧٦ .

١٢ ـ ٣٥ هود ١١ .

١٣ ـ ٣٦ ، ٣٧ ، هود ١١ .

١٤ ـ ٣٨ ، ٣٩ هود ١١ .

http://kotob.has.it/

١٥ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٢ .

١٦ ـ المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

١٧ ـ ٤٠ هود ١١ .

١٨ ـ ٤١ هود ١١ .

١٩ ـ ٤٢ هود ١١ .

٢٠ ـ البيضاوي والنسفي ، والخازن وإبن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦ .

٢١ ـ ٤٣ هود ١١ .

٢٢ ـ ٤٤ هود ١١ .

٢٣ ـ ٤٥ ، ٤٦ ، هود ١١ .

٢٤ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٨٧٩ .

٢٥ ـ ٤٨ هود ١١ .

٢٦ ـ ٤٩ هود .

http://kotob.has.it/

الفصل الثاني

قصة هود عليه السلام مع قومه عاد

العواقب المترتبة على الاعتزاز بالقوة المادية من دون القوة الروحية

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

وبعد عرض لقصة نوح بكل تركيزها على عواقب الظلم الناتج عن الفوارق الاجتماعية ، واستبعاد واستغلال القوي للضعيف ، ينتقل القرآن الكريم لإبراز زاوية اخرى من الظلم الوخيم الناتج عن الغرور الانساني للشعور «بالتفوق الحضاري» . وذلك من خلال عرض لقصة عاد قبيلة حكمت بقاعاً في جنوب الجزيرة العربية . إن السياق القرآني للأحداث القصصية يبين أن البلاد التي رضخت لحكم عاد كانت تتميز بمستوى رفيع من حيث المعيشة . فقد توفر للمجتمع السائد عندئذ كل مقومات الحياة الغذائية اللازمة لاستمرارية الحياة من أنعام ، وجنات وعيون من جهة ، كما توفرت فيه اليد العاملة ببراعة ومهارة لكثرة البنين من جهة أخرى . على أن كل ما توفر في ذلك المجتمع من قوى بشرية ومواد غذائية ومياه ، نعم من عند الله تعالى الذي خلق الانسان ، ووفر له كل احتياجاته ، كما هو مقرر دينياً ، يقول تعالى في صدد مخاطبة هود لقومه :

﴿فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾(١) .

إن تلك الآيات تبين أنه بالرغم من حصول قبيلة عاد على كل تلك النعم اللازمة لاستمرارية الحياة ، الا أن أفرادها لم يعبروا عن شكرهم لواهبها وذلك يبدو جليا بانحيازهم عن طريق التقوى وتقديم الطاعة الى الله تعالى . فمن عادة الكثيرين من أبناء البشر الاستفادة القصوى من كل نعمة الهية دون التوجه بالشكر لواهبها ، وهذا امر مرفوض من الناحية الروحية . ففي الحقيقة ، أن الشكر يعني اعتراف الانسان وتقديره للنعم الالهية التي تعم حياته من كل زاوية منها والاعتراف هذا يقرب بين العبد وربه ويعود بالفائدة الكبرى على الانسان . فالانسان كمخلوق ضعيف تابع لواجب الوجود بحاجة ماسة الى الرعاية الالهية بإستمرار . والشكر يؤدي الى الفيض عليه بتلك النعمة . هذا من ناحية ، اما من جانب آخر فإن تقديم الشكر الى الله تعالى

http://kotob.has.it/

ينعكس في مجال المعاملات الانسانية . فالشخص الذي يعترف بفضل الله تعالى عليه عن طريق التقوى والطاعة ، لا بد وأن يتصرف بفضل الآخرين عليه في حالة تقديمهم لمساعدات له بشكل أو بآخر . ومن هنا فالشكر يأخذ منحيين مترابطين أولهما سماوي والآخر دنيوي ، وكلاهما مرتبط بالآخر . وهذا بدوره يؤكد الصلة بين الدين والدنيا فالدين هو اساسُ المعاملات التي تأخذ شكلا صحيحا بين أبناء البشر . ومن أجل ذلك فقد خُصص للشكر كمبدأ أهمية خاصة في المجال الروحي ، ودعي قوم عاد لتقديم الشكر الى الله تعالى .

ـ ولكن بالعودة الثانية الى موضوع التقدم الحضاري الذي شهدته عاد ، فالآيات القرآنية تركز على تقدم عمراني عظيم حظت به القبيلة ، فقد برع أفرادها في بناء القصور الشاهقة ، كما بنوا الحصون والقلاع المحكمة . ويبدو أن أبنيتهم تلك كانت قائمة على حسن تخطيط ، وعلم رفيع بفن العمارة . هذا وان القرآن الكريم يشير الى مدينة «إرم» ذات البناء الرفيع ، أو ذات عماد الذهب والفضة ، التي لم يوجد لها مثيل من حيث الحسن والجمال في جميع العالم كما ورد في قوله الكريم :

﴿إرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾(٢) .

على أن التفوق العمراني لعاد الذي تجلى في جميع المواطن التي خضعت لحكمهم بما في ذلك إرم ، قد دفع بالقوم الى الغرور ومن ثم التصرف في اطار بعيد عن الشعور بالمسؤولية . لقد عمد البعض منهم الى انشاء أبنية على رؤوس الجبال اما بقصد التفاخر بالقدرة والمهارة في فن البناء ، أو بقصد الإشراف على أموالهم وأمتعتهم أو لأهداف أخرى . وبهذا أساءوا التصرف أخلاقيا بسبب حرصهم على الدنيا وماديتها . هذا وان حرصهم على حب الحياة الدنيوية تلك يتجلى من خلال مفهومهم أو نظرتهم للصناعة ، كما ورد في قوله الكريم :

﴿ اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾(٣) .

وفي شرح هذه الآيات يقول سيد قطب بأن عاد :

قد بلغت من الحضارة الصناعية مبلغاً يذكر ، حتى لتتخذ

http://kotob.has.it/

المصانع لنحت الجبال وبناء القصور ، وتشييد العلامات على المرتفعات ، حتى ليجول في خاطر القوم أن هذه المصانع وما ينشؤونه بواسطتها من البنيان كافية لحمايتهم من الموت ووقايتهم من مؤثرات الجو ومن غارات الاعداء (٤) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن بريق الحياة الدنيا قد يقف عائقا دون الاهتمام بالآخرة من قبل الكثيرين . فالبيوت التي تبنى بمهارة الانسان واكتشافاته قد تحجب الرؤيا الشمولية للاشياء عن أعين الكثيرين ، وذلك عندما ينصب الاهتمام الاكبر لمثل هؤلاء على البيوت التي يعيشون فيها بفخامتها ، ومحتوياتها ، وسبل الرفاهية فيها . ومن هذه الزاوية ، يصبح البيت أو البناء لهؤلاء عالم بحد ذاته ، يرون الخلود في العيش الرغد بين جدرانه ، وعندما يصل الانسان الى مثل هذه النظرة المادية المحدودة للاشياء يفقد صلته بعالم الروح . وعليه ، فالله تعالى يحذره من مغبة مثل هذا التفكير ، ويبين له بوضوح بأنه من الخطأ أن يظن بأن المال أو البناء الفخم الذي يعيش فيه بما توصل اليه من اكتشافات في مجال التصنيع ، يزوده بالوقاية أو الحماية من الموت : فالمال بكل وسائل جمعه لا يجلب الخلود ، ويعذب صاحبه الضال :

﴿يَحْسَبُ أن مَالَهُ أخلَدَه ، كلا لَيُنْبَذَنَ في الحُطَمَة﴾ (٥) .

اذن ، إن رؤية الخلود من خلال الثراء المادي أمر سيء ، ويعود بالوبال على اصحابه بشكل عام ومن اجل ذلك اتى تحذير قوي لقوم هود . ولكن بسبب الغشاوة الموضوعة على أعينهم ، فلم يفهموا جدية مثل هذا التحذير . ومضوا في غيهم وطغيانهم وعبثهم . فقد ظنوا أن الثراء الذي نعموا به ، والمصطحب بالتقدم الصناعي والعمراني ، يزودهم بالاحقية لاستخدام العنف والقوة ، ومن ثم البطش بالآخرين بغلظة ، من أجل الحفاظ على منافعهم ومصالحهم كما يتجلى في الآية الكريمة المختصة بعاد :

﴿وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ (٦) .

لقد عاث حكام عاد وتابعيهم فساداً في الارض ، وتجبروا وتحكموا بالقبائل الضعيفة المجاورة دون أي وازع أخلاقي من غير ان يدركوا أن قوتهم مادية بطبيعتها ،

http://kotob.has.it/

وأن كل قوة مادية ، مهما بلغت من شأن ، تتلاشى بكل تأكيد أمام القوة الالهية التي لا تعلوها قوة كما ورد في قوله الكريم :

﴿فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون﴾(٧) .

إن هذه الآية الكريمة تلقي الضوء على نفسية الأمم المستكبرة بغير حق عبر التاريخ ، فما عاد الا «مثلا» او «نموذجا» حياً لتلك الدول ، إن الامم المتغطرسة المتعالية تظن أن تفوقها الحضاري على غيرها يخولها للتعدي على حقوق البلاد الأقل قوة ، والاستيلاء على اراضيها ، أو نهب مواردها ، وذلك من اجل تقوية وتثبيت دعائم حكمها ، على أن مثل تلك الدول المستكبرة بقوتها المادية تنسى في خضم زهوها المتقدم أن القوة جميعها بيد الله تعالى ، خالق الكون وكل ما فيه . ولا تتذكر تلك الحقيقة الا عند قدوم ساعة العقاب للجماعة المفسدة .

المشهد الاول

حتى الآن ، لقد ركزنا الأضواء على الخلفية الأخلاقية والاجتماعية والسياسية لعاد وهي كما نرى تظهر بأن الفساد والظلم قد عمّ في المناطق الخاضعة لسيطرة تلك القبيلة وعليه فقد كانت هنالك حاجة ماسة للاصلاح من كل زاوية عندما أتى هود برسالته السماوية كما حصل سابقاً فيما يختص بنوح وقومه ، فلا بد وأن تسود فترة من الجاهلية قبل ظهور أي نبي . فقدومه بالتالي كان يرمي الى اعادة توجيه كل مفسد ضال الى مبادىء الدين القويم ، لان المصير الحسن للافراد والامم مرتبط باتباع تلك المبادىء . فما هي المبادىء التي دعا هود قومه إليها ؟ يجدر الذكر هنا أنه كما هو الحال مع كل نبي نسي قومه التقوى وتقديم الطاعة الى الله تعالى ، وجحدوا بالنعم الألهية ، واتبعوا العتاة منهم ، واغتروا بالقوة المادية الواهية من دون القوة الروحية ، فقد بدأ هود بدعوتهم أولا لضرورة الالتزام بمبدأ الوحدانية أي أنه سعى قبل أي شيء آخر ، لتحويل أنظار القوم من الارض وعبادة البشر من المتحكمين فيهم ، الى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له في إطار أخوي كما ورد في قوله الكريم :

http://kotob.has.it/

وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون[٨] .

وتجدر الاشارة هنا الى أن هوداً تحدث مع قومه في اطار أخوي حتى يحبب اليهم الايمان بالله تعالى من جهة ، وينشىء بينهم علاقات وطيدة مبنية في جوهرها على المودة والرحمة والرأفة والتعاون من جهة أخرى . فمثل هذه العلاقات لا تقوم الا عندما يتخلى الانسان عن تقييم الامور من منظار مادي نفعي بحت . ويقيمها بدلاً من ذلك ، من خلال منظار أخلاقي معتمد على المثل الروحية . ولتدعيم هذه الفكرة ، يظهر السياق القرآني هوداً وهو يبلغ قومه بأنه لا يريد مالاً مقابل دعوته لهم ، فأجره على الله تعالى خالقه . فهنا بيّن لهم كنوح سابقاً ، بأن الاجر المادي لا قيمة له في نظره إذا قورن بالأجر الروحي الدائم . فالانسان كمخلوق تابع لواجب الوجود ، يتطلع دوماً الى الجزاء الروحي الذي يبعث على الاطمئنان في الدنيا ، وعلى دخول جنات الخلد في الآخرة على أن هوداً أبدى لهم بوضوح أن قصر نظرهم ، وعدم تمكنهم من رؤية الأمور في منظارها الصحيح ، قد منعهم من ادراك حسن نيته كأخ وحرصه على نقلهم من براثن المادية والوثنية الى طريق الحق والنور كنبي كما ورد في قوله الكريم :

(يا قوم لا اسألكم عليه أجرا ان أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون)[٩] .

فهود هنا ربط حرص الانسان الشديد على الحياة وأموالها ، من دون الحرص على الأجر الروحي ، بعدم الحكمة أو التعقل ، وذلك لأن الله تعالى يمتلك زمام كل الأشياء في الكون ، ولا مرد لكلمته ، فما كانوا يملكونه من مال لا يمكن ان يشكل عاملا لتزويدهم بالحماية والاطمئنان ، ومواصلة العيش الرغد الذي كانوا قد نعموا به . ولتزويدهم بمثل في هذا الصدد ، فقد تطرق هود الآن الى مسألة حبس المطر عن قبيلة عاد . اذ أنه من الواضح ان القوم كانوا يعانون من قلة المطر بعد كثرة في سنواتهم الأخيرة . وبما أن الماء يشكل عاملاً اساسياً للأزدهار الزراعي ، ولاستمرارية الحياة البشرية ، فقد حثهم هود على ضرورة اللجوء الى الاستغفار والتوبة الى الله تعالى ، حتى ينعم عليهم ثانية بالمطر الغزير اللازم للحفاظ على قوتهم ومكانتهم . وبعد هذا الترغيب لهم بالدعاء وطلب المغفره ، توجه الى تحذيرهم من مغبة عدم التصديق

http://kotob.has.it/

بالرسالة السماوية ، ومن ثم الامعان في الافساد ، كما ورد في قوله الكريم :

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يُرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)(١٠) .

إن هذه الآية القرآنية تشير الى مبدأين هامين : اولهما سماحة الدين . وثانيهما ، ربط القوة الصحيحة في حياة الأمم بالايمان والتصديق . بالنسبة للنقطة الأولى ، فمع أن الكثيرين من ابناء عاد انحازوا عن طريق الحق والهدى بطغيانهم الذي تحدثنا عنه اعلاه ، الا أن هوداً اكد لهم بأن ابواب الامل مفتوحة دائماً لكل من تاب واصلح . فعلى الانسان ان لا ييأس من عفو الله ومغفرته لو اذنب ، ثم تاب ، واقلع عن الذنب . اما بالنسبة للنقطة الثانية ، فيظهر من حوار هود لقومه بأن عمر الحضارات الانسانية مرتبط بالايمان . فالحضارة القائمة على اسس مادية قصيرة الأجل ، والعكس ينطبق على الحضارات القائمة على اسس روحية وفضائل اخلاقية . وضمن هذا الاطار ، فقد حذر هود قومه من مغبة الإصرار على التكذيب بالدين ، وأوضح لهم بأن قوتهم التي يعتزون بها سائرة الى زوال بلا محالة ، اذا لم يتوجهوا بالتوبة الى الله تعالى . فهل فهم القوم الدرس؟

المشهد الثاني

بالواقع ، إن الغشاوة الموضوعة على اعين ابناء عاد ، قد احالت دون فهمهم للرسالة واهميتها بالنسبة الى كيانهم ووجودهم ومصيرهم . فبالرغم من أنه تحدث اليهم بمنطق العقل والعاطفة معاً ، وبالرغم من تزويده لهم بالأدلة والبراهين الدامغة لإقناعهم بالتصديق ، الا أن الدرس لم يستوعب من جانبهم . فقد انطلقوا بكل جهل وغرور لتأكيد عدم وجود اي نية لديهم للتصديق برسالة هود ، متذرعين بأن السبب في اتخاذهم لقرارهم هذا يعود الى عدم تزويدهم ببراهين ، من جانب هود ، لإثبات صدق دعواه ، كما جاء في الآية الكريمة :

(قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين)(١١) .

وبعد اظهار موقفهم المقسم بالأصرار على مواصلة التحدي لدعوة هود التي

http://kotob.has.it/

ركزت بشكل اساسي على وجوب التزامهم بمبدأ الوحدانية ، انتقلوا في خطوة ثانية ، لشن هجوم شخصي عليه بقصد تشويه سمعته ، وزعزعة الثقة به . وهذا ليس بأمر عجيب بالنسبة للفئات المستكبرة من اي قوم . فإن مثل تلك الفئات التي لا توجد لديها القدرة على الخوض بنقاش فعال بناء ، كانت تلجأ الى الهجوم الشخصي كطريق للقضاء على الرسالة السماوية . هذا وفي هجومهم على هود ، وجهوا تهمة له بالاصابة بالخبل او الجنون الذي اعتراه في ظنهم ، بسبب تأثير بعض الآلهة عليه . وفي ذلك تأكيد على ايمانهم بقدرة الآلهة الزائفة على عمل الأشياء ، ومن ثم التصميم على مواصلتهم لعبادتها ، كما ورد في قوله الكريم :

(إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون) (١٢) .

اذن ، قال هود للكفرة من قومه مقابل اتهامهم له بالخبل أو الجنون :

اني اشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا انتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم ، إنني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله(١٣)

إن رد هود على المكذبين من قومه يحمل في طياته عدم اكتراث او خوف مما يقولون من جهة ، ومجاهرة في الابتعاد عن هؤلاء من جهة اخرى . فمن ناحيته ، لقد ادى واجبه على اكمل وجه ممكن كمبلغ ونذير ، وانتهى الأمر بينه وبينهم . وعند هذه النقطة ، انتقل هود للتركيز على قدرة الله تعالى على فعل أي شيء ، متناولاً هنا مسألة غرور القوم بالقوة المادية ، والقدرة الالهية على تحطيمها . إن الله تعالى خالق الانسان ، والعارف بكل احواله وتحركاته ، قادر على ان يستبدل قوماً مجرمين مثل عاد بقوم صالحين غيرهم . وضمن هذا المفهوم للقدرة الالهية ، فقد ابلغ هود القوم بأن ضلالهم وفسادهم وتحديهم له ، لن يعود الا بالضرر عليهم ، كما ورد في قوله العزيز :

(فإن تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شيء حفيظ)(١٤) .

http://kotob.has.it/

ومن الجدير بالذكر هنا ،أن هذه الآية الكريمة تركز على مبدأ مهم في الأسلام . وهو استخلاف بني آدم في الارض . إن الانسان الذي خلق «للابتلاء» يجب أن يقوم بمسؤولية التكليف على افضل وجه ممكن ، «كخليفة» لله تعالى على الارض . غير أنه في حالة عدم فهم او ادراك للسبب الذي وجد هذا الانسان من اجله ، من قبل الجماعة ، في اية بقعة على الأرض . ومن ثم ، في حالة انطلاق هذه الجماعة للعبث ، والفساد والاخلال بالموازين ، فلا بد وان تهلك من قبل الله تعالى ، وتعاد بذلك الأمور الى نصابها الصحيح . ومن هذه الزاوية فالآية تحمل تحذيرا نهائياً من هود لقومه بعقاب وشيك قادم .

المشهد الثالث

وفعلا جاء الامر الالهي الذي لا مرد له لتعديل الموازين الأرضية بعد فترة ظلم ثانية ذهب ضحيتها افراد وجماعات مجاورة لعاد . وبهذا القضاء السماوي ، حظي هود واتباعه بالنجاة ، وبالمقابل اهلك المكذبون من القوم بشكل ساحق ، كما ورد في الآية الكريمة الآتية :

(ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ)(١٥) .

على أنه فيما يتعلق بكيفية العقاب لاهلاك الكفرة من قبيلة عاد ، فقد تم بارسال ريح شديدة البرودة والقوة عليهم ، استمر وقعها لمدة سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، كما جاء في قوله العزيز :

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية)(١٦) .

إن مشهد العقاب الذي يكشف عن ارسال الريح الصرصر المتجاوزة لحدود الوصف التي يعرفها الانسان على القوم مثير وباعث على التأمل . فهو يشكل دليلاً حياً على خضوع الطبيعة بكل مفاتيحها قاطبة الى الله تعالى خالق الكون وكل ما

http://kotob.has.it/

فيه . والمتحكم بأمره بحكمة فائقة وعدل مطلق . فعندما يقضي الله امراً ،فلا مردّ له . بالنسبة لقوم طالما تباهوا بقوى أجسادهم ، ومهارة ايديهم ، وضخامة انتاجهم الزراعي والصناعي والعمراني ، فإن ارسال هذه الريح عليهم ، تريهم بالدليل ضحالة قوتهم المادية قبل ذهابهم عن مسرح الحياة . . . اذ هل كان من الممكن للمستكبرين من عاد أن يتحكموا بالطبيعة وأن يضعوا حداً لعصف الريح الذي كان يُدمر أشياء وأشياء في كل لحظة بحكم عنفوانه؟ ذلك هو المستحيل بعينه . هذا من ناحية ، أما من جانب آخر ، فإن الآيات الكريمة المختصة بانزال العقاب بالقوم حددت مدة العقاب بسبع ليال وثمانية ايام متتابعات . إن هذا التوقيت يكشف عن الحسابات الالهية التامة في الدقة لالحاق الدمار بالظالمين من جهة ، ويؤكد بأن ما يتوصل اليه الانسان خلال سنين طويلة بعقله ، ويستخدمه للطغيان والظلم والعبث بمصائر الابرياء ، من افراد وجماعات واقوام يستحق بمشيئة الله تعالى سحقاً خلال مدة زمنية في تمام الدقة والكمال من حيث التوقيت .

إن المستكبرين من عاد ، الذين جمدوا قلوب الضعفاء خوفاً وهلعاً عندما كانوا في عنفوان قوتهم . . . باتوا صرعى على الارض التي عمروها ، بعد أن تجمدت قلوبهم من الهلع من صوت الريح ، والفزع من عتوها ، والرهبة والمعاناة من برودتها . .فأصبحوا وكأنهم اعجاز نخل متآكلة الاجواف ، بلا فائدة . . ولا اهمية ولا نفع مبعدين بقوة وخذي عن الساحة البشرية التي رأوا فيها الخلود يوم كانوا ينعمون بالترف .

وعند هذه اللحظة المليئة بالرهبة ، إذ بالمشهد ينتقل بسرعة قصوى من زمن عاد الى مخاطبة الانسان في شتى الازمنة والامكنة . مستثيراً فكره ونظره على اساس أن التأمل بالأشياء يشكل مصدر عظة وعبرة لكل من يعرف معنى وجوده ، وما ينتظره من مصير .

إن مشهد العاصفة المدمرة يؤكد الاعجاز القرآني قالباً وموضوعاً . فمن حيث الاسلوب فإن هذا المشهد الشديد الحركية يجذب في اطاره حواس القارىء من سمع وبصر .فكأن القارىء يسمع ويرى منظراً حاضراً امامه . . عاصفة هوجاء مدمرة

http://kotob.has.it/

بدأت وتوقفت بالامر الالهي والحسابات الالهية التامة في الدقة ، . . ويتوقفها خيم سكون تام على ارض عاد . . فكأن شيئا لم يكن . . حضارة عظيمة نشأت في وقت مبكر جداً من تاريخ الانسانية ، ودولة كبرى بحكم مفاهيم ذلك العصر ، انتهت وبعدت عن التاريخ . . حضارة دمرت بالعقاب الالهي على الجماعة المفسدة ، بسبب اعتمادها على المادة من دون الروح . وهذا امر هام ، يعني بأن كل قوم او أمة حظت بشأن عظيم من الحضارة المادية ، ولكن دون مراعاة للقوانين الروحية والاخلاقية ، لا بدّ وأن تتقهقر مهما علت او سمت في قوتها ، ومهما سيطرت على شعوب . وذلك لأن مبدأ الحياة يقوم على وجوب اقرار العدل والحق كما ورد في قوله الكريم :

(والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا في الميزان . واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)(١٧) .

إن إحداث خسارة في الميزان من جانب امة ما ، خلال التاريخ في كل حقباته يؤدي الى تقهقرها في وقت يختاره الله تعالى بعلمه وحكمته . على أن هذا التقهقر يعنى انتهاء حضارة ، وافساح المجال الى حضارة اخرى للظهور والازدهار . وبهذا الاطار من الانحدار والازدهار ، تمضي عجلة الدهر قدماً بسرعتها المعهودة الى حين انتهاء الحياة عن وجه الكرة الارضية . . فهل من متعظ . . .؟

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، الشعراء ٢٦ .

٢ ـ ٧ ، ٨ الفجر ٨٩ .

٣ ـ ١٢٨ ، ١٢٩ ، الشعراء ٢٦ .

٤ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ص ٢٦٠٩ ـ ٢٦١٠ .

٥ ـ ٣ ، ٤ الهمزة ١٠٤ .

٦ ـ ١٣٠ الشعراء ٢٦ .

٧ ـ ١٥ فصلت ٤١ .

٨ ـ ٥٠ هود ١١ .

٩ ـ ٥١ هود ١١ .

١٠ ـ ٥٢ هود ١١ .

١١ ـ ٥٣ هود ١١ .

١٢ ـ ٥٤ هود ١١ .

١٣ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٨٩٩ .

١٤ ـ ٥٧ هود ١١ .

١٥ ـ ٥٨ هود ١١ .

١٦ ـ ٦ ، ٧ ، ٨ ، الحاقة ٦٩ .

١٧ ـ ٧ ، ٨ ، ٩ الرحمن ٥٥ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

الفصل الثالث

قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود

التعدي السافر على الحدود الالهية : آثاره وعواقبه

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

وبعد أن تحدث القرآن الكريم عن قصتي نوح وهود مع قومهما ، إنتقل الآن لعرض قصة صالح مع قومه ثمود ، لقد شهد التاريخ دورتين قبل ثمود تطهرت فيهما الارض من براثن الظلم وآفاته ، حين أرسل الله الطوفان على المكذبين من قوم نوح ، والريح العاتية الصرصر على عاد . على أن هذا الدرس بكل معانيه وأبعاده لم يستوعب من جانب ثمود ، إذ أن هؤلاء رموا بالمبادىء الروحية التي أتى بها كل من نوح وهود عرض الحائط ، ومضوا للإفساد في الارض . فنشأت حجة ماسة لإحداث إصلاح في الموازين الملتوية للمرة الثالثة في التاريخ ، فجاء صالح برسالته السماوية المكملة لرسالتي نوح وهود .

المشهد الأول

يطالعنا هذا المشهد بإلقاء الأضواء على صفة متأصلة في قوم ثمود ، كما تجلت في الآية التالية :

كذبت ثمود المرسلين (١)

ان لإستخدام كلمة «كذبت» هنا اهمية خاصة ، وخصوصاً أنها وردت منذ البداية . فالتكذيب في المجال الروحي يعني عدم التصديق بما جاء في الرسالات السماوية . والتكذيب قد يعتبر كمفتاح لصفات أخرى لأي قوم إنصفوا بعدم التصديق فالانسان الذي يكذب بكل الرسالات السماوية جبار في طبعه ، قاسي في قلبه ، مستكبر في تصرفاته ، لأنه لا يمتلك صفة التعقل وميزة الحكمة التي تحجم الانسان عادة عن عمل السوء . ومن هذه الزاوية ، فالسياق القرآني وضع القارىء أمام قوم قد تكون طبائعهم وتصرفاتهم أسوأ ممن جاء من قبلهم من أقوام ، وذلك لتأصل صفة التكذيب ، بكل سلبياتها ، في نفوسهم . فيبدو أن انحراف القوم ، وتوجههم نحو الشر قد منعهم من رؤية الأمور في منظارها الصحيح ، وغرس فيهم روح من التحدي الذي قد بلغ ذروته لديهم . ومن هذه الزاوية فقد أتى صالح برسالته السماوية لإصلاح

http://kotob.has.it/

تلك النفوس الملتوية ، فتوجه إليهم كأخ أولاً ثم كنبي ثانياً ، حيث دعاهم الى وجوب التقوى وتقديم الطاعة لله جل وعلا . وقد لجأ في دعوته تلك الى أسلوبين ، فكأخ أو كواحد من أبناء القبيلة لجأ إلى الأسلوب الإستفهامي حيث طرح عليهم السؤال الآتي : لماذا لا تتوجهون لتقديم التقوى الى الله تعالى؟ على أنه كنبي مبلغ ونذير غيّر من نمط أسلوبه ، مستخدماً فعل الأمر ، حيث حثهم على وجوب التقوى والطاعة لله تعالى ، كما يتجلى في الآيات التالية :

(إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين)(٢) .

إن الاختلاف في النمط الأسلوبي في دعوة صالح للوحدانية يحمل في طياته معنى الترغيب والترهيب ، فهو يرغبهم بالطاعة الى الله تعالى كأخ ، ويحذرهم من عدم فعل ذلك كنبي . إن عدم تقواهم قد أخل بالميزان الروحي المقرر للإنسان ، وبالتالي دفع القوم الى الحرص الشديد على الحياة ومادياتها ، والى تقييم كل أمر من خلال منظار مادي بحت وبسبب نظرتهم تلك ، حاول صالح لإقناعهم بأن الأشياء جميعها لا تخضع للمنظار المادي الذي يتمسكون به ، فهنالك منظار أعلى منه بدرجات ، منظار الأعمال الصالحة ، وعند هذه النقطة ، أبلغهم ، كما فعل نوح وهود من قبله ، بأن المال الذي ينظرون اليه نظرة تمجيد لا يهمه . ومن هنا ، فلن يقدم على أخذ أجر منهم لقاء دعوته لهم . على أن ما يتطلع اليه بالواقع هو الأجر الروحي ، الأجر الدائم الذي ينال الانسان الجزاء الحسن من الله تعالى بموجبه . هذا وأن استخدام تعبير (رب العالمين) يبين أن صالحاً أراد أن يعلم القوم بأن جميع الأمور تخضع الى الله تعالى وحده ، خالق الكون ومن فيه . فليس عليهم اذن أن يستخفوا من الله بشيء ، لأنه يعلم كل صغيرة وكبيرة ولا مرد لكلمته . وضمن هذا الإطار الشمولي ، إنتقل صالح الآن ليربط بين مصيرهم كقوم ومسألة التصديق والإيمان ، فطرح عليهم السؤال الآتي المرتبط بمعيشتهم التي عرفت بالرغد والاطمئنان : هل تحبون أن تفقدوا الأمان والسلام الذي تعيشون في كنفه الآن ، فتحرموا من الجنات والعيون ، والزروع والنخل بكل فوائده الصحية للإنسان؟ إن هذا السؤال الرقيق في طابعه يحمل التنبيه التالي بين

http://kotob.has.it/

طياته ، إن مسألة إستمرارية تمتع القوم بعيش آمن مستقر من جراء توفر كل المتطلبات المعيشية اللازمة للإنسان ، مرتبطة بإتخاذهم مواقف جديدة على نطاق روحي . إن المحافظة على الحياة الرغدة التي يسودها الأمان والسلام أمر مرهون بالإيمان والتصديق . فالله تعالى الذي يهب العيش الطيب المليء بالنعم للإنسان ، قادر على حرمانه منه في حالة عدم التوجه بالشكر اليه من جانب هذا الإنسان . ومن هنا ، فالسؤال الذي طرحه صالح للقوم في الآيات التالية يحمل أيضاً معنى الترغيب والترهيب :

(اتتركون فيما هاهنا آمنين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم)[٣] .

هذا وفي خطوة أخرى ، مضى صالح لإخبار القوم بأن خسارتهم من جراء عدم التصديق والإيمان لن تتوقف على حرمانهم من الجنات بكل مواردها ومن العيون ، بل أنها ستمتد لكي تشمل البيوت الحجرية التي يقطنون فيها ، تلك البيوت التي قطعوها بمهارة فائقة وبراعة من الصخر . وعليه فقد بين لهم فداحة خسارتهم المادية والمعنوية الناتجة عن تكذيبهم على أنه بعد تزويدهم بصورة دقيقة عما سيحل بهم بسبب طغيانهم الروحي ، اتجه صالح الآن في محاولة ثالثة ، لدعوتهم الى ضرورة التقوى وتقديم الطاعة الى الله عز وجل ، محذراً اياهم في الوقت نفسه ، من طاعة المسرفين منهم الذي وصفهم كأفراد طغى الشر على عقولهم ، وتغلغل الفساد واستشرى في قلوبهم ونفوسهم ، كما جاء في قوله الكريم :

(وتنحتون من الجبال بيوت فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون)[٤] .

إذن فقد عمد صالح كما هو الحال مع هود من قبله ، الى تحذير القوم من مغبة طاعة أمر المفسدين منهم ، والتوجه بدلا من ذلك الى الالتزام بمبدأ الوحدانية الذي يكمن خلاصهم فيه . فهل فهم القوم هذا التحذير؟ وهل أدركوا أبعاده؟ أم أن الختم المطبوع على قلوبهم أحال دون ذلك؟

المشهد الثاني

إن قصر نظر الأكثرية من القوم الناتج عن الاستكبار قد دفعهم ، كغيرهم من

http://kotob.has.it/

الاقوام السابقة ، الى الإصرار على التكذيب برسالته السماوية . وذلك عن طريق التوجه لشن هجوم «شخصي» عليه . وفي هذا الصدد اتخذوا ثلاث خطوات . في الخطوة الاولى ، اتهموا صالحاً بإختلاط الامور في ذهنه لكثرة تعامله بالسحر ، وهذا اتهام مشابه بعض الشيء لاتهام وجه الى هود من قبل ، غير ، أن هذا الاتهام لم يثبت أي جدوى على اساس تناقضه مع الواقع والحقيقة . ومن هنا ، اتجه القوم ثانياً الى تكذيبه بسبب بشريته ، وهذا موقف مشابه لموقف الملاء من نوح سابقاً ، على أنه يبدو أن أمره قد أعياهم ، ومن هنا ذهبوا في خطوة ثالثة لمطالبته «بخارقة» كاثبات لصدق نبوته ، كما جاء في قوله العزيز :

(قالوا إنما انت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين)(٥) .

وتجدر الاشارة هنا الى موقف ثمود من نبيهم صالح يؤكد بأن القوم كانوا جاهلين بحدودهم وإمكاناتهم ، بل ويضعفهم كبشر . وهذا أمر غير مستغرب ، لأن كل إنسان مستكبر يجهل بتلك الأمور إنطلاقاً من غروره الاجوف . ومن هذه الزاوية ، نراه مثلاً وهو ينطلق بكل عجرفة للتقدم بطلبات يظن ، بقصر نظره ، أنها قد تعجز النبي ، بل وقد تعجز الله سبحانه وتعالى خالق هذا الانسان . وهذا ما فعله القوم عندما طلبوا آية من صالح كدليل لإثبات دعواه . بيد أن الله تعالى ، الذي لا يعجزه أي شيء في السماء أو في الارض ، قد أرسل لهم المعجزة المطلوبة في صورة ناقة مؤيداً بذلك نبيّه صالحاً برحمة من عنده :

(قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم)(٦) .

لقد ارسل الله تعالى الناقة لثمود ، ووضع لهم شروط للالتزام بها بشأن شرب الناقة وطريقة معاملتها فالماء المستخدم للسقاية يجب أن يكون يوماً للناقة ، ويوماً لهم ، وبهذا :

لا يجورون عليها في يومها ، ولا تجور عليهم في يومهم ولا يختلط شرابها بشرابهم . كما لا يختلط يومها بيومهم ، ولقد

http://kotob.has.it/

حذرهم أن ينالوها بسوء على الاطلاق ، وإلا اخذهم عذاب يوم عظيم ، فما فعلت الآية الخارقة بالقوم المتعنتين؟ إنها لم تكسب الإيمان في القلوب الجافة ، ولم تطلع النور في الارواح المظلمة على الرغم من قهرها لهم وتحديهم بها[٧] .

إن الآية (قال هذه ناقة لها شرب . . .) ، وما تلاها ، تؤكد بأن هنالك حدوداً لله تعالى يجب على الانسان أن يقف عندها ولا يتجاوزها قطعاً لأن مثل هذا التجاوز يمثل ظلماً أو طغياناً كبيراً لا يغتفر . ومن خلال هذا الاطار ، جاء التحذير لثمود بعدم نحر الناقة . ولكن المفسدين لم يتمكنوا من ضبط زمام أنفسهم ، فعقروها كما ورد في الآية التالية :

(فعقروها فأصبحوا نادمين)[٨] .

وتجدر الاشارة هنا الى أن عقر القوم للناقة أمر مرتبط بتأصل التكذيب في نفوس هؤلاء ضد الدين ، والعمل بحد ذاته يشير الى الذروة في التحدي والتعدي على حدود الله تعالى من قبل جماعة مستكبرة لم تعرف للحق طريقاً في حياتها . إن التخطي للحدود الالهية بالشكل المنكر الذي اقترفه المفسدون من القوم أمر وخيم ، لا تقتصر آثاره على الناحية الروحية ، بل تمتد لتشمل الجانب الدنيوي فالذي يتخطى حدود الله تعالى شخص مجرد من القيم والاخلاق والاحاسيس ، ومن هنا ، فلا يمكن أن يحفظ حقاً لأحد ، ولا يمكن أن يحترم كرامة لإي إنسان ؛ وعليه ، يكون خطره كبيراً على المجتمع . بناء على ذلك ، يبدو لنا أن عقر السفهاء للناقة ، وتقبّل الأمر ببساطة من قبل الغالبية العظمى من القوم ، كان يمثل نقطة انحدار قصوى فيما يختص بالحالة الاجتماعية والاخلاقية السائدة وقتئذ ، فالذي يمكن أن نتصوره هو أن الفوضى المصحوبة بحب الدنيا ومتاعها قد عمّت وانتشرت في ذلك المجتمع . ومن أجل هذا ، جاءهم الوعيد الآلهي كما يلي :

(فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب)[٩] .

ولا بأس أن نذكر في هذا المقام بأن كلمة «تمتعوا» تحتل أهمية خاصة في هذه الآية الكريمة . فالتمتع كتعبير يعني النهب من الملذات الدنيوية قدر الامكان بقصد إرضاء

http://kotob.has.it/

شهوات النفس وغرائزها . والذي يصب كل إهتمامه على التمتع بالحياة ينسى عالم الروح ، ومن ثم لا يأبه للهدف الذي وجد من أجله ، ولا يفكر في الوقت ذاته ، بالمصير الذي ينتظره ! إن كلمة «تمتعوا» والتي وجهت للقوم لم توجه ، إذن ، في إطار حث القوم على التمتع بالفعل ، بل وجهت في اطار «السخرية» منهم لحبهم الشديد للمتاع الدنيوي . وفي هذه الحالة ، فهي تحمل في طياتها إنذاراً لقوم مستكبرين ، عابثين بالقوانين الالهية ، وموازين العدل . وقد يكون التمتع الذي أمروا به في الدار بمثابة «قصاص» دنيوي لهم سابق للقصاص الاخروي . ويؤيد تلك الفكرة ما ورد في «كتاب مجموعة من التفاسير» من افكار حول شرح الآية المذكورة اعلاه :

> قال لهم يأتيكم العذاب بعد ثلاثة أيام فتصبحون في اليوم الأول ووجوهكم مصفرّة وفي اليوم الثاني محمرّة وفي اليوم الثالث مسودة . فكان كما قال وأتاهم العذاب اليوم الرابع وهو قوله سبحانه وتعالى (فلما جاء أمرنا) يعني العذاب[١٠] .

إن الفقرة المذكورة أعلاه قد تشير الى إصابة القوم بحالة مرضية معقدة . فالإصفرار في اليوم الأول قد يرمز الى هزال أو وهن صحي ألم بالمكذبين من ثمود ، أما الاحمرار الذي غمر الوجوه في اليوم التالي ، فقد يدل على اشتداد في حالة القوم المرضية على أن الاسوداد الذي تميزت به الوجوه في اليوم الثالث قد يشير الى الوصول لنقطة التأزم في حالة القوم المرضية نتيجة مفاسدهم وإستهتارهم بالقيم الدينية والفضائل الاخلاقية . على أن كل هذا يعني بأن القوم قد عانوا الكثير من الناحية الصحية . وبمعاناتهم تلك فلا بد وأن يكونوا قد أدركوا حجم مقدارهم كبشر ، ولا بد وأن يكونوا قد عرفوا ضعفهم ، وتعايشوا مع تلك الحقيقة ، في آخر أيام حياتهم بعد استكبار وغرور وغطرسة ! ولكن الوقت كان متأخراً للتوبة ، كان متأخراً للغاية ، إذ أن الهلاك الأخير شمل هؤلاء العتاة عندما أخذهم الله تعالى بالصيحة ، كما ورد فى قوله الكريم :

(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين)[١١] .

إن تعبير «الصيحة» هام جداً فيما يتعلق بمسألة العقاب الجماعي ، وهو يعني في

http://kotob.has.it/

رأي عدد من المفسرين :

صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء في الارض(١٢) .

فالصيحة في هذا الإطار تشير الى ثورة طبيعية مصدرة بالصواعق التي أحاطت بالظالمين من كل حدب وصوب ، فخلعت قلوبهم بأصواتها المدوية خوفاً وهلعاً ، وقضت على اجسادهم بعنفوان لهيبها ، هذا وبهلاك ثمود ، فقد ذهب العمران الذي اشتهر هؤلاء به ، واغتروا بحصانته ، كما ذهب معه الزرع والمال ، وضاع الثراء والجاه . وبهذا أصبح تحذير صالح لهم ، المركز عليه في بداية القصة ، أمراً واقعاً فطويت صفحة ثمود السوداء من التاريخ الى الأبد ، كما جاء في قوله الكريم :

(كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثموداً كفروا ربهم ألا بعداً لثمود)(١٣) .

وتجدر الإشارة هنا الى أن مشهد إنزال العقاب بالمكذبين من قوم صالح مثير بحيويته وواقعيته . فكأن القارىء لتلك القصة يسمع أصوات الصواعق بأذنيه ، ويرى لهيبها وهو ينصب على المكذبين بعينيه ، فيؤخذ بما يسمع ويرى ، وينكب من ثم على التأمل بما جرى لثمود نتيجة تكذيبهم النابع عن الطغيان ، على أن تأمله يأخذ طابعاً أبعد مدى حين تفاجئه القصة بمنظر السكون الشامل بعد العاصفة المدمرة التي قضت قضاء تاماً على حضارة ، انبهر قوم طغاة ببريقها . على أنه عند هذه النقطة ، يجب أن نذكر بأن ما جرى لثمود يمكن أن يحدث لأي أمة تنهج نهج تلك القبيلة . فالقوة الالهية تتفوق على كل قوة أخرى . وعلى الأمم من ثم أن تتعظ وتبتعد عن الاستهتار والعبث بالقيم الروحية والاخلاقية والمبادىء الانسانية . هذا العبث الناتج عن الاستكبار والاعتزاز بالثراء المادي . كما أن عليها أن تتذكر دوماً بأن الله تعالى هو مصدر النعم للانسان ، فإذا جحد هذا الإنسان بتلك النعم ، وظن أن الثراء يخوله لفعل كل المنكرات بما في ذلك التعدي على حقوق الضعفاء وانزال الكوارث بهم بكل وسيلة ، يعاقب بشدة . فالله تعالى يقف للظالمين بالمرصاد ويطهّر الارض منهم في الوقت الذي يختاره بحكمته الفائقة وعلمه اللامحدود .

إن قصة ثمود تحمل كغيرها من القصص القرآنية عبراً ودروساً للانسانية في ماضيها ، وحاضرها ومستقبلها ، وتغني عالم المعرفة بما ركزت عليه من مبادىء او

http://kotob.has.it/

قواعد هامة بالنسبة لتاريخ الحضارة البشرية كعلم . إن قصة ثمود اضافة الى قصة عاد وقوم نوح تبين كيفية المسار الحضاري للاقوام او الأمم من حيث الابداع والنقد . إن تلك القصص تعطي فكرة للقارىء بأن عاد نقلت عن حضارة الناجين من قوم نوح ، وأن ثمود بدورها نقلت عن عاد . إن سفينة نوح التي ورد ذكرها في القرآن الكريم هي اقدم سفينة في التاريخ ، وهي تشكل الرمز الأول للتصنيع في العالم الانساني . ومن المؤكد أنها بنيت على قواعد واسس وحسابات دقيقة ، وخصوصاً أن بناءها تم بالوحي والرعاية الالهية لنوح . اذن ، فبناؤها اعتمد على تلقي المعرفة من السماء اولاً ثم استخدام العقل ثانياً . ومن هنا ، فلها سمة خاصة بها . وربما استخدمت فيها مواد وجدت زمن نوح ، ولم توجد في زمن آخر ، بحيث اعطتها التحصين اللازم لاختراق طريقها في موج عال كالجبال .

هذا وبنشوء حضارة عاد وازدهارها من الناحية الصناعية العمرانية ، فلا بد وان يكون تأثرا من قبلها بحضارة الناجين من قوم نوح ، الذين بدأت دورة تاريخية جديدة بهم . ولكن يبدو أن قوم عاد قد احدثوا تطورا هاما في مفهوم التصنيع ، فأقاموا المصانع التي استخدموها لحركة عمرانية واسعة النطاق . فقد برعوا في بناء القصور والقلاع والحصون . . بيد أن ذروة حضارتهم العمرانية تبلورت في بناء مدينة أرم التي لم يخلق في تخطيطها ، وتنظيمها ، وترتيبها ، وتنسيقها وجمالها في البلاد ، أي في العالم في تاريخه كله . فالقرآن الكريم يتحدث للانسان في الإطار الازلي حتى يذكره في كل عصر بأن ما يعتقد به أنه الذروة في التقدم ليس كذلك فهنالك من سبقه في ناحية يعتز بها خلال التاريخ .

بالنسبة لثمود ، فيبدو أن القوم تأثروا بالتقدم العمراني الذي كان سائداً ايام عاد ، وبرعوا في فن نحت البيوت بالجبال . كما انهم توصلوا في الوقت ذاته الى ازدهار زراعي مرموق كعاد ، بكل اهمية الزراعة للنواحي المعيشية والجمالية .

اذن ، فعدا عن حضارة قوم نوح بسمتها الخاصة بها ، فلقد نقلت عاد عنها بعض الشيء وابدعت ، وكذلك ينطبق الحال على ثمود . على أن ذلك يبين المسار الحضاري الطبيعي خلال التاريخ البشري .

http://kotob.has.it/

هذا فيما يتعلق بقصص قوم نوح وعاد ، ثمود ، بيد أنه عند انتقال السياق القرآني للتحدث عن قوم لوط يركز على قضية او مشكلة أخلاقية تبرز دوماً على الساحة البشرية ، ويعطي الحلول لاجتثاثها .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ١٤١ الشعراء ٢٦ .

٢ ـ ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ الشعراء ٢٦ .

٣ ـ ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ الشعراء ٢٦ .

٤ ـ ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ الشعراء ٢٦ .

٥ ـ ١٥٣ ، ١٥٤ الشعراء ٢٦ .

٦ ـ ١٥٥ ، ١٥٦ الشعراء ٢٦ .

٧ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٦١٢ .

٨ ـ ١٥٧ الشعراء ٢٦ .

٩ ـ ٦٥ هود ١١ .

١٠ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٤٠ .

١١ ـ ٦٧ هود ١١ .

١٢ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٤٠ .

١٣ ـ ٦٨ هود ١١ .

http://kotob.has.it/

الفصل الرابع

قصة لوط عليه السلام مع قومه

الشذوذ الجنسي لدى الرجال انحدار من المرتبة الانسانية الى الحيوانية

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

بانتهاء العرض القرآني لقصة صالح مع قومه ثمود ، ينتقل السياق للتحدث الآن عن قصة جديدة تختلف في بعض مفاهيمها عن القصص السابقة ، إذ أنها تركز على جانب جديد من الظلم الناتج عن اللا أخلاقية ، وتبين عواقبه وآثاره السلبية التي تقع على الجماعة الضالة ، وهذه قصة قوم لوط . إن قوم لوط انحرفوا عن الطبيعة البشرية نتيجة لمفهوم مغلوط وفاحش عن كل من الرجل والمرأة والعلاقة بينهما ، وعن العائلة . ويقوم هذا المفهوم في الأساس على اعتبار المرأة مخلوقاً أدنى ، لا يليق بمعشر الرجل ، مما جعل رجالاً ينتقلون الى معاشرة الرجال ومن الجدير بالذكر هنا ، أن كل تفاضل وممايزة بين الجنسين من قبل الرجال إنما هو نوع من اللوطية الفكرية التي قد تخفي من ورائها اموراً أخرى . هذا ولا يمكن استقرار العائلة والعلاقات بين الرجل والمرأة ، إلاّ من خلال مفهوم يساوي بينهما في أمور كثيرة على أن هذا هو المفهوم القرآني ، كما يتجلى في بعض نواحيه في قصة لوط .

المشهد الأول

إن العرض القرآني للأحداث المختصة بهذا المشهد يختلف في قالبه ومضمونه عن العرض للقصص السابقة . فهذا المشهد يبتدىء بالتركيز على العلاقة الوثيقة بين السماء والارض من خلال الحديث عن زيارة ملائكة في هيئة غلمان بوجوه حسنة ، الى لوط في بيته . ولكن دون علم أولي من قبله بحقيقتهم كملائكة . على أن نزولهم في هيئة بشرية يمثل «خارقة» بحد ذاته ، لأن الإنزال هذا جاء في اطار الفعل الإلهي الذي لا يستطيع العقل البشري أن يدرك كنهه ، لأنه فوق مداركه وقدراته ، هذا من جهة ، أما من ناحية أخرى ، فبما أن لوطا نفسه لم يكن مدركا لحقيقة الرجال ، وللهدف من زيارتهم في بداية الأمر ، فهذا يعني من الناحية القصصية ، بأن عنصر «الغموض» قد سيطر على أجواء القصة في مطلعها ، وهذا أمر هام للغاية ، لأن الغموض يحمل عادة عنصر الإثارة والتشويق في طياته ، وفعلا نرى القاريء وهو يتشوق بعد علمه بزيارة الفتية لبيت لوط لمعرفة السبب من ضيق لوط وتخوفه من تلك

http://kotob.has.it/

الزيارة كما ورد في قوله تعالى :

(ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب)[١] .

وبالوصول إلى هذه النقطة ، بدأت القصة بالكشف عن السبب في ضيق لوط وقلقه وذلك حين انتقل السياق لإحضار قوم لوط إلى الصورة ، فهؤلاء القوم كانوا يعملون السيئات ، أي أنهم كانوا يرتكبون الفاحشة المتجسدة في معاشرة الرجل للرجل :

(وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات)[٢] .

إن هؤلاء القوم المنحرفين جنسياً قد أتوا إلى بيت لوط وهم «يهرعون» ، أي أنهم أتوا مندفعين بسرعة هائلة وغير طبيعية ، والسرعة تلك مرتبطة بلا شك ، بالتخلخل العاطفي لديهم ، وعدم القدرة على ضبط النفس من فعل السوء ، فمن البديهي بأن الإنسان الذي تسيطر عليه العواطف والنزعات الحيوانية يفقد كل القيم ، وينسى الحياء والخجل ، ويقدم على فعل أي أمر منكر دون شعور بالذنب ، إن هذا الأمر هو الذي أثار الخوف والفزع في نفس لوط . فقد خاف على ضيوفه بوجوههم المشرقة ، من رجال قومه المنحرفين ، فأي تصرف غير لائق من جهتهم ، كان لا بد وأن يؤدي الى وضعه في موقف حرج أمام ضيوفه الكرام ، ومن هنا كشفت القصة عن لوط وهو يدعو الرجال المنحرفين الذين هرعوا لبيته ، للزواج من بنات قومه بالطرق المشروعة ، وبذلك بذل جهداً لصدهم عن طريق الشذوذ الجنسي ، من خلال توجيههم نحو الفطرة السليمة في الحياة . فالناموس الطبيعي للحياة الدنيوية يقتضي زواج الرجل من المرأة ولا يسمح قطعياً بمعاشرة الرجل للرجل :

(قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي)[٣] .

ولكن هل استمع القوم الى دعوته تلك؟ طبعاً لا ، وهذا أمر متوقع ، فالقوم الذين وقعوا فريسة لغرائزهم الحيوانية المحضة ، بعدوا كل البعد عن أي طريق «للتعقل» أو «للحكمة» ، ومن هذه الزاوية ، أظهرت القصة لوطا ، وهو يخاطب القوم بقوله :

(أليس منكم رجل رشيد)[٤]

http://kotob.has.it/

فاستفحال الشر ، وروح التحدي المبني على العمى المطلق فيهم كانت «جماعية» ، وقد بلغت تلك الروح القمة عندما مضى القوم المنحرفين لإخبار لوط بكل استهتار ، بأن ليس لهم بنساء قومه حاجة ولا شهوة ، فكل ما يريدونه كان إتيان الرجال من دون النساء ، وتجدر الاشارة هنا ، بأن موقفهم هذا يدل على إصرار من جانبهم على التصدي لما هو حق «وعدل» في الحياة ، والتوجه بدلا من ذلك الى كل ما فيه «ضلال» وظلم «وإفساد» ، وخروج عن النواميس أو السنن الثابتة التي تسير الحياة بموجبها :

(قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وأنك لتعلم ما نريد)[٥] .

فما كان يريده هؤلاء بالنتيجة هو تحويل المجتمع السائد وقتئذ الى مجتمع رجال ليس للمرأة فيه مكانه ولا منزلة ولا احترام ! على أن هذا الأمر خطر للغاية لأنه يتخالف مع الدين وأحكامه وفضائله . فمطالب المنحرفين تلك تعني بواقع الأمر محاولة سيطرة الرجال الكلية على النساء ، واهدار حقوقهم ومحق شخصيتهم في حين ، أن المرأة تشكل نصف المجتمع ، ولا بد وأن رجال القوم كانوا يعرفون منزلة المرأة الكريمة بالمفهوم الديني ولكن كانوا يتغاضون عن ذلك عمدا وذلك لأن رسالة نوح التي اتت قبل رسالة لوط بأزمان قد قررت للمرأة مكانتها ، حين جاء الأمر الالهي لنوح بالحمل بسفينة النجاة «من كل زوجين اثنين» (أي المرأة والرجل بالتساوي) . على أساس أن الركب الحضاري لا يسير الا بجهود الجنسين وتكاتفهما معاً . ولو كان مسار الحياة سيقتصر على عمل الرجال فقط وسيطرتهم ، لما وردت هذه الآية الكريمة التي وجهت لنوح :

(حتى اذا جاء امرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين أثنين . . .)[٦] .

على أن معرفة لوط لكل هذه الحقائق ، وعدم قدرته على اقناع الرجال المنحرفين بضرورة الإلتزام بها ، وما كان سيترتب عن جراء ذلك ، من ظلم وطغيان على المرأة ، واهتزاز للحياة العائلية قد أحزنه في الصميم ، فأحس بمنتهى المرارة والأسى والعجز ، فتوجه للفتية قائلا :

(قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد)[٧] .

http://kotob.has.it/

هذا ، وفي شرح لتلك الآية القرآنية ، يقول سيد قطب :

قالها (أي لوط) ، وهو يوجه كلامه الى هؤلاء الفتية ـ الذين جاء الملائكة في صورتهم ـ وهم صغار صباح الوجوه ؛ ولكنهم ـ في نظره ـ ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت اليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمي به من ذلك التهديد ! وغاب عن لوط في كربته وشدته أنه يأوي الى ركن شديد ، ركن الله الذي لا يتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتلو هذه الآية : رحمة الله على لوط لقد كان يأوي الى ركن شديد» ! وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده ، كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذي يأوي إليه : «قالوا : يا لوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا اليك [٨] .

وتجدر الاشارة هنا الى أنه فيما يختص بناحية الأسلوب القصصي فإن تمني لوط للإستناد الى الفتية الإستناد الى ركن آخر للاحتماء به بسبب استهتار قومه برسالته ، وتحديهم له ، يمثل «الذروة» في«المشكلة» الاجتماعية المقدمة في القصة ، بيد أن كشف الرسل له عن الركن العظيم الذي كان يستند اليه بالفعل دون علم مسبق يمثل بداية «الانفراج» في «العقدة» القصصية .

المشهد الثاني

فقد تم ، عند هذه النقطة ابلاغ لوط لكي يسري بأهله آخر الليل أي عند السحر ، ولكن دون تخلف أي منهم بأستثناء امرأته المنافقة التي كانت قد فشت سر وجود لضيوف في بيت زوجها لوط ، فموقفها اللاأخلاقي هذا ادى الى إلحاق الهلاك بها مع لآخرين ، كما ورد في قوله الكريم :

(فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم احد إلا إمرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب)[٩] .

http://kotob.has.it/

ان هذه الآية تركز على الساعات الأخيرة الحاسمة بالنسبة لمصير قوم لوط فبينما تحمل الأمر للوط ومن آمن معه بالاسراع لمغادرة المكان ، مع أخذ الحيطة والحذر ، وذلك بغية النجاة ، فهي تؤكد قرب الوقت لتدمير كل من خرج عن الحدود الدينية ، بما في ذلك زوجة لوط .

وهذا يذكرنا بما حصل لإبن نوح سابقاً ، فكما أغرق مع المغرقين بسبب استكباره وصدوره عن الدين بالرغم من محاولات والده الأخيرة لاقناعه للاقلاع عن الكفر ، فقد أهلكت زوجة لوط حين تركت مع غيرها ممن أهلك ، وتخطاها ركب النجاة بسبب افسادها ، ولكن بإنتقال السياق القرآني أخيرا لوصف مشهد العقاب لكل من لم يتبع رسالة لوط ، ورد ما يلي في كتابه العزيز :

(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد)(١٠) .

لقد كان التدمير مفزعاً بالنسبة للأرض التي كان يعيش عليها قوم لوط ، اذ أصبح عاليها سافلها ، وسافلها أعلاها ، وهذا يشير الى قوة التدمير من جهة ، ومحو كل المعالم المميزة لمجتمع قوم لوط من جهة أخرى . فالانحراف الخلقي أمر لا يغتفر ، وعقابه التدمير الكلي لتطهير الأرض من الشوائب والأقذار التي تنتج عن التصرفات اللا أخلاقية لبعض الفئات من أبناء البشر . على أن الحاق الهلاك الشامل بالبلاد التي كان يسكنها قوم لوط ، تم من خلال قذف حجارة بشكل مكثف متتابع لفترة زمنية محدودة من السماء بحجارة «مسومة» في طبيعتها والحجارة المسومة هي حجارة :

معلمة للعذاب وقيل معلمة ببياض وحمرة أو بسيما تتميز به عن حجارة الأرض أو باسم من يرمي بها(١١) .

ان هذه الفقرة تشير الى عدة أمور : أولاً ، أن الحجارة التي قذف بها قوم لوط لم تكن من نوع الحجارة الارضية التي نعرفها . وهذا بدوره يؤكد أن العقاب الجماعي للقوم ، قد تم في إطار المعجزات . ثانياً ، أن هذه الحجارة كانت شديدة في قوتها بالرغم من صغر حجمها ومصيبة للأهداف بدقة تامة ، ومذهلة للعقل البشري . ثالثاً

http://kotob.has.it/

إن مقدار القوة للاحجار كان يتراوح بين مجموعة واخرى بالرغم من الفعالية العظيمة لها جميعاً . على أن كل ذلك يشير بدوره الى القدرة الإلهية الفائقة ، وعلم الله اللامحدود ، وعدله المطلق في حسابه للإنسان بناء على ما تقدم ، فيجب على كل فرد أو جماعة لإن تفكر بما جرى لقوم لوط من خزي وعار بما قدمت ايديهم ، إن قصة لوط مع قومه تعطي نموذجا من أبناء البشر لم يقتصر وجوده على العصر السائد وقتئذ ، بل يوجد في معظم الأزمنة والأمكنة ، ولو بنسب معينة .

إن ما جرى من تدمير للمنحرفين من القوم ما هو إلا بمثابة تذكير لكل من يحذو حذوهم ، بأن الهلاك مصيره بلا ريب . أن تفشي الشذوذ الجنسي بين الرجال ، وتغلغله في أي مجتمع معني بالأمر يشير الى التدهور أو الانحطاط الاجتماعي والخلقي في ذلك المجتمع . على أن الأنحراف هذا يضر بالمرأة من ناحية ، ويؤدي الى تقويض دعائم العائلة من جهة أخرى . ولكن بما أن العائلة هي «نواة» المجتمع ، فأي تفكك فيها يؤدي بطبيعة الحال الى تفكك المجتمع ككل . وبهذا التفكك تنتشر الرذيلة بشتى أنماطها ، وتهوي الأمم الى الحضيض ، وفي الوقت المناسب ، ينزل عليهم عقاب من السماء ، ويمحق الظالمون ، وتسير عجلة الزمن الى الأمام بدونهم ، وكأن شيئا لم يكن !! ولا يبقى إلا الإتعاظ . .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٧٧ هود ١١ .

٢ ـ ٧٨ هود ١١ .

٣ ـ ٧٨ هود ١١ .

٤ ـ ٧٨ هود ١١ .

٥ ـ ٧٩ هود ١١ .

٦ ـ ٤٠ هود ١١ .

٧ ـ ٨٠ هود ١١ .

٨ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ١٩١٤ .

٩ ـ ٨١ هود ١١ .

١٠ ـ ٨٢ ، ٨٣ هود ١١ .

١١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ، ٣٥٠ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

الفصل الخامس

قصة شعيب عليه السلام مع قومه

التلاعب بالكيل والميزان قضية لا أخلاقية مضرة بالافراد والجماعات

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

حتى الآن ، لقد تحدثنا عن القصص القرآنية المختصة بنوح وهود وصالح ولوط مع اقوامهم ، وبيّنا مواطن الظلم الذي كشفت عنه كل قصة ، فقصة نوح ركزت على الظلم الاجتماعي ، وهود على الظلم الأخلاقي ، والسياسي ، وصالح على الظلم الروحي ، وقصة لوط على الظلم الأخلاقي المنبثق عن الانحراف عن الفطرة الطبيعية المقررة للانسان ، على أنه بقدوم قصة شعيب مع قومه ، يعود التركيز القرآني مرة ثانية على قضية الظلم الاجتماعي . ولكن مع تسليط الأضواء على زوايا جديدة منه ، تهم الفرد والجماعة في المعاملات المالية والأخلاقية . إن قصة شعيب تثير مسألة التطفيف في المكيال والميزان ، مبينة علاقة ذلك بالجشع والطمع الذي يصيب بعض النفوس الوضيعة من جهة ، ومبرزة العواقب الوخيمة المترتبة عن ذلك من جهة أخرى . ولكن تلك القصة لا تتوقف عند هذا الحد ، بل تمضي لمعالجة قضية التطفيف هذه ، من خلال عرض لرسالة شعيب السماوية ، التي أعطت اهتماماً خاصاً لإبراز العلاقة الوثيقة بين الدين والدنيا في مجال المعاملات الانسانية ، وذلك من أجل تزويد الانسان بالأخلاق القويمة التي تعطيه الحصانة اللازمة لردع النفس عن الغش والتدليس في المعاملات المالية . فما هي أهم النقاط الواردة في رسالة شعيب؟ وما موقف المطففين بالكيل والميزان منها؟

المشهد الأول

إن رسالة شعيب ، كباقي الرسالات السماوية من قبل ، ابتدأت بالدعوة الى الوحدانية ونبذ عبادة الشرك ، ولكن تلك الدعوة في هذه المرة ، كانت مصحوبة بحث القوم على عدم إحداث نقص في الكيل والميزان ، وذلك يرمي الى تذكيرهم بأن تطبيق الأمانة في المعاملات ، أمر مرتبط بالتصديق بالله تعالى وحده ، كما ورد في قوله الكريم :

(وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

http://kotob.has.it/

غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وأني أخاف عليكم عذاب يوم محيط)[1] .

ومن الجدير بالذكر هنا بأن الذي يؤمن بالله تعالى ، ويصدق به ، يحظى بالرعاية الالهية ، التي تتوسع من خلالها آفاق تفكيره ، وتصقل شخصيته ، وتقوّي بصيرته ، فيرى الأمور في منظارها الصحيح . ومن أهم تلك الأمور التي تبقى امام نصب عينيه أن حياته الحالية فانية في حين أن الدار الآخرة هي دار البقاء والخلود ، هذا وبتفكيره المتواصل بتلك الحقائق يحرص مثل هذا الانسان على العمل الطيب حتى ينال السعادة الاخروية . والعمل الطيب مصطحب عادة بحساب دقيق للنفس البشرية ، هذا وأن المحاسبة للنفس تلك تدفع الانسان بواقع الامر الى الالتزام بالامانة والصدق في القول والعمل في كل مجال ، بما في ذلك مجال المعاملات المالية . فمثل هذا الشخص يعلم حق العلم بأن المال شيء زائل ، وأنه وسيلة للعيش وليس غاية بحد ذاته ، وعليه يكتفي بما رزقه الله تعالى ، ولا يمكن بناء على ذلك ، أن ينقص الكيل والميزان ، وهذا بدوره يبين أهمية دعوة شعيب للقوم للربط بين الدين والدنيا لما يختص بالامانة في المعاملات .

وبعد أن وضع شعيب الأمانة كأساس للمعاملات التجارية ، إنتقل في خطوة أخرى لتوجيه نقد الى المطففين من قومه ، إذ يبدو أن هؤلاء كانوا في سعة من المال وفي نعمة عظيمة ، فبدلاً من تقديم شكرهم الى الله تعالى على فيضه بالنعم عليهم ، فقد دفعهم حبهم للمال الى التلاعب في الكيل والميزان . ومن هذه الزاوية ، فقد حذرهم شعيب من عذاب الاستئصال في الدنيا أو عذاب يوم الآخرة . ومن الجدير بالذكر هنا ، أن الآية المذكورة أعلاه (والى مدين . . .) تلقي الضوء على نفسية الفئات الجشعة من ابناء البشر وتدعو في اتجاه معاكس الى الضرورة للتحلي «بالقناعة» . إن أصحاب الجشع يمثلون فئات مجردة من الأخلاق تصب اهتمامها على الإكثار من المال بطرق غير مشروعة ، ولكن هذا التجرد من المثل لا يمكن ان يسير دون عقاب . ومن هنا تبرز القصة الارتباط الوثيق بين أعمال الانسان وحسابه ، على انه من أجل ترغيب الانسان على نيل الجزاء الحسن ، مضى شعيب الآن لتأكيد موقفه ثانية بضرورة إيفاء الكيل والوزن ، كما ورد في قوله الكريم :

http://kotob.has.it/

(ويا قوم أفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين)[٢] .

وتجدر الاشارة ، عند هذه النقطة ، بأن تأكيد الوجوب بالايفاء وبالمكيال والميزان في المعاملات التجارية لمرة اخرى أمر هام فهو يرمي الى المحافظة على حقوق الناس ، ومنع الظلم من السيطرة على المجتمع بكل عواقبه الوخيمة أو بعبارة اخرى ، فالهدف هو اقرار العدل حتى لا ينتشر الفساد وتعم الفوضى في البلاد وتصل الامور الى الهاوية . هذا ، وبناء على كل هذه العواقب الناتجة عن التلاعب بالكيل والميزان فقد حذر شعيب القوم من الأفساد في الارض ، والغش ، مبينا لهم بأن المال الذي يحصل عليه الواحد منهم في إطار الإيفاء بالكيل والوزن ، خير له مما قد يحصل عليه من المال الحرام عن طريق التطفيف ، وما عليهم من ثم ألا ان يفكروا بتلك الامور ، ويعملوا بها حتى ينالوا الجزاء الحسن . فشعيب هنا قام بدوره كمبلغ ونذير على أكمل وجه ممكن :

(بقّيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ)[٣] .

على أنه بعد ان ركز شعيب على دوره كناصح ومبلغ ونذير ، بيّن للمطففين من قومه بأنه لا يستطيع أن يمنعهم من عمل ا لقبائح . فقد وضع الفضائل أمامهم ، وعليه ، فهو ليس بكفيل على حفظهم فلو استحقوا العقاب بعد ذلك ، فسيكون هذا نتيجة تكذيبهم لدعوته ، وإصرارهم على البخس المنافي للعدل في المعاملات . وبهذا يكون شعيب كغيره من الانبياء ، قد تطرق الى مسألة «الحرية الانسانية» ، كأساس لتقرير مصير الانسان . ولكن هل ادرك القوم أهمية رسالته من كل نواحيها؟ بالواقع ، ان المعاني الروحية والقيم الأخلاقية المركز عليها في رسالة هذا النبي الكريم لم تفهم على حقيقتها من المفسدين من قومه . فالقصة تبين أنه انطلاقاً من حرصهم الشديد على الدنيا بمالها وجاهها ، ظنوا أن دعوة شعيب تهدف في أساسها الى حرمانهم من منافع ومكاسب مادية مشروعة في نظرهم . ومن هنا ، عبروا عن انكارهم لرسالته التي تربط بين الأمور الدينية والدنيوية بقولهم المتمثل في الآية التالية :

(قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)[٤] .

http://kotob.has.it/

لقد أبدى القوم هنا دهشة بسبب الربط ما بين الصلاة ووجوب الالتزام بالأمانة في المعاملات ، من جانب شعيب ، فها هم قد وجدوا صعوبة في تفهم دعوة شعيب لهم بوجوب ترك التبسط في الاموال ، وخصوصاً ، أنهم كانوا يعتبرونه على حد تعبيرهم «الحليم الرشيد» . ومن الجدير بالذكر هنا ، أن مخاطبة القوم له بقولهم(إنك لأنت الحليم الرشيد) تشير الىٰ أمرين : أولهما ، محاولتهم لاستمالته الى جانبهم أو ثانيهما ، في حالة الفشل في ذلك ، مواصلة تحديهم له من خلال التشكيك به وبنبوته . وهذا أسلوب متبع بالعادة من قبل المكذبين في ردهم على الانبياء . غير أنه أزاء موقف القوم المعادي له كنبي ، مضى شعيب أولاً لإثبات صحة أو صدق نبوته حيث أخبرهم بأنه على يقين تام بأن الله تعالى هو الذي يوحي إليه ، ويأمره بابلاغ رسالته لهم . كما أكد لهم بالوقت نفسه ، بأن الله هو مصدر الثروة التي يتعامل مثلهم بها مع الغير ، فالله قد أكرمه فعلاً بالنبوة والعلم وكثرة الرزق الحلال . ولكنهم بالغشاوة الموضوعة على أبصارهم ، لا يستطيعون ادراك هذه الحقائق ، يقول تعالى في هذا الصدد :

(قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وأليه أنيب)(٥) .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن قومه الذين لم يتمكنوا بجهلهم من تفهم رسالته كنبي كريم ، ظنوا بأن شعيباً كان يسعى لتحقيق منافع ذاتية له من وراء نهيهم عن التطفيف ، غير أنه من منطلق إدراكه لذلك ، فقد أكد لهم بأنه لن ينهاهم عن فعل شيء لكي يقوم من خلفهم لعمل ما كان قد نهاهم عنه ، من اجل الحصول على مكاسب مالية ! فالمال لا يهمه إلا من منطلق كونه نعمة يتوجه المحظي بها الى تقديم الشكر لواهبها ، وتجدر الاشارة هنا الى أن موقف القوم المنافي للاخلاق من شعيب من حيث التشكيك به امر بشع للغاية ، ويلقي الأضواء على نفسية مريضة لهؤلاء ، فهؤلاء قد وقعوا فريسة للجشع والطمع ، وبالواقع ، فمن يقع بهذه المصيدة ، لا يعرف حدوداً له ، فمهما جمع من المال ، فهو يتطلع دائما الى المزيد منه لأن المال يصبح من

http://kotob.has.it/

منظاره غاية وليس وسيلة للعيش . هذا وفي خضمّ جشعه وحرصه على جمع المال ، فقد يظن بأن كل من حوله يتصرف مثله وبل يشكل مصدر منافسة له . إن هذا الشك بالغير هو الذي دفع بعض الاغنياء من القوم لإتهام شعيب حين دعاهم للالتزام بالفضائل الدينية ، بنيّة الإنفراد من دونهم بجمع المال من الخلف . ولكن شعيباً قد بيّن للقوم بكل هدوء وسماحة خطأ اتهامهم له مؤكداً لهم بأن دعوته لا ترمي بالواقع الا لإحداث الصلاح في مجتمعهم فهي في هذا الاطار موجهة لمنفعتهم الذاتية المحضة ، وليس له أي مأرب شخصي . ولكن يبدو القوم قد أصروا على عنادهم وتحديهم لشعيب ، فتوجه الى الله تعالى للاستعانة به على هؤلاء المفسدين ، الجاحدين بالنعم الالهية .

المشهد الثاني

وفي الوقت نفسه ، فقد توجه شعيب بتحذير قوي للقوم ، فبيّن لهم بأن تحديهم وعداوتهم له ، لن تُنزل الضرر به على نطاق شخصي ، ولكنها سوف تنزل الضرر بهم شخصياً كجماعة . وذلك لأن اختلاس أموال الناس غشاً وتدليساً وقسراً وعنوة أمر مرفوض كلية من الناحية الدينية . فلا بد إذن وأن ينال مرتكبوه العقاب الصارم . وعند هذا المنعطف ، ذكر شعيب قومه بما جرى للأمم السابقة : قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط من تدمير بسبب طغيانهم معيداً الى الأذهان بأن المكان الذي دمر فيه قوم لوط ليس ببعيد عنهم ، كما ورد في الآية التالية :

(ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح
أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد)(٦) .

فشعيب هنا قد عاد الى التاريخ وأحضر أمثلة منه ، حتى تكون بمثابة درس للقوم ، فالتاريخ هنا استخدم كأداة للاعتبار ، وهذا يبرهن بأن الامثلة التاريخية في القرآن ترمي الى توجيه نظر الانسان في كل زمان ومكان نحو أسباب الرقي للأمم حتى يعمل بها ، وأسباب الانحطاط لكي يتجنبها ، والوقت دائماً مفتوح للتغيير والاصلاح إذا صلحت النفوس ، وما على الانسان إلا أن يفكر بتلك الحقائق ويتأملها ، ويشرع لطلب المغفرة من الله تعالى ، والتوبة اليه ، حتى يمده بالعون اللازم للاصلاح .

http://kotob.has.it/

ويهذا الاطار ، تبرز القصة صالحاً وهو ينصح قومه قائلاً :

(واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود)(٧) .

ويجمل بنا أن نذكر هنا بأن شعيباً قد أكد للقوم «سماحة» الدين كما فعل باقي الأنبياء من قبله . فالله تعالى برحمته يقبل التوبة الصادقة من عباده النادمين المستغفرين . ولكن يبدو أن العناد قد أستأصل في نفوس القوم ، فأغلقوا آذانهم عن الاستماع الى الكثير مما كان يقول على أساس أن ذلك يتعارض مع مصالحهم . وعليه قد أصبح من الصعب عليهم إدراك كنه رسالته ، فلجأوا في خطوة أخيرة الى تهديده ، كما ورد في الآية التالية :

(قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز)(٨) .

إن قصر نظر المطففين من قوم شعيب ، المقترن بالتحدي والإستكبار ، قد دفعهم للظن بأن شعيباً كان ضعيفاً ، بلا عز بينهم وبالتالي ، فقد تهيأ لهم أنهم يمتلكون القدرة على إلحاق الأذى به . فقد دفع بهم غرورهم لإخباره بأنه لولا احترامهم لرهطه بسبب إنتمائهم لدينهم وملّتهم ، لأقدموا على قذفه بالحجارة . فهو ليس بعزيز عليهم على حد قولهم . ولا بأس أن نبين هنا بأن الانسان المادي الذي يحب جمع المال وتكديسه بكل وسيلة يرى الأمور من خلال الاعداد والارقام الحسابية ، فالعشيرة في مجرى تفكيره تضم أعداداً يعظم حجمها في عينيه ، ويظن من ثم أن هذا الحجم يزوده بالقوة التي لا يستطيع فرد لوحده لان يقف أمامها . ومن شبه المستحيل لديه أن يدرك بأن القوة التي تسند الانسان العظيم في إيمانه لا تعادلها قوة لأنه لا يؤمن إلا بكل ما هو مرئي أو محسوس لديه ، أما غير المرئي فبعيد جداً عن أفق الادراك لديه . ومن هذا الاطار ، يمكننا تفسير ظن القوم ، الضعف بشعيب ، وتهديده بالقذف بالحجارة . على أنهم بموقفهم هذا المتسم بالضحالة ، وقصر النظر ، فقد وضع المطففون من القوم «العصبية» للرهط أو للعشيرة فوق كل إعتبار . ومن أجل ذلك ، فقد عقّدوا الامور ، التي لو استخدمنا التعبير القصصي ، تكون قد وصلت الى «الذروة» أو الى «القمة» . ولكن بوصول الامور الى هذا الحد ، يظهر السياق القرآني شعيباً وهو يرد عليهم كالاتي :

http://kotob.has.it/

(قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهرياً إن ربي بما تعملون محيط)[٩] .

لقد وضع المطففون هنا «العصبية» للرهط أو العشيرة فوق كل اعتبار ، معرضين بكل غطرسة وغرور عن الله تعالى ، خالقهم الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة عن أحوالهم وتحركاتهم ، وأعمالهم التي سيجازيهم عليها في الوقت الذي يختاره بحكمته ، ولتأكيد مبدأ العلم الرباني اللامحدود هذا ، فقد قال لهم شعيب (ان ربي بما تعملون محيط) . وهذا النص يحمل معه تحذيراً ، فهل استمع القوم إلى تحذيره؟ أن السياق للاحداث يبين للقارىء بأن هؤلاء لم يصغوا الى تحذيره هذا بالاضافة الى تحذيرات أخرى سابقة ، بل أصروا على مواقفهم الحمقاء بعدم اتباعهم لرسالته ، وعليه ، وجه لهم إنذاراً أخيراً متمثلاً في الآية الكريمة التالية :

(ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كذاب وارتقبوا إني معكم رقيب)[١٠] .

المشهد الثالث

لقد أبلغ شعيب القوم هنا ، بأن المستقبل القريب سيحدد المصيب من المخطىء منهم ، وما عليهم إلا الانتظار لمعرفة النتيجة بيد أن الانتظار هذا لم يطل ، لأن الامر الإلهي بالفيض بالنجاة على شعيب ومن آمن معه قد آتى بالفعل ، وبالمقابل ، جاء الأمر بإهلاك المكذبين والمطففين بالكيل والميزان ، فأخذ الظالمون «بالصيحة» ، فتحولوا عندها الى رماد في منازلهم . وبذلك أتى «الحل» لقصتهم بشكل صارم ومروع ، كما يتجلى في الآيتين التاليتين :

(ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود)[١١] .

وتجدر الاشارة هنا الى أن العقاب الذي ألمّ بأهل مدين جاء بشكل خاطف على ما يبدو بحيث قضى على معالم الحياة ، ومعالم الثراء في البلاد التي خضعت لهم ،

http://kotob.has.it/

والعقاب بهذه الصورة يدعو الى التأمل والتفكير لما يحمله من معاني عميقة تهم الانسان في كل الاوقات . إن أهل مدين كانوا أغبياء وحريصين على إبقاء المال حتى في مخالفتهم لكل القوانين والمثل والفضائل ، ودون أي وازع للضمير . والفئة التي لا تخشى من ارتكاب اي عمل منكر في سبيل الحفاظ على الغنى والمال لا تفكر حتماً الا بالحياة الدنيا ، ورفاهيتها ، وتظن من ثم بأن المال يضمن لها السعادة المنشودة ، أو بالاحرى فمثل تلك الفئة ترى الخلود في المال ، ولكن الاهلاك الخاطف لهم «بالصيحة» يؤكد بأن المال لا يعطي الحماية لإحد من العذاب الالهي المفاجىء . ولا شك أن الاندثار السريع لأهل مدين بكل مالهم وجاههم يشكل عبرة لكل الامم سواء المعاصرة لمدين أو للإمم الاخرى خلال التاريخ ، بما في ذلك عصرنا الحاضر . فكم نرى وجوماً على وجوه قد علم أصحابها بافلاس مفاجىء لاشخاص أو جماعات أو أقوام غنية للغاية . ولكن قصة شعيب مع قومه تبين لمثل هؤلاء بأنه لا داعي للاصابة بالدهشة أو بالذهول في حال ضياع مفاجىء لأموال كثيرة ، وذلك لأن المال الذي لا يتأتى بالطرق المشروعة ، كما كان الحال مع مال الأغنياء من قوم شعيب يتبدد بالنتيجة . فالله تعالى الذي حث الانسان على وجوب الالتزام بالامانة فيما يتعلق بالمعاملات المالية ، يعاقب هذا الانسان إذا أخل بالمبدأ ، أي مبدأ الامانة ، لأن الاخلال به يعني بالحقيقة الاخلال بالموازين ، ونشر الظلم في الارض .

ويجمل بنا أن نذكر أخيرا بأن الآية (كأن لم يغنوا فيها . . .) تبين ضحالة القوة البشرية أمام القوة الالهية ، فكم اعتزت الجماعة الغنية من قوم مدين بمالها ، وشعرت بالقوة من جراء ذلك ! ولكن اعتزازها بالمال ذهب مع «الصيحة» التي جعلت هؤلاء جاثمين في ديارهم فأبعدوا كثمود ابعاداً عن الساحة البشرية ، ومضت عجلة التاريخ الى الامام بدونهم . . .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٨٤ هود ١١ .

٢ ـ ٨٥ هود ١١ .

٣ ـ ٨٦ هود ١١ .

٤ ـ ٨٧ هود ١١ .

٥ ـ ٨٨ هود ١١ .

٦ ـ ٨٩ هود ١١ .

٧ ـ ٩٠ هود ١١ .

٨ ـ ٩١ هود ١١ .

٩ ـ ٩٢ هود ١١ .

١٠ ـ ٩٣ هود ١١ .

١١ ـ ٩٤ ، ٩٥ هود ١١ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

الفصل السادس

قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبني اسرائيل

حياة موسى : طفولته وشبابه وزواجه

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

وبعد أن قدّم القرآن الكريم قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم التي اهلكت بسبب ظلمها ، إنتقل السياق الآن لعرض قصة أخرى ، ألا وهي قصة «موسى مع فرعون وبني اسرائيل» . ومن الواضح أن تلك القصة بالذات قد نالت تركيزاً ، أوسع في مداه ، من اي من القصص الخمس السابقة . ويرجع هذا الى عدة اسباب ، في مقدمتها مسألة «تأليه» فرعون لنفسه كحاكم ، ومحاولته لفرض ذلك بقوة السلطان ، وما ترتب على هذا من آثار سلبية . فقد نشأ حكم استبدادي ، تولى قيادته فرد أراد ان يخضع كل شيء ، في البلاد التابعة له لسلطانه . وعليه ، فلم يكن للعقيدة ولا للاخلاق وزن في حكمه المتعالي . . ولم تكن هنالك هوادة مع اية فئة متمردة على فكرة التأليه لهذا الطاغوت . . اذن ، لقد تميز حكم فرعون بالطغيان الروحي والسياسي والاجتماعي والاخلاقي . وبموجب ذلك فتكرار القصة الملحوظ يهدف في جوهره الى توجيه تحذير من مغبة أية نزعة «بشرية» نحو التأليه في اي زمان ومكان ، لأن هذا شرك لا يغتفر :

(إن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشآء . . .)(١) .

إن أي حكم تقام قواعده على أساس التأليه للفرد المستبد ، متناقض تماماً مع المبادىء الروحية والاخلاقية ، فجميع الرسالات السماوية ، ابتداء من نوح ، تدعو الى التقوى ووجوب تقديم الطاعة الى الله تعالى وحده ، وهذه الدعوة تعرّف الانسان بصلته بالوجود ومكانه منه . كما أنها تؤكد له أنه ، كمخلوق تابع لواجب الوجود ، يتساوى مع غيره في العبودية لله تعالى وحده . فإذا أدرك كل هذه الحقائق إدراكاً تاماً ، بلغ هذه الانسان حد الايمان الذي يحفزه للعمل المثمر لدنياه وآخرته . وعليه ، فالقصة في جوهرها تبين الطريق الصحيح الذي يكفل السعادة للانسان . هذا بالاضافة الى أمور أخرى سنبينها فيما بعد .

ومن الجدير بالذكر هنا بأن قصة موسى تلك وردت في عدة «حلقات» من سور

http://kotob.has.it/

قرآنية منها : البقرة والمائدة والاعراف ويونس وطه والقصص . هذا إلى جانب «إشارات» لها في سور أخرى . منها : ق ، القمر ، الحاقة ، الفجر ، والبروج . هذا ، والقصة بمجموعها تحتوي على النقاط الآتية : حياة موسى في طورها المبكر ، إختياره للنبوة ، وتبليغ فرعون بضرورة إخراج بني إسرائيل من مصر ، وما تلا ذلك من أحداث انتهت بإغراق فرعون وجنوده باليم ، وخروج بني إسرائيل ، وابتداء فترة التيه والردة لديهم . في هذا الفصل سنركز البحث على حياة موسى : طفولته وشبابه وزواجه .

أ ـ طفولته

في جو من الظلم الذي اتجهت فيه السلطة الفرعونية نحو ذبح أطفال بني اسرائيل بقصد قطع النسل من الذكور منهم ، وبالتالي إضعاف القوم ، ولد طفل هال أمه نور عينيه ، فتغلغل حبه الشديد الى قلبها ـ وبولادته في مثل تلك الظروف القاسية ، فقد تلقت هذه الأم وحياً من الله تعالى يقتضي بإبلاغها أما بالقيام بإرضاع فلذة كبدها (موسى) ، أو في حالة خوفها عليه من القتل من قبل السلطة ـ التي كانت قد بثت العيون والجواسيس للعلم بالمولودين للفتك بهم ـ فعليها أن تلقيه في «اليّم» أي في نيل مصر . ومن الطبيعي أنها كأم حريصة على فلذة كبدها ، فلا بد وأن الخوف قد إنتابها من جراء ذلك . ولكن الله تعالى بدد خوفها حين وعدها برد الطفل لها في الوقت المناسب ، ويشرها بجعله من المرسلين :

> (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين)[٢] .

وكما جاء في رؤية هذا المشهد من قبل سيد قطب :

> هذا هو المشهد الأول في القصة ، مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور برداً وسلاماً ، ولا يذكر السياق كيف تلقته أم موسى ، ولا كيف نفذته ، إنما يسدل الستار عليها ، ليرفعه فاذا نحن أمام المشهد الثاني : . .[٣] .

http://kotob.has.it/

ومن الجدير بالذكر هنا أنه بالرغم من أن السياق القرآني لم يبين كيف تلقت أم موسى الوحي ، إلا أنه يجب التأكيد بأن الوحي جاء «بالالهام» أو ربما «بالرؤيا» . وعليه ، فيجب التفريق بينه وبين «وحي الرسالة» التي تتنزل على «النبي» . هذا من ناحية ، أما من جهة اخرى فيجب القول بأن «الايجاز» في ذكر الاحداث في المشهد الأول أمر عظيم ، لانه يترك الباب مفتوحاً أمام القارىء للتفكير بما يمكن أن يكون قد حدث مع أم موسى بعد تلقيها للوحي المبين أعلاه . فالايجاز هنا عنصر طبيعي لازم لإثارة الرهبة والتشويق في نفس القارىء أو السامع .

هذا ومع شوق القارىء لمعرفة ما حصل ، فإذا بالمشهد يفتتح «بمفاجئة» متمثلة في التقاط موسى من قبل آل فرعون . فهؤلاء الذين كانوا قد بطشوا بأعداد كبيرة من أطفال بني اسرائيل يلتقطون الآن طفلاً منهم ، دون علم من جانبهم ، بأن هذا الطفل سيقتص من أفعالهم المشينة بحق الابرياء . إن هؤلاء لم يدركوا وقتئذ بأن هذا الطفل الذي تولوا تربيته ، سوف يطيح بحكمهم مستقبلاً ، عقاباً لهم بذنوبهم وخطاياهم :

(فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين)(٤) .

وحري بالذكر هنا «العقاب» الذي كان ينتظر آل فرعون كان من نفس نوع «الذنب» المقترف من جانبهم . فذنبهم تجسد في ذبح أطفال بني اسرائيل بغية استئصالهم على المدى البعيد ، على أن زعزعة ملكهم جاءت على يد هذا الطفل الذي أيده الله تعالى بنصره عندما أهلك آل فرعون بالغرق في اليم . وهذا المغزى المتعلق بالعقاب «ونوعية الذنب» متطابق مع قصص قرآنية بحثت سابقاً . ولكن بالعودة ثانية الى «قصة موسى مع فرعون» حين التقاط موسى ، واذا بالسياق يكشف الآن عن إمرأة فرعون وهي تخبر زوجها بأن هذا الطفل قرة عين لها وله . وعليه ، توجهت اليه بالخطاب بعدم قتله لرجاء المنفعة منه من جهة ، أو تبنّيه لأنه أهل لذلك من جهة أخرى ، فالتقطوه اذاً ، وهم لا يعرفون ماذا يخبىء لهم المستقبل :

(وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو تتخذه ولداً وهم لا يشعرون)(٥) .

http://kotob.has.it/

وعند هذه النقطة ، انتهى المشهد الثاني لتنتقل القصة مرة اخرى الى أم موسى التي كانت قد القت بابنها في التابوت في اليم . لقد طغت موجة من العاطفية على قلب تلك المرأة . فأصبحت تعاني من حالة من الحيرة والجزع ، كما ورد في هذه الآية الكريمة التالية :

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين)(٦) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن استخدام تعبير «فارغا» امر هام ومثير للفكر والوجدان بطريقة لا مثيل لها . فكلمة فارغ المشتقة من «فرغ» تشير الى خلو تفكير تلك المرأة من كل شيء الا من فلذة كبدها ، موسى . اي بمعنى آخر فكل تفكيرها كان منصباً نحو مسألة قذف ابنها في اليم ، وما جرى له ، بناء على ذلك . ومن هذه الزاوية ، أصبحت تعيش في حالة من الضياع ، والحزن ، والقلق النفسي . ولكن في هذه اللحظات الحرجة من حياة تلك المرأة ، واذ بالسياق القرآني يكشف عن دور الرعاية الالهية في تخفيف القلق عنها . فالله تعالى ، الرحيم بعباده ، قد أنزل الطمأنينة على قلبها الجزع ، وزودها بقوة الارادة لعدم اظهار ما في قلبها ، أو افشاء سرها بين الناس ، حتى لا يصاب ابنها بمكروه . وهذا ما يفسر التعبير القرآني(لولا أن ربطنا على قلبها) . فالله تعالى ، اذن ، قد قوى تلك المرأة وثبت خطاها عن طريق الالهام وذلك حتى تكون من الواثقين بحفظه ، المصدقين له بالوعد بارجاع ابنها لها . وهنا ، تظهر ام موسى فعلا بقلب قوي ، وقد عادت لها القدرة على التصرف الصحيح . فطلبت من اخته اي (اخت موسى) لكي تتبع اثره للتقصي عن اخباره . فذهبت هذه الاخت بحذر وخفية للبحث عنه في كل مكان ممكن الى ان وجدته . فالسياق يظهر أنها قد رأته في أيدي خدم فرعون ، وهم يبحثون له عن مرضعة ، كما ورد في قوله الكريم :

(وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون)(٧) .

لقد كان بحثهم له عن مرضعة ناتجاً عن رفض موسى المتتالي لقبول الرضاعة من أي مرضعة تقدمت له . وهنا كان الجو مناسباً لاخته ، التي لم يعرفونها ، للتدخل .

http://kotob.has.it/

فتقدمت لهم باقتراح عمن يمكن أن ترضعه ، وتحفظه بالتربية . وطبعاً ، دلتهم على أمه :

(وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)(٨) .

وفعلاً فقد جاءت ام موسى الى القصر وشرعت بارضاع ابنها الذي استراح لذلك . وعليه ، فقد عاد الطفل الى امه لكي لا تحزن ولا تجزع . ولكي تعلم بأن وعد الله تعالى ، بردّه لها وعد حق ، كما ورد في قوله الكريم :

(فرددناه الى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون)(٩) .

ويجب أن نتذكر هنا بأن الجمع ما بين ام موسى وابنها في قصر فرعون يبرز السخرية الالهية بفرعون . . هذا الذي تطاول على كل الحدود من خلال تأليهه لنفسه ، ومن خلال قتله لاطفال كل هؤلاء الذي رفضوا الخضوع لفكرة التأليه هذه . . أن فرعون القاتل للاطفال وجد نفسه الآن وهو يربي طفلاً في قصره ، كتب له أن يتحداه بقوة مستقبلاً ! ! وهذا يتماشى مع قوله تعالى في كتابه العزيز :

(. . . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)(١٠) .

على أنه بعد التحدث عن الجمع بين موسى وامه في قصر فرعون ، ينتقل السياق القرآني للتركيز على فترة «سن الرشد» لدى موسى دون تزويد للقارىء او السامع بمعلومات عن حياة موسى الاولى في القصر . وهذا يعني أن الفترة الاولى من حياته قدمت من خلال اسلوب متسم «بالايجاز» ، ويهذا افسح المجال أمام طرح تساؤلات كثيرة في ذهن القارىء او السامع منها : كيف كانت صلة موسى بفرعون وإمرأته ، وهو يتلقى الرضاعة من أمه الحقيقية؟ كيف كانت صلته بهم وهو يتربى على أيدي امه الحنون التي لا بد وأنه أحبها واستمع اليها فيما بعد بحكم أواصر الامومة . ان القرآن الكريم لا يتحدث عن هذه النقاط وغيرها ، وذلك لاتاحة الفرصة للانسان للتفكير بالاشياء . وتجدر الاشارة هنا الى أن القرآن يدعو الانسان دوماً الى التأمل والتوصل

http://kotob.has.it/

بنفسه الى النتائج ، حتى يبقى محلقاً في أجواء المعارف الانسانية التي تغذي العقل والروح .

ب ـ سن الرشد

على أنه بالعودة ثانية الى قصة حياة موسى ، يركز السياق مباشرة عليه وقد اكتمل نضوجه الفكري ،وبلغ الحد التمام في قوته . وهذا يعني على حسب اجتهاد كثير من المفسرين ، أنه كان في سن تتراوح بين الثلاثين والأربعين :

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزي المحسنين)(١١) .

وهكذا يجزي الله تعالى المحسنين بالعلم والحكمة . وعند هذه النقطة ، بدأت القصة بإبراز الأحداث التي جرت في حياة موسى عند بلوغه لهذه السن . ولكن قبل التحدث عن تلك الأحداث يجدر بنا أولا أن نتحدث عن فرق أساسي بين مرحلة الطفولة ومرحلة النضوج لكل انسان فيما يختص بموضوع اتخاذ هذا الانسان لقراراته : ففي المرحلة الاولى ، فمن الطبيعي أن يكون الشخص عاجزاً عن اتخاذ القرارات من منطلق عدم نضوجه ورشده . أما في المرحلة التالية ، فيتغير الحال ، ويصبح قادراً على اتخاذ قراراته بنفسه بحكم اكتمال أو نضوج تفكيره . ولكن يجب أن نبين هنا أنه بسبب حرية الاختيار التي يحظى بها ، فلا بد وان يخطىء في اتخاذه لقرار هنا وقرار هناك . والخطأ نفسه يتخذ درجات ، أي قد يكون بسيطا ، أو وسطا ، أو فادحاً في طبيعته . ويعتمد ذلك على مدى تغلب العواطف والانفعالات على التفكير الانساني في لحظة أو أخرى . فلو أبقينا هذه المعلومات في ذهننا ، وركزنا الآن على قصة موسى في مرحلة شبابه قبل النبوة ، لرأينا أن تلك القصة قد أبرزت بعض هفوات له وقتئذ . فمثلا قتله الغير المقصود للقبطي عندما استنجد اسرائيلي به يُشكل هفوة صدرتّ عنه . وتلك الهفوة كانت ترجع إلى انفعال موسى وغضبه من بطش الفراعنة بأبناء قومه . إن غضبه هذا دفعه لنجدة الاسرائيلي بتسرع ودون أي محاولة منه لفهم الدافع وراء نزاع هذا الشخص مع القبطي . . فموسى قد ظن بأن الدافع «قومي» في حين أن القصة أظهرت فيما بعد بأنه «شخصي» ولكن ، على أية حال ، فقد أدرك

http://kotob.has.it/

هفوته ، واتجه إلى الله تعالى لطلب المغفرة والصفح منه ، يقول تعالى في كتابه العزيز :

(ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين)(١٢) .

أما فيما يتعلق بتوبته ، وطلب العون من الله تعالى ، فقد وردت الآية التالية :

(قال رب أني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين)(١٣) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن ندم موسى على فعلته ، وطلب الصفح من الله تعالى ، يُبين مراجعته لنفسه لاتخاذه لقرار سريع أدى به الى ارتكابه لجرم غير مقصود . وعدا عن ذلك فالآية تؤكد بأن الرحمة الالهية والمغفرة موجودتان دائما لدى الانسان التائب . وهذا مبدأ ديني هام ، تفتح من خلاله أبواب الأمل لكل من أخطأ ثم تاب وأصلح . على أن هذا المبدأ كان قد رُكز عليه مراراً قبل موسى في الرسالات السماوية السابقة .

ولكن بالعودة ثانية لأحداث القصة بعد مقتل القبطي وندّم موسى وتوبته ، واذ بالسياق يُظهر موسى وهو خائف ، يتوقع نصرة الله تعالى له . وبينما هو على حالته تلك ، واذ بالإسرائيلي الذي كان قد خاصمه سابقا ، يستغيث به ثانية من قبطي آخر ، بيد أن موسى الذي كان قد ندم على ما أقدم عليه بالأمس من قتله للقبطي في لحظة غضب ، أتهم الاسرائيلي هذا بأنه انسان ضال عن الرشد :

(فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين)(١٤) .

ولكن بالرغم من فهم موسى لنوايا الإسرائيلي ، فقد همَ بالبطش بالقبطي في

http://kotob.has.it/

لحظة انفعال أخرى ، بيد أنه تراجع . وتراجعه هذا يُبين الآن قدرة أكبر من جانبه على ضبط النفس . فحياة موسى تُبين بأن هذا النبي الكريم كان يتصف في بعض الاحيان بقلة الصبر . وهذا أمر طبيعي بالرغم من كون موسى نبياً . فالحد الفاصل يجب أن يبرز دائما بين الألوهية والإنسانية ، فالكمال لا يُنسبْ إلا الى الله تعالى وحده ، والانسان معرض دائما للنسيان بحكم طبيعته كبشر ، ولو أن ذلك يأخذ درجات .

ولكن بالعودة مرة اخرى لمشهد موسى الثاني مع الإسرائيلي نرى السياق القرآني يُفاجى القارىء بالإسرائيلي ، وهو يتهم موسى بنية الاقدام على قتله من جهة ، ويتهمه بالرغبة في التطاول على الناس دون تقدير منه لعواقب ذلك من جهة اخرى . ثم انتهى الإسرائيلي بوصف موسى كإنسان جبار ، لا يريد الاصلاح بين الناس ، ودفع التخاصم بالتي هي أحسن :

(فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الارض وما تريد أن تكون من المصلحين)(١٥) .

ان هذا الموقف يُبين «نفسية» واحد من بني اسرائيل نحو المصلحين منهم ، إذ ان موسى لم يكن قد كلف بالنبوة وقتئذ . فهذا الشخص اقتتل مع الغير لأكثر من مرة ، إما لمصلحة ذاتية أو لنزعة قتالية لديهً ، أكثر مما كانت كفاحا ضد ظلم فرعون . كما ذكرنا سابقا ، ولكن بما أن دوافع موسى كانت في اتجاه معاكس ، فقد ظن أن دوافع الإسرائيلي في الاقتتال مع القبطي كانت تهدف للحد من الظلم . بيد أنه تراجع فيما بعد ، عندما فهم نوايا هذا الانسان . فالإسرائيلي هذا قد كشف الستار عن نفسيته ، فهو يريد تلقي مساعدة دائمة لارضاء أهوائه ونزعاته ، ولكن اذا توقف الشخص الآخر عن مساعدته بسبب فهمه له ، فعندها ينقلب عليه رأسا على عقب ، موجها له اتهامات بالتجبر وعدم الاصلاح ، كما حصل تماما في موقفه مع موسى . على أن ذلك يُبين بأن هذا الشخص قد اتصف بالأنانية والنزعات العدوانية ، والرغبة في تسخير الآخرين لإرضاء أهوائه ، ثم الانقلاب عليهم عند رفضهم للإنجراف من ورائه بسبب ادراكهم للحقيقة ! !

http://kotob.has.it/

ولكن بالعودة مرة أخرى الى القصة ، فالسياق يظهر الملأ أو الأشراف من قوم فرعون وقد اتفقوا على قتل موسى ، بيد أن قرارهم هذا لم يبق سرا ، اذ أن هذا النبي الكريم قد علم به حين جاءه رجل من وسط المدينة ، ونصحه بالخروج منها بسبب ائتمار الملأ عليه ، فخرج منها خائفا مترقبا ، داعيا لله تعالى لأن يُخلصه ويُنجيه من الكفرة من آل فرعون :

(وجاء رجل من أقصى المدينة قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين . فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين)(١٦) .

وقد نجاه الله تعالى منهم حيث أنه تمكن من الوصول الى مدين بعد أن قطع مسافات شاسعة . وتجدر الاشارة هنا الى أن الرحمة الالهية تغمدت موسى للمرة الثالثة في حياته ، مرة أثناء طفولته ومرة ثانية حين طلب الغفران بسبب قتله للقبطي دون قصد ، ومرة ثالثة عندما وصل آمنا الى مدين . على أن كل ذلك قد شكل عوامل هامة في تهيئته للرسالة التي كلف بها فيما بعد .

ج - زواجه

هذا ، وعند دخول موسى الى المدينة ، واذ بالسياق القرآني يبرز مشهداً انسانياً واقعياً . فهذا موسى قد وصل الى بئر مدين . . وها هو يرى جماعة كبيرة من الناس ملتفة حول البئر لسقاية مواشيهم ، واكثرهم من الرجال . . ولكن خلف هؤلاء الرجال ، رأى موسى امرأتين في حالة الانتظار المصطحب بالحرج . وهنا تقدم نحوهما مستفسراً «ماخطبكما» اي لماذا لا تقومان بسقاية مواشيكما مع الآخرين؟ فكان جوابهما كالآتي «لا نسقي حتى يصدر الرعاء» اي لا يمكننا أن نسقي مواشينا الا عندما ينتهي الرجال من اداء مهمتهم في هذا الصدد . وعند هذه النقطة ، بينت المرأتان لموسى بأن مجيئهما للسقاية كان اضطراريا لأن والدهما شيخ كبير . وهنا ثارت حمية ونخوة موسى ، فسقى لهما المواشي . ثم جلس في ظل شجرة من شدة الحر ، وهو يتضرع لله تعالى كي ينعم عليه بالرزق والامان :

(ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من

http://kotob.has.it/

دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب إني لما أنزلت الي من خير فقير)(١٧) .

إن هذا المشهد يلقي الاضواء على بعض العادات الاجتماعية التي كانت سائدة في مدين وقتئذ . فالرجال كانوا يمتلكون حتى الاولية في الحصول على الاشياء بحكم قوتهم الجسديَّة . فهم مثلاً قد أخذوا زمام المبادرة للحصول على الماء لسقاية مواشيهم . أما النساء ، فحاجاتهم تُقضى بعد انتهاء الرجال من الحصول على ما يريدون . وهذا أمر يتجلى في وقوف المرأتين بالخلف للإنتظار . ولكن مساعدة موسى الفورية لهاتين المرأتين في سن تلقيه للعلم والحكمة ، يبين أن الاخلاق القويمة تقتضي مساعدة المرأة في قضاء حاجاتها ، بدل تعريضها للمزاحمة أو الانتظار الطويل في الخطوط الخلفية . على أنه بالعودة الآن الى مشهد موسى وهو يستظل تحت شجرة من حرارة الشمس ويقوم بدعائه ، واذ باحدى هاتين الفتاتين المذكورتين أعلاه تأتي - وهي تمشي باستيحاء ، أي بطريقة تليق بالمرأة الشريفة ذات الخلق الكريم - وتخبر موسى بأن أباها المسن يدعوه لكي يكافئه على حسن صنيعه معهم :

(فجاءته احداهما تمشي على استيحاء قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوتَ من القوم الظالمين)(١٨) .

وفعلا ذهب موسى لمكان الشيخ حيث وجد عنده الراحة والصدر الرحب ، والاذن الصاغية . فأخبره بقصته مع فرعون منذ ولادته الى حين قتله للقبطي ، وائتمار الملأ عليه ، وهربه وهو وحيد شريد الى أن وصل مدين . وهنا اكد له الشيخ بأن الملأ لن يصلوا اليه بأي اذى او ضرر لأنهم لا سلطان لهم على أرض مدين . وبهذا سادت موجة من الطمأنينة في قلب موسى المضطرب . . فشعر بالامان بعد توسل الى الله تعالى للحصول على تلك النعمة الضرورية في حياة الانسان . هذا ، وفي تطور جديد بالقصة ، يظهر السياق احدى بنات الشيخ ، وهي تطلب من أبيها لكي يتخذ من موسى أجيراً ليرعى مواشيهم . وذلك لكي يكفيها وأختها من مؤنة السقاية ، والانتظار

http://kotob.has.it/

الطويل خلف الرجال لتحقيق الهدف . فموسى ، كما ذكَرَتْ ، قوي وقادر على القيام بالحمل الثقيل ، وأمين على المال :

(قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الامين)(١٩) .

هذا ، وقد رحب الاب الشيخ بفكرة ابنته مستجيباً لها . وهذا أمر طبيعي ، فكل أب عظيم ، صالح ، يحرص بكل تأكيد على توفير اسباب الراحة والامان لبناته وأولاده . على أن القصة تبين ، في خطوة جديدة ، أنه في خضم حرص هذا الاب على بناته ، فقد عرض على موسى أن يزوجه احدى ابنتيه ، واضعاً شروطا لذلك . وهي خدمته ورعاية مواشيه لمدة سنوات . ولكنه ابلغ موسى في الوقت نفسه ، بأنه لو اراد أن يزيد تلك السنين الى عشرة ، فهذا تفضيل منه ، لا إلتزام عليه ، ويخضع للظروف ، كما ورد في الآية الكريمة التالية :

(قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني
ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك
ستجدني ان شاء الله من الصالحين)(٢٠) .

وهنا ابلغ موسى الشيخ بأنه ملتزم بما قاله له ، وعاهده فيه ، وشارطه عليه . وبين له بأنه لو قضى ثمان أو عشر سنوات بالعمل معه ، فهو موفي لالتزامه نحوه . فلا سبيل له عندها عليه . واختتم حديثه مع الشيخ قائلاً ، بأن الله تعالى شهيد على ما نقول من الشروط والوفاء :

(قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان
عليّ والله على ما نقول وكيل)(٢١) .

وبهذا اسدل الستار عن قصة حياة موسى فيما يتعلق بجزء من حياته ، لكي يبدأ بجزء آخر منها .

بناء على ما تقدم ، يجب أن نكرر بأن الفضل الإلهي على موسى قد تجلى في رحلته لمدين . ففي تلك المدينة وجد البيت الصحيح ، بيت شعيب . . . والزوجة الصالحة ، ابنة شعيب والعمل الذي اتاح له فرصة للتامل والتفكير ، وهو رعاية ماشية

http://kotob.has.it/

شعيب ، إذن ، فبحفظ الله تعالى وحده ، فقد حظى موسى بالاستقرار العائلي والنفسي ، والمعيشي ، كما وجد الوقت اللازم لتزويد نفسه بالمعرفة الناتجة عن النظر ، والفكر ، والتأمل بالكون . وعند هذه النقطة ، يجب أن نذكر بأن الحديث عن حياة موسى الأولى وتجاربه الشخصية يُشكل نقطة اختلاف في اسلوب العرض بين قصة هذا النبي وما سبقها من قصص . فالقصص السابقة : نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط وشعيب ، كانت تركز على الجدال بين هؤلاء الانبياء وأقوامهم ، دون اعطاء المعلومات عن حياتهم قبل النبوة . وبالاضافة الى ذلك ، فإن تلك القصص لم تتحدث عن مسألة الاختيار للنبوة التي سيدور عليها البحث في الفصل القادم . وربما يعود ذلك الى كون رسالة موسى أوسع مدى في أحكامها وقوانينها ، وأكثر شمولية في مفاهيمها ، عما سبقها من رسالات سماوية تبعا للتطور الزمني والبيئي . فالحديث عن حياة موسى يركز في كثير من زواياه على التاهيل له لحمل رسالة قاسى في أثناء تبليغها مقاساة كُبرى في مرحلة مجابهته لفرعون أولا ، وفي مرحلة التيه ثانياً ، أي تلك المرحلة التي تلت خروجه مع بني إسرائيل من مصر . وسيدرك القارىء فيما يلي من فصول ثقل المهمة الملقاة على موسى .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ١١٦ النساء ٤ .

٢ ـ ٧ القصص ٢٨ .

٣ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٦٧٩ .

٤ ـ ٨ القصص ٢٨ .

٥ ـ ٩ القصص ٢٨ .

٦ ـ ١٠ القصص ٢٨ .

٧ ـ ١١ القصص ٢٨ .

٨ ـ ١٢ القصص ٢٨ .

٩ ـ ١٣ القصص ٢٨ .

١٠ ـ ٣٠ الانفال ٨ .

١١ ـ ١٤ القصص ٢٨ .

١٢ ـ ١٥ القصص ٢٨ .

١٣ ـ ١٦ ، ١٧ القصص ٢٨ .

١٤ ـ ١٨ القصص ٢٨ .

١٥ ـ ١٩ القصص ٢٨ .

١٦ ـ ٢٠ ، ٢١ القصص ٢٨ .

http://kotob.has.it/

١٧ـ ٢٣ ، ٢٤ القصص ٢٨ .

١٨ـ ٢٥ القصص ٢٨ .

١٩ـ ٢٦ القصص ٢٨ .

٢٠ـ ٢٧ القصص ٢٨ .

٢١ـ ٢٨ القصص ٢٨ .

http://kotob.has.it/

الفصل السابع

موسى ومرحلة النبوة

انتدابه لوضع حد لطغيان فرعون

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

وبعد الانتهاء من القسم الاول المتعلق بحياة موسى منذ طفولته حتى زواجه ، تنتقل القصة الآن للتركيز على مرحلة أخرى من حياته ، وهي مرحلة «النبوة» . وتقع احداث تلك المرحلة في مشهد مثير للفكر والوجدان لما يكتنفه من اسرار كونية ومفاجئات شتى وقعت اثناء عودة موسى الى البلد الذي نشأ فيه ، والذي كان يرضخ لحكم فرعون الاستبدادي . فها هو موسى مسافر في ليلة مظلمة ، شديدة البرودة ، ومثلجة ، وها هي زوجته حامل في شهرها بحيث لا يعرف أتَضَعُ في وقت الليل أو النهار ، وها هم قد ضلوا طريقهم في متاهات الصحراء الشاسعة . . ويتعرض العائلة لكل تلك المخاطر ، فقد كان هنالك حاجة ماسة لمخرج . . في هذا الوقت بالذات ، واذ بموسى يرى ناراً ، فيتأثر لهذا المنظر ويأنس له . فخرج قاصداً مكان النار عله يتمكن من احضار شعلة منها للتدفئة أو عله يجد ما يهديه الى الطريق الصحيح للوصول الى الوطن ، كما جاء في قوله الكريم في مخاطبته للرسول محمد(ﷺ) :

(وهل أتاك حديث موسى ، إذ رأى ناراً فقال لإهله امكثوا إني أنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هُدى)(١) .

إن كلمة «أنستُ» تشير هنا أيضاً الى الراحة النفسية التي سيطرت على كيان موسى عندما رأى تلك النار ، فلعل موسى أبصر منها شيئاً غامضاً أو سراً أدخل السرور الى فؤاده المضطرب ، والبشرى لنفسه القلقة المتطلعة الى النجاة من المأزق الذي كان يعاني منه في طريقه الى جانب الطور . ويدعم هذا الافتراض الصوت العظيم الذي سمعه موسى من كل جانب وبكل حواسه عندما أتى النار ، كما ورد في قوله الكريم :

(فلما أتاها نودي يا موسى . إني انا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى)(٢) .

وفي تعقيب على قوله ، جل جلاله ، جاء ما يلي في كتاب «في ظلال القرآن» :

http://kotob.has.it/

نودي بهذا البناء للمجهول . فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه . ولا تعيين صورته ولا كيفيته . ولا كيف سمعه موسى أو تلقاه . . نودي بطريقة ما فتلقى بطريقة ما ، فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه ، ولا نسأل عن كيفيته ، لأن كيفيته وراء مدراك البشر وتصورات الانسان(٣) .

وبهذا الجو المليء بالغموض والاسرار الذي يقف العقل البشري قاصراً امامه ، والذي لا بد وأن يكون قد أثار الحيرة في نفس موسى أيضاً ، اذ بهذا النبي الكريم يستمع الى الله تعالى وهو يقول له (إني انا ربك) فهو اذن في الحضرة السماوية في واد مقدس اسمه «طوى» ، وعليه أن يخلع نعليه ، وفي هذه النقطة الحاسمة يأتيه خبر الاختيار أو الاصطفاء له بالنبوة ، كما ورد في قوله تعالى :

(وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)(٤) .

وفي تعقيب على هذه الآية الكريمة ، يقول سيد قطب :«وأنا اخترتك» . .فيا للتكريم ! يا للتكريم ان يكون الله بذاته هو الذي يختار . يختار عبداً من العبيد هو فرد من جموع الجموع . . . تعيش على كوكب من الكواكب هو ذرّة في مجموعة . المجموعة هي ذرة في الكون الكبير الذي قال له الله : كن . . فكان ! ولكنها رعاية الرحمن لهذا الانسان !(٥) .

إن اختيار الله تعالى بذاته لموسى عن طريق التكليم ـ لا عن طريق ملك مثلا ـ يهدف الى اثبات الوحدانية له عن طريق الدليل والبرهان . فالدليل عادة يتجسد اما في شيء مرئي أو في شيء مسموع ، ويكون قاطعاً عندئذ . على أن وجود دليل عن طريق السمع فيما يختص باثبات وجود الله تعالى يُشكل تطورا هاما فيما يتعلق بموضوع الوحدانية . ففي المرحلة الأولى من حياة موسى ، فإن السياق القرآني يوحي للقارىء بأن موسى قد أدرك وجود الله تعالى بواسطة حسه ، وقلبه ، وعقله من خلال التفكير بالرعاية الالهية المستمرة له . ولكن عند الانتقال لمرحلة التكليم ، فقد انتقل الامر الى عالم التجربة ، وعالم اليقين . والجدير بالذكر هنا أن كلام الله تعالى لموسى

http://kotob.has.it/

قد ركز ، قبل كل شيء على مبدأ الوحدانية ، كما يتجلى ذلك في الآيات التالية :

(إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى . فلا يصدّنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى)(٦) .

إن النصوص القرآنية تحمل أمرا لموسى بوجوب التقوى وتقديم الطاعة الى الله تعالى وحده عن طريق العبادة والصلاة لذكره . وفي نفس الوقت ، تحمل معها تذكيرا لموسى بحتمية الحساب الذي يخضع له كل انسان بموجب سعيه . والسعي هنا يؤكد بأن الانسان قد اعطي الحرية للتصرف بموجب عقلانيته ، وأنه يُجازى أو يُثاب على حسب توجهه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر . ومن هذه الزاوية نرى العلاقة بين موضوع الوحدانية والمسؤولية الفردية(٧) . على أن تلك العلاقة تبرز بدورها علم الله تعالى اللامحدود ، لأن الحساب قائم على احصاء دقيق لكل اعمال الانسان ، الصغيرة والكبيرة منها . هذا وان الحديث لموسى عن مثل هذه القضايا المصيرية منذ لحظة اختياره لأمر هام للغاية . فهذا يُبين لموسى بأن هنالك حدا فاصلا بين العلم الالهي ، وعلم الانسان . فالأول لا يحده شيء ، بينما يتصف الآخر بالمحدودية بحكم طبيعة الانسان ، وحاجته الدائمة الى الله تعالى . فالله هو مصدر المعرفة .

على أنه بالعودة ثانية الى أحداث القصة كما أخذت مكانها في الوادي المقدس طوى ، يُبرز السياق القرآني السؤال الآتي الموجه من الله جلّ وعلا إلى موسى :

(وما تلك بيمينك يا موسى)(٨) .

وتجدر الاشارة هنا الى أنه إذا كان القصد من السؤال هو تنبيه موسى عن أهمية العصا في حياته في تلبية أغراض خاصة له ، فقد أجاب موسى على السؤال كالآتي :

(قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى)(٩) .

ولا بأس أن نذكر هنا الى أن العصا كانت تستخدم كأداة للتوكؤ في حالة المشي أو الاعياء او القفز من جانب موسى ، كما كانت تستعمل للضرب بها على أوراق

http://kotob.has.it/

الأشجار لكي تسقط ، فترعاها الغنم ، بالإضافة الى أهداف أخرى ، ربما يكون بعضها دفاعيا ، وبعضها الآخر معيشيا . بيد أنه بعد أن تنبه موسى عن أمر ماهية عصاه ووظائفها من خلال اجابته ، فقد أمره الله تعالى بطرحها :

(قال القها يا موسى)(١٠) .

وهنا ألقى موسى عصاه كما أمر . ففوجىء بحدوث أمر جلل ! فقد تحولت العصا الى ثعبان أو حيّة عظيمة تمشي بسرعة فائقة ، وتلتهم أو تبلع كل ما في طريقها من صخر وشجر :

(فألقاها فإذا هي حية تسعى)(١١) .

ولكن كيف كان رد فعل موسى في تلك اللحظة الرهيبة ، وهو يرى بعينه أن عصاه التي تصنف «كجماد» ، وهي تتحول الى كائن حي مدمر؟ لقد كان من الطبيعي أن يصاب بالخوف ! بيد أن الرحمة السماوية أدركته رأسا حين أمره الله تعالى بما يلي :

(قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى)(١٢) .

فهنا فوجىء بشيء آخر ، وهو عودة العصا الى ما كانت عليه في السابق ! إن ذلك يعني بالواقع سلب الحياة من كائن حي بتحوله ثانية الى جماد . ويجمل بنا أن نبين هنا الى أن هذه المعجزة كانت كافية لاثبات قدرة الله تعالى على خلق الاشياء واماتتها ، وبعثها امام موسى .كما كانت في ذات الوقت كافية للتأكيد له بأن القوة الحقيقية تكمن بيد الله تعالى . ففي الحقيقة ، فإن العصا كأداة يصنعها الانسان ،تفيده في اطار محدود ، ولكن عملها الفعلي لم يأت الا عن طريق «المعجزة» . وفي هذا تهيئة لموسى للقيام بمهمته كنبي بقوة دون وجل أو خشية من أحد .

ومهما يكن ، فلم تقف المفاجئات في القصة عند هذا الحد . فقد مضت الاحداث للكشف عن مفاجئة أخرى في الحوار الذي أخذ مكانا بين الله تعالى موسى وفي الوادي المقدس طوى . فقد أمر الله تعالى موسى بعد المعجزة الاولى لعمل ما يلي :

(واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية اخرى)(١٣) .

وتعقيبا على هذه الآية يقول سيد قطب :

http://kotob.has.it/

ووضع موسى يده تحت ابطه . . والسياق يختار الابط والذراع صورة الجناح لما فيها من رفرفة وطلاقة وخفة في هذا الموقف المجنح الطليق من ربقة الارض وثقلة الجسم لتخرج بيضاء لا عن مرض أو آفة . ولكن : «آية أخرى» مع آية العصا . «لنريك من آياتنا الكبرى» فتشهد وقوعها بنفسك تحت بصرك وحسك . فتطمئن للنهوض بالتبعة الكبرى . . . (١٤) .

ويجب أن نضيف هنا الى أن التحول المؤقت الذي جرى بالنسبة ليد موسى من خلال المعجزة يعني التلطف الالهي في اعطاء موسى القوة والحصانة اللازمة في مواجهته لصعاب مستقبلية مرتقبة ، وخصوصاً أنه انتدب لوضع حد لطغيان فرعون وبغيه :

(اذهب الى فرعون إنه طغى)(١٥) .

هذا ، وبانتداب موسى لتلك المهمة في الوادي المقدس ، واذ بهذا النبي الكريم يتوجه بتوسلات الى الله كي يعينه على تحقيق الهدف . وتوسلاته تلك اشتملت عدة نواحي اولها شرح الصدر . فموسى قد طلب من ربه لإن يملأ صدره بنور الايمان والحق . وهذا شيء هام لأن الايمان العظيم الثابت يحصنه بقوة الارادة ، والتضحية من أجل الواجب ، والصبر على الشدائد . ففي مواجهة طاغية مثل فرعون ، فهذه صفات متطلبة ليتمكن هذا النبي من الثبات في وجهه دون كلل او ملل حتى تحقيق النصر . هذا ومن التضرع لشرح الصدر ، انتقل موسى للتوسل لتيسير الامور له ، كما ورد في قوله الكريم :

(قال رب اشرح لي صدري ويسرّ لي أمري)(١٦) .

إن مهمة موسى كانت صعبة في طبيعتها . فقد كان عليه أن يجابه حاكماً ، مستكبراً ، قاسياً ، محباً للدنيا وجاهها وزخرفها ، وحريصاً على الحفاظ على سلطانه بكل ثمن . وفي تلك المجابهة ، فلا بد وإن كان موسى يتوقع تدبير مكائد وحيل ضده من قبل فرعون لكي يثنيه عن مهمته او يضعفه وينقض عليه . ومن هنا ، فقد توسل لله تعالى لكي يسهل له الامور ، ويؤازره ، وهو يعلم ، بحكم ما رأى من معجزات أمامه ، أن القوة الالهية غالبة وقاهرة للظلم والطغيان .

http://kotob.has.it/

إن تيسير المهمة لموسى كان يتطلب تدعيما له من الناحية الفكرية ، اذ أن القدرة على اقناع الغير بأي مسألة دينية ، أو غيرها كان يستوجب براعة في الكلام ، وطلاقة في اللسان ، ومن هنا ، تابع توسلاته قائلاً :

(وأحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي)(١٧) .

وعند هذه النقطة ، طلب موسى من الله تعالى أن يعينه بمعين من اهله ، مخصصا أخاه هارون ، الذي عرف بفصاحة لسانه وطلاقته ، أي أنه طلب أن يُشرك هارون معه النبوة وتبليغ الرسالة ، مؤكدا بأن التعاون بينهما سيكون قائما على أسس روحية لالتماس القوة والعون من السماء . وتلك الاسس تتركز حول الصلاة الكثيرة لله تعالى ، وتقديم الحمد والثناء على نعمه . فهو العالم الخبير بأحوال عباده . هذا ، وقد أعطي موسى كل ما سأل عنه ، كما ورد في قوله الكريم :

(واجعل لي وزيرا من أهلي . هارون أخي . أشدد به ازري . واشركه في امري . كي نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى . ولقد مننا عليك مرة أخرى)(١٨) .

حتى الآن ، لقد تحدثنا عن مسألة اختبار موسى للنبوة في الوادي المقدّس «طوى» ، والمبادىء الأساسية التي ذكره الله تعالى بها في يوم تكليمه ، ثم انتقلنا الى الحديث عن تكليفه للوقوف في وجه طغيان فرعون ، ومده بالعون السماوي العظيم للقيام بالمهمة التي عهدت اليه على أكمل وجه . هذا وفي التركيز على كل هذه القضايا الهامة بينّا بأن النبي «إنسان» كباقي أبناء البشر ، بيد أنه يختلف عنهم من حيث «المنزلة» أو«المكانة الروحية» . فالنبي يتلقى الوحي لكي يبلغه الى الناس بقصد هدايتهم نحو طريق الحق . وعليه ، فمعرفته تتفوق على الباقين ، لأنها من عند الله عزّ وجلّ ، ومن هنا فالتكريم الأعظم بالمعرفة جاء للأنبياء على أساس تلقيهم للوحي الأول المصدر الأول للمعرفة . وطالما أننا نتحدث عن موضوع المعرفة الالهية فيما يختص بقصة موسى في مرحلة من حياته ، فلا بأس أن نستطرد في هذا الموضوع هنا ، ولكن من زاوية أخرى . وهذه هي زاوية «الالهام» التي سلطت الأضواء عليها في

http://kotob.has.it/

«قصة موسى مع الرجل الصالح» التي حدثت في فترة ما من حياته بعد النبوة يصعب تحديدها ، بالرغم من وجود اجتهادات في هذا الصدد . والالهام بالمفهوم الروحي ، نور يُلقيه الله تعالى في قلب الانسان الصادق في إيمانه متى يشاء ، ويُشكل المصدر الثاني للمعرفة بالنسبة للنظرية الإسلامية .

وتجدر الاشارة هنا الى أن العلم الذي تلقاه الرجل الصالح من عند الله تعالى هو «العلم الباطن» . وهذا العلم يعني الاحاطة بأسرار وقضايا خفية ، عرفها الرجل الصالح ، بقصد محْق الظلم الذي أخذ شكلا خفيا هنا وهناك . ولكن موسى لم يعرفها بالرغم من نبوته . والذي يؤكد ذلك أنه أتى لتلقي علم الباطن من الرجل الصالح بوحي من الله تعالى . وهذا أمر هام ، ويعني بدوره بأن معرفة الأنبياء والرسل تشمل الوحي ، وبعض ما يُفاض عليهم من أمور الهامية ، ربما تدور حول تفسير الوحي وغيره ، ولكن بالرغم من ذلك ، فهنالك معارف الهامية أخرى يفيض بها الله تعالى على عباده المؤمنين في شتى الأزمنة والأمكنة ، والرجل الصالح قد يقف كرمز لتلك الفئة الصالحة . ولا بأس أن نُقدم صورة مختصرة عن «قصة موسى والرجل الصالح» هنا على اساس أهميتها في حياة هذا النبي الكريم من حيث غرس قدرة أكبر في نفسه على «الصبر» و«ضبط الإنفعالات» .

إن محور القصة يدور حول الحديث عن ثلاثة أعمال غامضة قام بها الرجل الصالح ، أضجرت موسى ، لأنها منكرة في ظاهرها ، وموسى كنبي لم يستطع أن يصبر على أمر ظن أنه مُنكر بحكم ظاهره . أما العمل الأول ، فتجسد في خرق الرجل الصالح لسفينة ركبها هو وموسى ، والثاني تمثل في قتل الرجل الصالح لغلام بتعمد كما يرى بعض العلماء . . . أمر بعث على غضب موسى واستنكاره ، لأن الغلام كان بريئا في نظره . أما بالنسبة للعمل الثالث ، فقد تجسد في اقامة جدار موشك على الوقوع في قرية من قبل الرجل الصالح . وقد فعل ذلك بالرغم من عدم استضافته هو وموسى ـ وهما جائعان ـ من قبل أهل تلك القرية . وهذا الأمر بعث على تذمر موسى للمرة الثالثة ، لأنه اعتقد بأن اقامة الجدار تطلب أجرا ، ينفعهما لشراء الطعام في وقت حاجته . (راجع آية ٧١ ـ ٧٧ من سورة الكهف) .

http://kotob.has.it/

هذا ، وفيما يختص بتفسير الأحداث الثلاثة الغامضة ، فقد أوردت القصة ما يلي : أولا ، إن غرق السفينة جاء من أجل انقاذها من السطو عليها بالقوة من قبل ملك ظالم اعتاد على مثل هذه الاعمال . فالضرر الصغير الذي ألحقه الرجل الصالح بالسفينة عمدا ، كان يهدف الى ابقائها بيد أصحابها المحتاجين ، لأن الملك لم يكن يرغب في أخذ سفينة بعيب فيها . ثانياً ، أما بشأن الغلام الذي قتله الرجل الصالح ، فقد كان يهدف الى الحفاظ على والديه المؤمنين . فالغلام كان كافراً وضالاً ومصدر شر بناء على ذلك . . . فشره قد يتجسد مثلا في عقوقه بوالديه ، ومن ثم في اثارة جو من الحزن في حياتهم . أو يتجسد في الانجراف في حب الولد بحكم الأبوة ، ومن ثم الارتداد عن الدين بسببه . وعليه ولدفع شره قُتل ، فقد أراد الله تعالى انزال الرحمة بوالديه ، وذلك بالانعام عليهما بولد افضل منه روحيا وخُلقيا . ثالثا ، وفيما يختص بأمر اقامة الجدار ، فقد كان بقصد الحفاظ على كنز لغلامين يتيمين لاب كان قد تميز بصلاحه وتقواه . فلو ترك الجدار للانهيار ، لكشف الكنز ، ولضاع بذلك حق هذين اليتيمين «راجع آية ٧٩- ٨٢ من صورة الكهف) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن قصة موسى مع الرجل الصالح تدعو الى التفكير في الكون وفي مشيئة الله تعالى به . فالانسان يعيش في عالم مليء بالأحداث اليومية التي تشمل الفرد والعائلة والمجتمع ككل . وقد تتخذ بعض الاحداث طابعا سريا مقصورا في معرفته على أصحابه . على أن الحكايات المذكورة في قصة الرجل الصالح مع موسى تأخذ اطارا سريا أو شخصيا في طابعه بدليل أن الشخصيات غير معرفة ، ولا يذكر من صفاتها الا القليل النادر ، ويترك الباقي للذهن الانساني للتأمل . وهذا يعني بدوره أن تلك الحكايات تُشكل أمثلة بارزة ، ربما يحدث المئات مثلها على الساحة البشرية . فكثير من الأحداث العائلية التي تتشابك احيانا مع مطامع الكثيرين تأخذ مكانا هنا وهناك . إن الاحداث الثلاثة في قصة الرجل الصالح تأخذ طابعا عائليا في جوهرها ، ولكن بَعضها تشابك مع مطامع الحاكم ، وبعضها كاد أن يتشابك مع مطامع الكثيرين من أهل قرية عُرف أهلها بالبخل وعدم المروءة ، كما يُستنتج من جو القصة ككل . لقد كاد أصحاب السفينة المساكين ، وهم أخوة ، أن يفقدوا مصدر رزقهم (السفينة) من قبل ملك ظالم كان يتقصد السطو على السفن الصالحة التي

http://kotob.has.it/

يمتلكها الغير . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان هنالك خطراً نفسياً وروحياً على والدي الغلام الضال . وفي الوقت نفسه ، فقد تعرض يتيمان لخطر سلب الكنز والتشرد بسبب انهيار الجدار . ولكن الله تعالى الذي كتب الرحمة على نفسه ، قد وهب لهم ، وللوالدين المؤمنين ، وللاخوة أصحاب السفينة ، الأمان والسلام بواسطة المعرفة التي افاض بها على الرجل الصالح . وهذا يبين لكل انسان مؤمن بأنه يجب أن يطمئن من ناحية عدم ضياع حق له ، لأن الله تعالى يعلم ما تخفي الانفس ، وما تكتمه الضمائر . كما أن هذا يُبين بالمقابل ، بأن على كل انسان ضال ، ظالم أن يعلم بأن ما يفعله لإيذاء قريب أو بعيد ، معلوم لدى الله عز وجل الذي لا يعجزه شيء في السماء ولا في الارض .

هذا من ناحية ، أما من ناحية أخرى ، فإن قصة الرجل الصالح مع موسى تؤكد بجلاء بأن الله يسمع كل شيء ، ويرى كل شيء ويعلم بكل شيء ، ويحاسب عليه :

(. . . لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين)(١٩) .

إن العلم «اللامحدود» صفة لا تنسب إلا الى الله تعالى وحده ، وهذ العلم يضع حدا فاصلا بين الالوهية والبشرية . فالنبي ، كما ذكرنا سابقا ، يتلقى الوحي من الله تعالى ، ويخضع لتعاليمه خضوعا كليا كإنسان تابع لواجب الوجود . ولا بد وأن في ذلك تذكير لاتباع موسى ، ولاتباع من جاء بعده من رسل ، بأن العبادة لا تجوز إلا الى الله تعالى وحده . وفي هذا تأكيد لمبدأ الوحدانية ، كالمبدأ الأول الأساسي في كل الاديان السماوية .

ويبقى ان نضيف أخيرا بأنه طالما أن قصة موسى مع الرجل الصالح قد ركزت على موضوع العلم الالهي اللامحدود ، وأثره في تثبيت مبدأ الوحدانية ، فلا بد وأن القصة بدورها قد ذكرت موسى نفسه بضرورة التواضع كانسان يتلقى العلم من الله تعالى وحده . ولا بأس أن نذكر ، عند هذه النقطة ، بأن ابي بن كعب قد ذكر استنادا الى حديث للرسول(ﷺ) بأن الوحي لموسى للذهاب للرجل الصالح لاكتساب المعرفة منه ، جاء للسبب الآتي المبين في الفقرة التالية :

http://kotob.has.it/

حدثنا ابي كعب ـ رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: «إن موسى قام خطيبا في بني اسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال أنا فعتب الله عليه اذ لم يرد العلم اليه، فأوحى الله اليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى: يا رب وكيف لي به؟ قال تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتمل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . . .»(٢٠)

هذه هي قصة موسى مع الرجل الصالح التي أوردناها في هذا الفصل بقصد اعطاء صورة وافية عن حياة موسى الشخصية وعلمه، بالاضافة لأمور أخرى، ذكرت سابقاً. ولكن، وبوصولنا الى هذا الحد، فسوف ننتقل للتركيز على فترة قادمة حاسمة من حياة هذا النبي الكريم، كما يظهر ذلك جليا في الفصل القادم.

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٩ ، ١٠ طه ٢٠ .

٢ ـ ١١ ، ١٢ طه ٢٠ .

٣ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ص ٢٣٣٠ ـ ٢٣٣١ .

٤ ـ ١٣ طه ٢٠ .

٥ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ص ٢٣٣١ .

٦ ـ ١٤ ، ١٥ ، ١٦ طه ٢٠ .

٧ ـ ومن الجدير بالذكر هنا بأن العلاقة بين موضوع الوحدانية والمسؤولية الفردية قد تركز البحث عليه في كل القصص السابقة لاهميته القصوى في المجال الروحي .

٨ ـ ١٧ طه ٢٠ .

٩ ـ ١٨ طه ٢٠ .

١٠ ـ ١٩ طه ٢٠ .

١١ ـ ٢٠ طه ٢٠ .

١٢ ـ ٢١ طه ٢٠ .

١٣ ـ ٢٢ طه ٢٠ .

١٤ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٣٣ .

١٥ ـ ٢٤ طه ٢٠ .

http://kotob.has.it/

١٦ـ ٢٥ ، ٢٦ ، طه ٢٠ .

١٧ ـ ٢٧ ، ٢٨ طه ٢٠ .

١٨ـ ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ طه ٢٠ .

١٩ـ ٣ سبأ ٣٤ .

٢٠ ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص, ٢٢٧٨

http://kotob.has.it/

الفصل الثامن

الوحدانية والمعجزات ومصير فرعون

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

أ ـ الوحدانية

وبعد الحديث عن مرحلة إصطفاء موسى للنبوة ، تمضي القصة القرآنية الآن للتركيز على دوره في التبليغ والانذار لفرعون ، الذي فاق ظلمه كل حد ؛ فأصبح بحاجة الى تذكير بمقداره وامكاناته كبشر . إن فرعون هذا قد نسب «التأليه» لذاته وحاول فرض ذلك بالقوة . والتأليه بالمفهوم الفرعوني يعني وضع الذات الانسانية في مكان فوق الحدود المقررة لها دون حق . وبهذا الاطار فهو مرتبط بالاستكبار ، والاستكبار بدوره مرتبط بالجحود والجبروت ، والقسوة . إن عقل فرعون ومنطقه لم يكفه ليدرك بأن الله تعالى هو الملك الحق الذي يهيمن على كل شيء في الكون . ومن هنا ، اعطى لنفسه الحق لفعل ما يشاء ، وفي أي وقت يشاء متحديا بذلك دعوة موسى الى وجوب التقوى وتقديم الطاعة لرب العالمين . وتحديه هذا يظهر من توجيهه للسؤال الآتي الى موسى (وما ربّ العالمين) . سؤال جاء رده من قبل هذا النبي في ثلاث مراحل تناول من خلالها مسألة خلق الكون ، وأجل الانسان الذي لا يعدوه ، بحكم سنن الكون التي لا تحويل لها ولا تبديل :

(قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات
والارض وما بينهما إن كنتم موقنين)(١) .

بالواقع ، أن الطريقة التي طرح بها فرعون سؤاله تشير الى سخرية هذا الحاكم المتغطرس من مبدأ الوحدانية والمبلغ لها . وهذه سخرية مبنية على الاستكبار المصطحب بالجهل وحب الذات ، والسعي وراء المنفعة . فالانسان المستكبر الجاهل يسخر عادة من الحقائق التي تكشف عن ضحالته وزيفه امام الآخرين ، وتتعارض مع مصالحه وتطلعاته . ولكن جواب موسى ، في مرحلته الآولى ، جاء ليدعو فرعون ومن معه ، للتوجه بحكم العقل الى التفكير ، والنظر في الكون الفسيح الذي لا يمكن للانسان ادراك حدوده . إن الله تعالى هو خالق هذا الكون وكل ما فيه ، وقد زود الانسان بالعقل ليدرك بديع صنعه ويسبح بحمده ، ويسعى للخير بأمره . وبهذا قرر

http://kotob.has.it/

موسى حقيقة كبرى في الدين وهي أن خلق الكون امر لا ينسب الا الى الله وعلمه وقدرته ، مبينا لفرعون وخاصته ، بأنهم ككل ما في الكون ، يخضعون لخالقه ، رب العالمين ، مؤكداً لهم بذلك محدودية مكانتهم كبشر . على أن رد موسى بهذا الاطار قد وضع فرعون الآن في موقف حرج ، ظهر من خلاله بأن سخرية هذا الحاكم من مبدأ تقديم الطاعة لرب العالمين واهية ، بل وإن اثرها عكسي عليه . إن الانسان الذي يسخر من الحق يُسخَرُ منه ، مع الفارق في نوعية السخرية فالسخرية الثانية ضارية لأنها تقوم على علم ومعرفة وأزاء هذا الوضع ، واذ بفرعون يتجه الآن نحو الملأ لمخاطبتهم كالآتي :

(قال لمن حوله ألا تستمعون)(٢) .

هذا كلام لم يمكنه عقله من ادراك أو تفهم النقطة التي أبرزها موسى امامه . فاتجه لاثارة ضغينة الملأ ضده . وهذا اسلوب متبع عادة من قبل اي انسان او فئة مستكبرة فالعجز عن النقاش البناء يقود امثال هؤلاء الى التوجه لشن هجوم شخصي على الطرف الآخر . فكأن فرعون هنا يقول للملأ ، ما هذا الكلام الذي يتفوه به موسى؟ على أن موسى لم يأبه لموقف فرعون هذا ، بل مضى في خطوة سريعة ثانية ، لتزويد فرعون ومن معه بمعلومات اكثر مختصة بسؤال (وما رب العالمين) كما ورد في الآية التالية :

(قال ربكم ورب آبائكم الاولين)(٣) .

إن رب العالمين هو رب فرعون وآله والناس أجمعين . هذا هو الحق ، هذا ما يتفق مع سنن الكون . ولكل انسان أجل مسمى ، لا يستقدم ولا يستأخر فيه . والموت خاتمة الجميع . بالواقع أن موسى قد ركز هنا على مبدأ ديني هام : مبدأ ازلية الله تعالى مقابل امر الفناء الذي يخضع له جميع أبناء البشرية ، فكأن موسى كان يقول ضمنياً للملأ ، بأن فرعون الذي كانوا يهابونه ويخضعون لارادته ، ما هو إلا إنسان فان كأجدادهم من قبل على أن كل ما يفنى لا يمكن الا أن يكون تابعاً لخالق الكون الذي لا يُعبد إلا هو وبهذا المنهج العقلاني ، فقد ابرز موسى امامهم الحد الفاصل بين الالوهية والبشرية ، مؤكداً حقيقة فرعون كانسان وواضعاً اياه في مكانته الصحيحة . وبذلك ثارث ضغينة

http://kotob.has.it/

فرعون ضده ، فتوجه الآن نحو شن هجوم شخصي عليه ، كما يتجلى في قوله الكريم :

(قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون)[٤] .

إن فرعون كان يحاول في قوله هذا يشكك بقوى موسى العقلية بقصد نفي صدق دعواه بوجوب الالتزام بالوحدانية .وهذا قول ورد مراراً من قبل على لسان المستكبرين من اقوام مندثرة نحو انبيائهم ، كلام باطل زائف كان يهدف الى تدعيم موقف متضعضع . على أن موسى لم يكترث لاتهام فرعون هذا له ، فمضى سريعاً ، في مرحلة ثالثة ، لاكمال إجابته عن سؤال فرعون المذكور أعلاه (وما رب العالمين) . . حيث اخبره بما يلي :

(قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون)[٥] .

إن رب العالمين المتحكم بمصير الانسان ، متحكم أيضاً بالطبيعة وكل شيء آخر . فالظواهر الطبيعة من مشرق ومغرب تخضع للإرادة الالهية . وتجدر الاشارة هنا أن الشروق يمثل بدء النهار ، والغروب يمثل خاتمته . وهذه الظواهر ملاحظة من كل انسان لأنه يتعايش معها . فالشروق مرتبط بالعمل ، والغروب مرتبط بالراحة . اذن ، فحركة النور والظلام بكل ما يتبعها من عمل وراحة بيد الله تعالى . إن رد موسى على فرعون ، في مرحلته الثالثة يبين أن الكون يسير بموجب سنن ثابتة يجب على الانسان أن يفكر فيها ، ويتأملها ، لأن التفكير هو الطريق للايمان بالوحدانية . على أن الايمان بالوحدانية هو السبيل الصحيح لعدم قبول أية فكرة او دعوة لتأليه اي انسان من ابناء البشر . وبهذا المنطق ، دحض موسى فكرة تأليه فرعون لذاته . وهنا ، طار صواب فرعون ، فوجه اليه تهديداً بسجنه اذا أصر على موقفه برفض فكرة تأليه لنفسه ، كما ورد في قوله الكريم :

(قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين)[٦] .

بيد أن هذا التهديد الذي يستخدمه الطغاة عادة للحفاظ على مراكزهم ومصالحهم لم يجزع موسى فوجه السؤال الآتي الى فرعون :

(قال اَوَلَوْ جئتك بشيء مبين)[٧] .

http://kotob.has.it/

من الواضح أن موسى كان يريد نقل فرعون من مواقف محرجة إلى مواقف أكثر حرجاً . فبعد أن تأكد أن فرعون قد رفض براهينه التي أحضرها عن الوحدانية في الاطار النظري العقلاني ، اتجه الآن الى الاطار العملي ، اطار المعجزات . فوجه لفرعون السؤال الاتي : ترى لو احضرتُ لك دليلاً قاطعاً على صدق رسالتي ، فهل ستمضي في تنفيذ وعيدك ضدي؟ وهنا كان لابد لفرعون من الموافقة ، لأن عدم موافقته سوف تكشف بشكل عملي وجلي عن تضعضع في منهج تفكيره ، في وقت كان يدعي فيه بأن موسى «مجنون» ، كما ذكر سابقاً :

(قال فأت به إن كنت من الصادقين)(٨) .

وبالوصول الى هذا الحد ، فقد اتجه موسى للكشف عن معجزتين أمام فرعون والملأ . «والمعجزة» كتعبير تعني خارقة يفيض الله تعالى بها على أنبيائه ، لكي يثبت للكافرين والمستكبرين أمثال فرعون وملته ، بأن الله تعالى الذي انزل القوانين للانسان قادر على تخطيها ، والاتيان بأشياء لا يدركها العقل البشري لأنها فوق قدراته وامكاناته .

ب ـ معجزات موسى

ولكن بالتركيز الآن على معجزات موسى ،فالسياق القرآني يبين بأن المعجزة الأولى تتمثل في تحول عصا موسى الى ثعبان او حية عظيمة ظاهرة للعيان ، كما جاء في قوله الكريم :

(فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين)(٩) .

فالمعجزة هنا تكمن في تحويل الجماد الى ثعبان دبت فيه الحياة . على أن بعث الحياة في الجماد امر لا ينسب الا الى الله تعالى وحده ، خالق الكون ومن فيه . وهذا بدوره يشكل برهاناً قاطعاً على قدرة الله تعالى لفعل اي امر . وفي هذا انذار لفرعون ، وتذكير له بضرورة الكف عن طغيانه الديني والاجتماعي والسياسي . فلا يظن بأن الامور تبقى على ما هي للسير في صالحه وصالح خاصته . فكما تغيرت العصا وتحولت لشيء حي بقدرة الله عز وجل ، فإن الاحوال في بلده يمكن أن تتغير أيضاً بتلك القدرة العظيمة ، وتأخذ منحى جديداً ، تفتح من خلاله صفحة تاريخية

http://kotob.has.it/

قائمة على أسس ومبادىء دينية مركزة على الايمان بالوحدانية والبعث .

أما المعجزة الثانية فتتمثل في احداث تغير في لون يد موسى عندما وضعها في جيبه أو تحت إبطه ، وأخرجها من هناك :

(ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين)[10] .

إن يد موسى المائلة الى السمرة من حيث التكوين قد تحولت الى يد شديدة البياض من غير سوء ، أي من غير مرض كالبرص مثلاً ، إن هذه المعجزة تحمل انذاراً وتذكيراً ثانياً لفرعون بالقدرة الالهية على تبديل الاحوال . إن تحول لون يد موسى الى البياض المشع بالنور ، يعني اكتساب تلك اليد لقوة عظيمة يستطيع هذا النبي الكريم من خلالها العمل لتبديد الظلام والباطل واستبدالهما بالضياء والحق .

وتجدر الاشارة هنا الى أن فرعون لم يستوعب معاني وابعاد هاتين المعجزتين على ما يبدو . فسيطرة فكرة التأليه على خاطره ، قد منعته من رؤية الامور في منظارها الصحيح . ومن هنا ، فبدلاً من التوجه بنفسه الى تقديم الطاعة الى الله تعالى ، رب العالمين ، سارع لشن هجوم شخصي آخر على موسى أملاً في تشويه صورته امام الملأ ، وبالتالي في إثارة ضغينتهم ضده ، كما ورد في قوله الكريم :

(قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن
يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا
أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين ،يأتوك بكل
سحار عليم)[11] .

لقد وصف فرعون موسى هنا بأنه «ساحر عليم» في حين أنه كان قد وصفه بأنه «مجنون» في السابق . ان كلمة «عليم» هنا تحمل طابعاً سلبياً ، لأنها ترمي الى التشكيك بنوايا ومقاصد موسى نحو الملأ ويؤكد ذلك استطراد فرعون لاتهام هذا النبي الكريم بنيّته لإخراجهم من ارضهم بسحره . وبالوصول الى هذا الحد ، استشار فرعون الملأ بشأن ما يمكن فعله تجاه موسى . فأشاروا عليه بضرورة التمهل قبل اتخاذ اي قرار ضد موسى واخيه هارون ، مخبرين اياه بوجوب ارسال رجال من أعوانه الى مدائن الصعيد لكي يجمعوا اليه كل من فيها من السحرة والمهرة والحاذقين بصناعة السحر .

http://kotob.has.it/

وذلك بقصد اقامة «مباراة» في السحر بينهم وبين موسى بحضور جموع غفيرة من الناس . وفعلاً جمع الحشد ، ودخلت القصة القرآنية الآن في طور نقل الاحداث التي جرت وقت المباراة وقبلها . فقبل بدء تلك المباراة دار الحوار التالي بين فرعون والسحرة :

(وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال وإنكم لمن المقربين)(١٢) .

لقد كشف السحرة عن رغبتهم في الحصول على اجر من فرعون اذ تمكنوا من احراز النصر ـ الذي كان يتطلع اليه هذا الحاكم ـ على موسى . وطلبهم هذا لقي استجابة رحبة من جانب فرعون . وبهذا قام اتفاق بين الطرفين على أساس المصلحة التي تكمن في تلبية حاجات السحرة في الحصول على الثراء والجاه الدنيوي مقابل تدعيم سلطان فرعون القائم على فكرة التأليه . فالاتفاق اذن ، معتمد على اسس مادية نفعية بحتة . على أنه من هذا الاتفاق ، تنتقل القصة الآن لتسلط الاضواء على الاحداث التي جرت بين موسى والسحرة في المباراة الكبرى المقررة . فهؤلاء السحرة الذين حصلوا على تأييد كلي من فرعون ، شعروا الآن أنهم في مركز قوة . وهذا دفع بهم الى الغرور والتحدي . وتجدر الاشارة هنا الى أنه بالرغم من أن القصة تبين أن السحرة أعطوا الخيار لموسى للبدء في القاء العصي اذا اراد ، أو البدء أنفسهم في تحقيق المهمة ؛ الا أن الطريقة التي خاطبوه بها تنم ، بشكل أو آخر ، عن غطرسة وتعجرف :

(قالوا يا موسى إما أن تُلقي واما أن نكون نحن الملقين)(١٣) .

على أن موسى لم يكترث الى لهجتهم المتسمة بالتحدي والغرور الأجوف ، فأشار عليهم بالبدء في القاء العصي . وموقفه هذا حكيم ، وربما كان يعود الى النقاط الآتية . أولاً ، أن موسى كنبي يوحى اليه ، كان يعلم بأن السحر شيء باطل ولا قيمة له بواقع الامر . ثانياً ، بناء على تدعيمه بالمعجزات الالهية التي تكشف عن اثنتين منها أمام فرعون وخاصته ، كما ذكرنا سابقاً ، كان على يقين بأن السحر لابد وأن يهوي امام المعجزات . ومهما يكن ، فقد مضت القصة الآن لتكشف عن مشهد الرماية كما جاء من جانب السحرة . والمشهد من الناحية القصصية مثير ومليء بالحركية ، التي تجلت من زاويتين متشابكتين : اولهما ، حركية القاء العصي والحبال بشكل فني رائع

http://kotob.has.it/

اخاذ ، كما وصف كالآتي «في كتاب مجموعة من التفاسير» :

ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات ملأت الوادي وركب بعضها بعضاً(١٤) .

ثانيهما ، الحركية المتجسدة في تأثير مشهد الالقاء هذا على النفوس البشرية . فقد سحرت العيون ، وأدخلت الرهبة الى النفوس ، كما ورد في قوله الكريم :

(قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)(١٥) .

وعند هذه النقطة من التأجج للمشاعر الانسانية ، إذ بالوحي ينزل على موسى لكي يشرع في القاء عصاه ، التي عندما ألقاها تحولت الى حية عظيمة ، ابتلعت كل ما أتى به السحرة من سحر ، أي أنها التقفت كل حبالهم وعصيهم ، الواحدة تلو الاخرى . وبذلك بينت بطلان سحرهم . فسحرهم قائم على الحيل ، والفن في الالقاء والعرض . فما ظنه المشاهدون بأنه حقيقة ، لم يكن بالواقع الا وهماً ! فالعصي والحبال التي بدت كالحيات لم تكن كذلك . . . اذ أن الحية الحقيقة نتجت عن التحول في عصا موسى بالمعجزة الالهية ، كما ورد في قوله الكريم :

(وأوحينا الى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون)(١٦) .

اذن ، فالبدء بعرض ما عند السحرة اولاً ، ثم القيام بمعجزة موسى ثانياً شكل عاملاً أساساً في الكشف عن حقيقة السحر والمشتغلين به . وهنا تكمن حكمة ثالثة في قرار موسى لاعطاء أولوية الرماية للسحرة . فقد وقع الحق ، وزهق الباطل ، وغُلب السحرة ، وانقلبوا مذمومين مدحورين :

(فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين)(١٧) .

ويجمل بنا أن نذكر هنا بأن المباراة بين السحرة وموسى ابرزت بشكل جلي قوة الله تعالى في التحكم بكل شيء في الكون . إن مشهد القاء العصي والحبال من جانب

http://kotob.has.it/

السحرة يرمز الى القوة الدنيوية كما هي متمثلة في دولة فرعون . وقد تجلت تلك القوة من خلال عدة زوايا ، أولها ، أن السحر كان يحتل اهمية بالغة في مجال المعرفة زمن الفراعنة ، والطب في ذلك الوقت كان له ارتباط بالسحر . ثانيهما ، قوة النزال ، فالعصي التي كانت تصنع بطريقة فنية دقيقة ، كما يستنتج من طريقة العرض للعصي والحبال ، لابد وأنها كانت تستخدم لغايات دفاعية . وبهذا الاطار ، يكون فرعون قد استعرض نواحي هامة اشتهرت بها دولته ، في المبارة التي وقعت بين موسى وبين سحرته . لقد حشد فرعون هنا الكثير من الامكانيات والطاقات البشرية املاً في ارهاب موسى ، والحاق هزيمة ساحقة به . ولكن النتيجة كانت عكسية بالنسبة له ولخاصته . فالمعجزة الالهية أبرزت ضعفهم . ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه المباراة تعطي دروساً وعبراً للامم ورؤسائها في كل زمان ومكان . فمهما اعتز رؤساء الدول القوية بما توصلوا اليه ـ كل حسب عصره ـ ؛ ومهما حشدوا من طاقات وامكانيات لمحاربة الفئات القليلة المؤمنة ، فلن يعود عليهم ذلك الا بالخسران ، كما كان الحال مع فرعون . إن كل ادوات هذا الحاكم من عصي وحبال ، التي ملأت الوادي بشكلها التراكمي ، قد التهمت بلحظات من قبل عصا موسى عندما تحولت الى حية عظيمة . إن كل ما يتوصل اليه الانسان ويعتز به ، يدمر في لحظات ، اذا استخدم هذا الانسان ادواته وفنونه للظلم والعبث بالقوانين الالهية ، والموازين .

إن هذه الحقيقة قد أدركت من جانب سحرة فرعون كما تظهر القصة القرآنية . فهؤلاء ايقنوا ، بما لديهم من معرفة في مجال السحر ، بأن ما حدث عند القاء موسى للعصا ليس بسحر . فالأمر ، في نظرهم ، لا يقع تحت القدرات الانسانية . فلو كان صنيع موسى سحراً لما ابتلعت حبالهم وعصيهم الواحدة تلو الاخرى . فنفاذها وتلاشيها في عصا موسى ، دون تمكنهم من فعل شيء في هذا الصدد ، أكد لهم بأن ما حصل هو أمر من السماء ، وبرهان على قدرة الله تعالى العظيمة وعلمه اللامحدود . ومن هذا المنطلق ، فقد رموا بفرعون عرض الحائط ، وخروا سجوداً لله تعالى ، واعلنوا ايمانهم برب العالمين ، رب موسى وهارون ، كما ورد في قوله الكريم :

(وألقي السحرة ساجدين .قالوا آمنا بر

http://kotob.has.it/

العالمين رب موسى وهارون)(١٨) .

وبهذا ضرب السحرة سهما في قلب فرعون ، لأن دخولهم في طاعة الله تعالى يعني بواقع الامر تخليهم عن تدعيم لفكرة تأليه فرعون ، الذي كان قد وصف نفسه بكل تطاول ، وغطرسة ، وغرور «بالرب الاعلى» ، كما يتجلى من الآية التالية :

(فقال أنا ربكم الأعلى)(١٩) .

على أنه بوضع نفسه بتلك المنزلة ، فقد اعلن فرعون عن استنكاره لتصديق السحرة بدين موسى ، وخصوصاً أنهم فعلوا ذلك قبل اخذ اذن منه ، كما ورد في الآية التالية :

(قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن
هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوامنها
أهلها فسوف تعلمون)(٢٠) .

إن القصة تظهر هنا بأن طاغية كفرعون تبنى ثلاث وسائل عدائية في معركته مع السحرة المنشقين عنه : أولها ، التنديد بهم لرفضهم الخضوع لارادته ومن ثم اللجوء الى نسج تهم ضدهم ثانيها ، توجيه تهديدات لهم بانزال العقاب بهم . ثالثها ، تنفيذ تلك التهديدات . فبعد استنكاره لدخول السحرة في طاعة الله عز وجل ، اتهم فرعون هؤلاء بتواطؤ مسبق مع موسى . فادعى بأن تصديقهم بدين موسى جاء على اثر مكيدة كانوا قد نسجوا خيوطها مع هذا النبي في المدينة لاخراج اهلها منها . ومن هذا المنطلق ، توعدهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، اي قطع احدى اليدين واحدى الرجلين (اليد اليمنى والرجل اليسرى) لأي شخص معني بالأمر مثلاً ، ثم هددهم بالصلب :

(لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين)(٢١) .

ومن الجدير بالذكر هنا أن القصة القرآنية تكشف عن الوسائل التعسفية التي يتبعها الطغاة في محاولاتهم للقضاء على أية معارضة لحكمهم . وتلك الوسائل تتجلى كالآتي : تلفيق تهم ضد معارضيهم ثم توجيه تهديدات صارمة لهم بالاضافة الى تنفيذ تلك التهديدات في مرحلة ثالثة . وفرعون يمثل نموذجاً في هذا الصدد .

http://kotob.has.it/

وبهذا يسلط القرآن الاضواء المكثفة على مساوىء الحكم الفردي الاستبدادي . فهذا النوع من الحكم لا يقيم وزنا للحقوق ولا للمشاعر ولا للكرامة الانسانية . لأنه يقوم على القهر للمحكومين . ولكن بالعودة الآن الى السحرة ، وتهديد فرعون لهم ، فهل أرهبهم وعيده بقطع الايدي والارجل ثم الصلب ، ام أن ايمانهم زودهم بالحصانة اللازمة لعدم خوفهم منه ، في الواقع ، أن ايمان هؤلاء قد حال دون خوفهم من هذا الطاغية الذي ردوا على تهديداته لهم كالآتي :

(قالوا إنا الى ربنا منقلبون)(٢٢) .

فهؤلاء السحرة قد أخبروا فرعون بأن الحكم عليهم ، وعليه في الوقت نفسه ، امر بيد الله تعالى الذي يحاسب الجميع بعدل مطلق . وعند هذه النقطة ، اخبروا فرعون بأنهم ليس لهم من ذنب يعذبهم عليه . ومن ثم تضرعوا الى الله تعالى لكي ينعم عليهم ويكرمهم بالصبر العظيم على تهديد فرعون لهم ، كما توسلوا اليه تعالى لكي يتوفاهم مسلمين ، كما ورد في قوله الكريم :

(وما تنقم منا الا أن آمنا بايات ربنا لما جاءتنا
ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)(٢٣) .

إن هذه الآية تبين مدى حاجة الانسان الى الفيض عليه بالصبر عندما يتعرض للانتقام من قبل اي طاغية بسبب عقيدته . فالصبر ، الذي يتطلب قوة ارادة وعزيمة ، هو الطريق الى السعادة الأبدية . والانسان الذي يتذرع بالصبر يتحلى عادة بالقوة المعنوية والشجاعة ، ولا يهاب ارهاباً . وهذ امر انطبق على السحرة وقتئذ . ويبدو أن صمود السحرة في هذا الاطار قد اثار الآن خوف الملأ على فرعون ، فمصيرهم مرتبط به ، وزواله يعني زوالهم . وعليه ، انطلاقاً من الحرص على مصالحهم ، فقد طلبوا من فرعون ان يسارع الى ضبط الامور كما كانت في السابق . يقول تعالى :

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا
في الارض ويذرك وآلهتك قال سنقتل ابناءهم
ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)(٢٤) .

هذا ، وفي شرح للجزء الاول من الآية الكريمة ، يقول سيد قطب :

http://kotob.has.it/

فالإفساد في الارض ـ من وجهة نظرهم ـ هو الدعوة الى ربوبية الله وحده ؛ حيث يترتب عليها تلقائيا بطلان شرعية حكم فرعون ونظامه كله . إذ أن هذا النظام قائم على اساس حاكمية فرعون بأمره ـ أو بتعبير مرادف على اساس ربوبية فرعون لقومه ـ واذن فهو بزعمهم ـ الإفساد في الارض ، بقلب نظام الحكم ، وتغيير الاوضاع القائمة على ربوبية البشر للبشر ، وإنشاء وضع آخر مخالف تماماً لهذه الاوضاع ، الربوبية فيه لله لا للبشر ، ومن ثم قرنوا الإفساد في الارض بترك موسى وقومه لفرعون ولآلهته التي يعبدها هو وقومه (٢٥) .

في الواقع ، أن كلمات الملأ قد أثارت مخاوف فرعون على ملكه وسلطانه . فأظهر تصميماً على عدم التهاون معهم ، وذلك بالاعلان عن عزمه لقتل أبناء بني إسرائيل صغاراً ، واستخدام نسائه كباراً . وهذا شيء قد فعله سابقاً في ابان مولد موسى . هذا ، ولإبقاء صورته القديمة في قدرته على إذلالهم والبطش بهم ، قال للملأ (وإنا فوقهم قاهرون) ، وبعد ذلك ، تمضي القصة لتبين ضمنياً بأن فرعون قد مضى فعلاً في تنفيذ تهديده ووعيده بقتل الأطفال واستحياء النساء من بني إسرائيل ، في الوقت الذي احتمل فيه هؤلاء العذاب وصبروا على الابتلاء ، إلى أن أخذ الله تعالى فرعون وأتباعه بعاقبة استكبارهم وظلمهم . ولكن قبل دمارهم الأخير ، فقد وجهت إليهم إنذارات إلهية علهم يعودوا إلى رشدهم ويؤمنوا بعد ضلال وتيه . ومن هذه الانذارات حدوث الجدب وما تبعه من نقص من الثمرات كما ورد في قوله الكريم :

(ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون)(٢٦) .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن مثل هذا الانذار قد وجه إلى عاد سابقاً أي قبل فرعون وقومه بغية التفكير والتأمل بقدرة الله تعالى ، والدخول في طاعته قبل فوات الأوان . ولكن فرعون وآله فشلوا في إدراك الرابطة بين الجدب والغضب الالهي ، كما كان

http://kotob.has.it/

الحال مع المستكبرين من قبيلة عاد ، على أنه بسبب قصر نظر فرعون وأتباعه فقد مضوا في استكبارهم وغيهم وطغيانهم الروحي ، والأخلاقي ، والاجتماعي ، والسياسي . بيد أن الله تعالى ، بقدرته العظيمة ، وجه لهم إنذارات أخر فيما بعد . فأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، كما ورد في قوله الكريم :

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل
والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا
وكانوا قوماً مجرمين)(٢٧) .

على أنهم من منطلق ضغط الكوارث أو المصائب التي ألمت بهم ، طلبوا من موسى أن يتضرع ويتوسل إلى الله تعالى لكي ينقذهم من مصائبهم تلك ، ووعدوه بأن يرسلوا معه بني إسرائيل إذا تمت عملية الانقاذ . ولكن ما أن كشف الله تعالى عنهم الرجز حتى نقضوا عهدهم إلى ما كانوا عليه من غطرسة وتيه قبل العذاب ، كما ورد في قوله الكريم :

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا
ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجس
لنؤمنن لك ولنرسلنّ معك بني إسرائيل ، فلما
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم
ينكثون)(٢٨) .

جـ مصير فرعون

وكنتيجة لطغيانهم وتيههم وتحديهم ونكثهم للعهود وتكذيبهم المتواصل للرسالة الالهية التي انزلت على موسى ، فقد أغرقوا باليم ؛ كما ورد في قوله الكريم :

(فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا
بآياتنا وكانوا عنها غافلين)(٢٩) .

هذا ، وفي سورة «يونس» ، تبين القصة القرآنية بأن فرعون قد أعلن اسلامه في اللحظات الاخيرة من حياته فما أن احاط به خطر الموت من كل جانب ، واذ به يقول بأنه آمن بأن لا اله إلا الله الذي أمنت به بنو اسرائيل ، كما ورد في قوله الكريم :

http://kotob.has.it/

(وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى اذا ادركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين)(٣٠) .

ولكن بما أن توبته تلك جاءت في وقت لا ينفع فيه ندم ولا توبة على ما فات ، فقد نجى الله تعالى فرعون ببدنه ، أي أنه لم يدع جسده يذهب مع التيار المائي او يؤكل من قبل الكائنات البحرية . وذلك للاتعاظ ، والتذكر بأن الهلاك هو المصير الحتمي لكل من يتصدى لقوة الله تعالى ويستخف برسالته ، ويستكبر ، ويعلو ويطغى في الارض بغير حق ، يقول جل جلاله :

(فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون)(٣١) .

وعند هذه النقطة ، يجب أن نبين بأن الآيات المذكورة اعلاه تضع خطوطا رئيسية بشأن المفهوم الديني لمبدأ «الرحمة» . إن الرحمة الالهية موجودة دائماً ، وشاملة بعلم وحكمة . فالانسان الذي اعطى حرية الاختيار لابد وأن يخطىء ، ومن هنا ، يزود بفرص للتوبة والغفران . ولكن اذا أصر هذا الانسان على كفره وطغيانه وفجوره وتحديه للمثل والفضائل الدينية ، وجاء ليعلن توبته في ساعة الخطر الاخيرة من حياته ، كما كان الحال مع فرعون في لحظات غرقه ، فلن تقبل توبته . فهذه احدى سنن الكون التي يجب أن يدركها الانسان حتى يتجنب مصيراً سيئاً مثل مصير فرعون . فالقواعد الدينية المقررة في رسالة موسى قواعد سامية تشمل الى جانب موضوع الرحمة الالهية ، موضوع الوحدانية ، خلق الكون ، صفات الله تعالى ، وحرية الاختيار . كما أن تلك القواعد الروحية تشمل موضوع السعادة . فالقصة تبين بأن السعادة ليست بالاستكثار من المال ، بل بالإيمان بالله تعالى . وهذا امر ادركه السحرة في الوقت الصحيح .

المفهوم الفرعوني في الحكم

حتى الآن لقد تحدثنا عن حياة موسى قبل النبوة وبعدها حين كلف بالوقوف في

http://kotob.has.it/

وجه فرعون ودعوته للتأليه ؛ وبينا تحدي فرعون لموسى أملاً في الابقاء على سلطته بكل ثمن . هذا ، وأن الحديث عن تحدي فرعون لرسالة موسى وللمعجزات الالهية التي قام بها هذا النبي الكريم ، يقودنا الآن للتحدث عن «صفات» فرعون ، والقاء الضوء على «مفهومه في الحكم» . وأول ما يجب تقريره هنا هو أن فرعون يمثل نموذجاً من صنف من الحكام الذين يتكرر وجودهم على الساحة البشرية . فهو يقف كرمز الى الحاكم المستبد المغرور انطلاقاً من ضيق افقه وعدم قدرته على رؤية الامور في منظارها الصحيح . كما أنه في الوقت ذاته يشكل مثلاً للحاكم الاناني الذي قادته انانيته الى السعي وراء السيطرة المطلقة دون ادنى اكتراث للقيم الروحية والاخلاقية والانسانية . وتذكر القصة القرآنية ظاهرة تأليهه لنفسه ومحاولته لفرض كل ذلك بالقوة على شعبه وكسب التأييد لهذه الظاهرة من قبل الملأ او الخاصة بالاضافة الى الجهلة الاغبياء . وظاهر أن العظمة التي كان يشعر بها من جراء الطاعة العمياء له من قبل الكثيرين دفعت به الى العمل على الحفاظ على مكانته وسلطانه بكل وسيلة . ومن هنا ، تحدى المعجزات الالهية الرامية الى الاقناع بمبدأ الوحدانية . وكان من اثر ذلك أن حشر السحرة لموسى ، وادعى بأنه «الرب الاعلى» . ثم مضى ليتصرف بمنتهى الحمق والغباء عندما فشل في المباراة التي اعدها لهذا النبي الكريم كما بينا سابقاً فزاد طغيانه بالفئة المستضعفة ، الى أن جاءته ساعة العقاب .

فالمفهوم الفرعوني في الحكم كما ورد في قصة موسى مع فرعون يركز على السلطات الواسعة التي كان يمتلكها فرد مستبد . إن تأليه فرعون لنفسه ومحاولته لفرض ذلك بالقوة ، يشير الى أن هذا الحاكم كان صانعاً للقانون ومنفذاً له ، على أن ذلك يعني ، بالمصطلح الحديث ، بأن فرعون كان يمتلك السلطات التشريعية والتنفيذية في يده . فالقرارات كلها تنفذ بارادته ، مع أنه كان محاطاً بالملأ أو الفئة الخاصة . وما ورد في القصة عن الملأ ، يبين بأن تلك الفئة كانت تتصف بولائها الكبير لفرعون . بل أن طلباته كانت توجه بشكل اوامر لهم ، كما يتجلى من الامر التالي الصادر عن فرعون الى وزيره هامان :

﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلُغ
الاسباب ، أسباب السموات فأطلع الى إله

http://kotob.has.it/

موسى وإني لأظنه كاذباً وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب)(٣٢) .

لقد وجه فرعون هنا أمراً الى هامان لبناء صرح له ، ربما يوصله الى طرق السموات والاطلاع الى اله موسى على حسب ادعائه . وبالواقع فهذا يحمل تمويهاً من جانب فرعون . فعلى اثر الهزة التي تلقاها من موسى حين نفى الوهيته (اي فرعون) نظرياً وعملياً بالدليل والبرهان ، فقد اراد هذا الحاكم اثبات العكس امام اعوانه . فكما يبدو ، أن الصرح في نظره يرمز الى القوة والحصانة والمنعة ، امر دفع به للظن بأن بناءه يضعه في مركز علوي يرى الناس من خلاله عظمته وابهته . على أن ذلك شكل وسيلة ، في ظنه ، لتثبيت وتدعيم قوائم ملكه . ومن خلال هذا ، يبدو جلياً بأن فرعون كان يلجأ الى المكائد والحيل للحفاظ على سلطانه .

ولكن القارىء قد يرى ، من ناحية ثانية ، بأن فرعون كان يلجأ في مناسبات اخرى ، الى حيل مختلفة في اسلوبها عن المكيدة المبينة أعلاه . ففرعون الذي كان قد توجه «بصيغة الامر» الى وزيره هامان لكي يبني له الصرح بهدف تكذيب دعوة موسى بالوحدانية ، اتجه في مناسبة ثانية نحو«الملأ» بكل«لطف» و«تواضع» . لكي يستشيرهم بشأن ما يمكن فعله ضد موسى بعد رؤيته «لمعجزة العصا» و«اليد البيضاء» . فادعى بأن موسى ساحر عليهم يريد اخراجهم من أرضهم ، طالباً أمرهم ومشورتهم ازاء هذا الوضع :

(قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون)(٣٣) .

ومن الجدير بالذكر هنا بأن فرعون كحاكم ألّه نفسه ، وحاول فرض ذلك بالقوة كان لا يمكن أن يلجأ الى مبدأ «الشورى» في الحكم ، وأن يستخدم تعبيراً مثل تعبير(فماذا تأمرون) إلا لهدف ما ! فاللطف والاعتبار للآخرين بمثل هذه الصيغة امر بعيد جداً عن طبيعته المتغطرسة المتطاولة ! وعليه ، فاللجوء الى الشورى من جانبه أمر طارىء ، ويخضع للاحداث المتعاقبة والظروف الطارئة التي احاطت به وأذهلته بالرغم من اصراره على التحدي والكفر . فاذا تقرر هذا ، فلجوء فرعون للشورى

http://kotob.has.it/

يمكن أن ينظر اليه كحيلة أو اداة مؤقتة لتثبيت حكمه المهتز . بيد أنه يجب القول بأن مصير هذا النوع من الشورى لا يمكن أن تقوم على المنفعة الشخصية ، لأنها يجب أن تقوم على تبادل الآراء بين الحاكم واهل الحكمة والرأي ، على أساس خدمة المجتمع والدولة ككل . ومهما يكن من امر ، فإن رجوع فرعون للملأ أو الخاصة في وقت اهتزاز في حكمه ، قد دفع بهؤلاء الى الشعور بتقارب اكبر بينهم وبين فرعون ، على أن تخوفهم على مصالحهم قد زاد من هذا التقارب . فمصالح هؤلاء مرتبطة بوجود فرعون كحاكم . وفي الواقع فهذه ظاهرة طبيعية لما يختص بنوع الحكم الاستبدادي المشابه لنوعية حكم فرعون . ويكفي لإثبات حرص الملأ على مصالحهم ، حثهم لفرعون لضرورة البطش بموسى وقومه ، على أساس الادعاء بالافساد في الارض :

(وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه
ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك)(٣٤) .

والافساد في نظرهم ، هو رفض موسى وأتباعه لفكرة تأليه فرعون لذاته ، لأن دعوة موسى للوحدانية تقتضي الغاء تلك الفكرة الغاء تاماً ، هذا ، وبما أن الملأ قد تطرقوا الى نقطة حساسة جداً بالنسبة لفرعون ؛ فقد وجه تهديداً بالعودة الى قتل أبناء بني اسرائيل واستحياء نسائهم . والقصة كما ذكرنا سابقاً تظهر بأن فرعون كان يعمد في وقت ما الى تلك الوسائل في البطش المتمثل في قتل الاطفال من ابناء بني اسرائيل وقت مولدهم ، مع استعباد نسائهم للخدمة كباراً ، كما ورد في قوله الكريم :

(إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف
طائفة منهم يُذبِّح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من
المفسدين)(٣٥) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن للبطش اساليب عدة . ومع أنها كلها فتاكة ،لأنها تشير الى عدم الاكتراث لمبدأ حقوق الانسان ؛ الا أن اشدها عنفاً يتمثل في قتل الاطفال الابرياء . إن قتل الاطفال من الذكور يرمي بواقع الامر الى الحد من تكاثر الرجال بهدف اضعاف قوة الفئة المستضعفة المعارضة للحكم ، ومن جانب آخر فإن اللجوء الى استخدام النساء الكبار للخدمة يعني الحاق الذل بفئة تحتاج الى الرعاية والحماية . فالمرأة المسنة بحكم وهنها وضعفها جديرة بالرحمة والرأفة بدل اجبارها على القيام

http://kotob.has.it/

بالاعمال الشاقة ، التي لا تتناسب مع طاقاتها الجسدية . ومن آيات رحمته ، جل جلاله ، أنه يحث الانسان في رسالته السماوية على وجوب احترام حقوق الضعفاء بما في ذلك الاطفال والنساء . إن فرعون بكفره اذن ، قد رمى بعرض الحائط بالاحكام الالهية ، والفضائل الاخلاقية ، والمثل الاجتماعية ، دون ادراك ، بأن الله بالمرصاد لكل طاغية . إن الطغاة باستكبارهم وقصر نظرهم لا يحسبون حسابات للقوة الالهية . فبدلاً من ذلك ، يلجأون الى حسابات دنيوية يعتقدون أنها تعمل على حمايتهم . فمثلاً ، يعمدون لأخذ كل وسائل الحيطة والحذر عند بطشهم بالآخرين . وهنا تخطىء حساباتهم كما يبدو جلياً من الآيات القرآنية التالية :

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الارض ونُري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)(٣٦) .

يبدو واضحاً مما تقدم بأن الحكم الفرعوني كان حكماً قائماً على الظلم الذي اتخذ عدة اشكال . اولها ، الظلم الروحي المتمثل في التصدي للرسالة السماوية . ثانيهما ، الظلم الاجتماعي ـ السياسي الذي تجلى في تقسيم المجتمع السائد وقتئذ الى شيع أو فئات فضل بعضها ويُغضَ البعض الآخر من قبل اصحاب السلطة . هذا وأن القصة ركزت على اساليب كخصائص للحكم الاستبدادي على مدى العصور وحذرت من مغبة استخدامها . ثالثها ، الظلم الاخلاقي الذي تمثل في عدم الاحترام للمشاعر والكرامة الانسانية . باختصار فالحكم الفرعوني لم يأبه لمبدأ العدل أو المساواة ، ومن هنا ، فلم يكن مكان للإخاء والمودة ، والبر والرحمة في مثل هذا النظام . على ان كل مجتمع خال من هذه الفضائل الاخلاقية يسوده الاعتداء والإفساد ، والبغض والغدر . امور تؤدي بدورها الى تفكك المجتمع مع الوقت . وهذا ما حدث للمجتمع الفرعوني الذي واجه حاكمهم فرعون الخزي ، عندما اغرق مع اتباعه في اليم والخزي لهم لم يشمل الدنيا فقط ، بل امتد الى الآخرة ، كما ورد في قوله الكريم :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين الى

http://kotob.has.it/

فرعون وملته فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد . يُقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . واتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود)(٣٧) .

وما كان هذا المصير السيء لهؤلاء إلا عقاباً لهم ، وتذكيراً للعالمين بانتهاء دورة اخرى من دورات الظلم التي تعم اجزاء من الساحة البشرية بين آن وآخر . ومن هنا ، فالقصة تحمل دروساً وعبراً للانسانية في كل زمان ومكان .

ويجب أن نذكر اخيراً بأن قصة موسى مع فرعون وقومه التي ألقت الاضواء على المفهوم الفرعوني في الحكم تحمل في طياتها الخطوط الرئيسية لنوع الحكم المقبول على نطاق روحي . إن النظام الصحيح لا يجوز أن يقوم على الاستبداد والبطش بالمحكومين ؛ بل يجب أن يقوم على أسس من الاحترام للحقوق والواجبات لكل من الطرفين ؛ مع التذكر بأن الجميع سواسية امام الله تعالى . من هنا تتوثق العلاقات والروابط بين افراد المجتمع الواحد .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٢٣ ، ٢٤ الشعراء ٢٦ .

٢ ـ ٢٥ الشعراء ٢٦ .

٣ ـ ٢٦ الشعراء ٢٦ .

٤ ـ ٢٧ الشعراء ٢٦ .

٥ ـ ٢٨ الشعراء ٢٦ .

٦ ـ ٢٩ الشعراء ٢٦ .

٧ ـ ٣٠ الشعراء ٢٦ .

٨ ـ ٣١ الشعراء ٢٦ .

٩ ـ ٣٢ الشعراء ٢٦ .

١٠ ـ ٣٣ الشعراء ٢٦ .

١١ ـ ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، الشعراء ٢٦ .

١٢ ـ ١١٣ ، ١١٤ الاعراف ٧ .

١٣ ـ ١١٥ ، الاعراف ٧ .

١٤ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص, ٦١٣ .

١٥ ـ ١١٦ الاعراف ٧ .

١٦ ـ ١١٧ الاعراف ٧ .

١٧ ـ ١١٨, ١١٩ الاعراف ٧ .

http://kotob.has.it/

١٨ـ ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ الاعراف ٧ .

١٩ـ ٢٤ النازعات ٧٩ .

٢٠ـ ١٢٣ الاعراف ٧ .

٢١ـ ١٢٤ الاعراف ٧ .

٢٢ـ ١٢٥ الاعراف ٧ .

٢٣ـ ١٢٦ الاعراف ٧ .

٢٤ـ ١٢٧ الاعراف ٧ .

٢٥ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص, ١٣٥٤ .

٢٦ـ ١٣٠ الاعراف ٧ .

٢٧ـ ١٣٣ الاعراف ٧ .

٢٨ـ ١٣٤ ، ١٣٥ الاعراف ٧ .

٢٩ـ ١٣٦ الاعراف ٧ .

٣٠ـ ٩٠ يونس ١٠ .

٣١ـ ٩٢ يونس ١٠ .

٣٢ـ ٣٦ ، ٣٧ غافر ٤٠ .

٣٣ـ ٣٤ ، ٣٥ الشعراء ٢٦ .

٣٤ـ ١٢٧ الاعراف ٧ .

٣٥ـ ٤ القصص ٢٨ .

٣٦ـ ٥ ، ٦ القصص ٢٨ .

٣٧ـ ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ هود ١١ .

http://kotob.has.it/

الفصل التاسع

موسى وبنو اسرائيل

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

حتى الآن، لقد تحدثنا عن الجزء الأول من قصة موسى، وهو الجزء المتعلق بحياته، مع تركيز على العناية الالهية به منذ طفولته الى حين زواجه. كما تحدثنا أيضاً عن إصطفائه للنبوة والتكليم في الوادي المقدس طوى، حيث تلقى وحياً بالذهاب الى فرعون، للتصدي لطغيانه الذي اتخذ منحنيين رئيسيين: أولهما، تأليه لنفسه مع محاولة منه لفرض ذلك بالقوة. ثانيهما، بطشه ببني اسرائيل واذلاله لهم بسبب تمسكهم بمبدأ التوحيد الروحي. ومن ثمّ، انتقلنا للتركيز على الحوار الذي جرى بين موسى وفرعون فيما يختص بمبدأ «التوحيد»، ثم أوردنا شرحاً تفصيلياً للمعجزات التي قام بها موسى بالرعاية الالهية، وبينا أهمية تلك الخوارق في ضعضعة كيان فرعون بالرغم من اصراره على التكذيب والتحدي. ومن هنا، مضينا في محاولة لابراز صفات فرعون «كنموذج» لحاكم طالما وجد امثاله على الساحة البشرية، مبينين مفهومه في الحكم، كما سلطنا الاضواء في وقت سابق على المصير السيء لهذا الحاكم المستبد الذي اهلك باليم، فنال خزياً في الدنيا وفي الآخرة. على أنه قبل اظهار خزيه من جراء الغرق باليم بالقضاء الالهي، عمدنا الى التركيز على سلسلة من الاحداث التي جرّت له الخزي وهو لا يزال حاكماً، ولكن دون ادراك منه لذلك بسبب الغشاوة الموضوعة على عينيه!! وهذه الغشاوة كانت تعود في اساسها الى فقدان التوازن بين العقل والعاطفة لدى فرعون، ومن ثم تغلب الاهواء والنزعات لديه على المنطق والحكمة. فقد سيطرت عليه موجة من الانانية، وحب الاستئثار بالاشياء، والحرص على الجاه والسلطة، هذا وبتضافر تلك الصفات مع الاستكبار والغرور الذي طغى على نفسه، فقد أصبح عرضة للتقهقر الفكري، والتضعضع امام أي حوار بناء. ومن هنا، فقد اهتز امام موسى حين دعاه لضرورة الالتزام بالوحدانية.

إن حوار موسى مع فرعون في هذا الصدد، وضع الاخير في كفة خاسرة علمياً وأخلاقياً. فبينما تحدث موسى مع فرعون من منطلق عقلاني شمولي - في دعوته له للتوحيد - وجه فيه نظره لضرورة التأمل بعملية الخلق، والتنظيم والتناسق الكوني، وإذ بفرعون يرد عليه من خلال اطار ضيق في افقه، وموجه الى الهجوم الشخصي

http://kotob.has.it/

بدل الجدل البناء . ومن هنا ، فقد وضع نفسه أمام مقارنة حقيقية مع موسى . فمقابل علم موسى وحكمته وتبصره بحقائق الاشياء . فهناك جهل فرعون وغروره وغطرسته البالية . على أن جهله هذا زاد من حدة المعركة ضده ، وبهذا بدأ بالتهاوي التدريجي ، من نقطة الى نقطة اخرى ، ولكن دون استيعاب أو حتى إدراك منه لذلك . هذا ، وفي إحدى مراحل تهاويه تلك ، فَقَدَ فرعون صوابه ، ليعلن بأنه «الرب الأعلى» ، وليمضي من ثم بالاستزادة من بطشه ببني إسرائيل ، إلى أن أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر باليم ، وابقى على جسده حتى يكون عبرة لمن يعتبر . فإسم فرعون مقترن ، إذن ، بالخزي ليس فقط في زمانه ، بل في كل زمان ومكان .

على أنه بزوال فرعون وطغمته الفاسدة ، فقد طويت فترة تاريخية أخرى من الظلم البشري ، حيث طهرت البلاد من الضغائن ، والأحقاد ، والمفاسد التي قام بها هؤلاء ضد المستضعفين من الأطفال والنساء وغيرهم . ولكن هذا الوضع لم يدم طويلاً ، اذ أن الظلم ما لبث أن ظهر بأنماط وأشكال متعددة على الساحة البشرية بين أفراد من نجوا من فرعون ، وهم بنو اسرائيل . فما أن نجا هؤلاء من جبروت فرعون ، وبطشه ، بالمعجزة الآلهية بانشقاق البحر ، وما ان شعروا بالأنطلاق والتحرر منه ، حتى إجتاحة غالبيتهم موجة من التكبر ، والغرور ، والنزعة نحو الشر والمفسدة ، والجحود بالنعم الإلهية والتطاول على الحدود الروحية والاخلاقية ، فالحلقات المختصة ببني إسرائيل في سور البقرة ، المائدة ، الأعراف ، الاسراء ، طه ، والقصص ، تؤكد هذه الحقائق . ففي سور ة «الأعراف» مثلاً يفاجأ القارىء ببني إسرائيل وهم يطلبون من موسى ، أن يتخذ لهم وثناً لعبادته ، تأسياً بقوم وثنيين ، كانوا قد رأوهم بعد مجاوزتهم للبحر ، كما ورد في قوله تعالى :

(وجاوز نا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم
يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا
إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون)(١) .

إن طلبهم هذا يشير الى تطاولهم وعدم احترامهم لنبيهم الذي وقف طويلا معهم لتخليصهم من ظلم فرعون . كما أنه يشير الى تغيير جوهري في موقفهم نحو العقيدة ، وفي نظرتهم الى الاشياء . فهؤلاء كانوا قد وقفوا ضد فرعون تحت شعار

http://kotob.has.it/

«التوحيد» . . . ولكن ها هم الآن ، وفور وصولهم الى بر الأمان ، يرمون بالتوحيد عرض الحائط ، ويظهرون رغبة في الوثنية التي انصاع اليها فرعون وخاصته ، وكأن شيأ لم يكن ! . إن موقفهم الغريب هذا لم يشهد له التاريخ مثيلا ، وخصوصاً أنه حدث في فترة يفترض فيها أن يكون التأجج الروحي قد بلغ ذروته في نفوس الناجين ! ! كما أن غرابة موقفهم تتجلى في السرعة الفائقة في ارتداد عن الدين دون أي مبرر ! ! ولو أن كل المبررات مرفوضة في هذا الصدد . صحيح أن هنالك مثلاً «ردة» أخذت مكاناً في الجزيرة العربية بعد وفاة الرسول محمد (ﷺ) ، ولكن كانت هنالك أسباب لها ، ولو أنها غير مقبولة فهنالك أسباب سياسية ، وأسباب إجتماعية كانت تنصب حول رفض المرتدين لدفع الزكاة . وعليه ، فقد حاربهم الخليفة الاول ، أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، دون هوادة ، مثبتاً الاسلام بهذا العمل العظيم .

وتجدر الاشارة هنا أنه بسبب عدم وجود اسباب للردة المفاجئة لبني اسرائيل بعد نجاتهم ، فهذا يعني أن ردتهم تلك تعود ببساطة الى انحراف او التواء في تفكيرهم وقتئذ . فمن المركز عليه في كل الرسالات السماوية ، ابتداء من نوح ، بأن الانسان قد خُلِقَ لاداء مسؤولية التكليف ، ووهب له العقل لكي يقوم بتلك المسؤولية . فلو توجه بعقله نحو الخير ، وسيطر على اهوائه ونزعاته ، فسوف يثاب على ذلك . اما اذا اتجه بعقله نحو الشر ، وأرخى العنان لنفسه للتصرف دون ضوابط روحية وأخلاقية ، فسوف يعاقب على ذلك . اذن ، فالحساب يعتمد على اعمال الانسان التي تأتي كنتيجة للكيفية في توجيه التفكير الانساني . فلو ابقينا تلك المعلومات في ذهننا ، وعدنا ثانية الى «ردة» بني اسرائيل التي حدثت للتو بعد مجاوزتهم للبحر مع موسى ، نرى أن ذلك يعود الى توجههم بعقولهم نحو الشر والمفسدة ، بعد توجه سابق نحو الهدى : نحو الوحدانية . ولكن بما أن فترة الردة لديهم ، كما تظهر قصتهم مع موسى ، كانت متتابعة في حياة هذا النبي الكريم وبعده ، فهذا يعني أن توجههم التاريخي نحو الشر والعدوان ، يفوق توجههم نحو الخير والهدى ! ! وهذا بدوره يلقي الاضواء على «طبيعتهم» المتقلبة .

في هذا الفصل ، سنركز البحث على «ردة» بني اسرائيل في غيبة نبيهم موسى لتلقي الوحي في جبل الطور ، ونبين آثارها وابعادها في تطور نفسيتهم وشخصيتهم .

http://kotob.has.it/

عبادة بني اسرائيل للعجل المصنوع من الذهب

إن اماني بعض ابناء اسرائيل بعبادة الوثن ظلت عالقة في نفوسهم بعد رؤيتهم للقوم الذين عكفوا على عبادة الاوثان ، بالرغم من نهي موسى لهم من الاقدام على ذلك . فما أن ذهب هذا النبي الكريم الى جبل الطور لتلقي الالواح التي تتضمن المبادىء والقوانين التي سوف يقيم هؤلاء مجتمعهم الجديد بموجبها ، حتى انحازت فئة من القوم لعبادة عجل من ذهب صنعه السامري لهم . والسامري هو :

> رجل من «سامراء» كان يرافقهم أو أنه واحد
> منهم يحمل هذا اللقب(٢) .

هذا ، وقد تلقى موسى نبأ الردة تلك من الله تعالى حين اخبره بأنه سبحانه ، قد ابتلاهم بعبادة العجل بعد خروجه (اي موسى) من بينهم ، ووكّل هارون بأمرهم . والسامري هو الذي دعاهم الى عبادة العجل ، وصرفهم نحو الضلال :

> (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري)(٣) .

وهنا ينتقل السياق ليركز على شعور موسى بعد ذهابه الى قومه . فقد كان يموج بالغضب ويتفطر بالاسف على هذا العمل المنكر الصادر عن فئة من قومه . فهؤلاء قد جحدوا بالنعم الالهية . . جحدوا بأمان العيش الذي وفر لهم بعد انقاذهم من ظلم فرعون وبطشه . كما انهم لم يكترثوا في الوقت نفسه ، بوعد الله تعالى لهم ، بالانعام عليهم ، بالاحكام السماوية التي فيها هدى ونوراً وطمأنينة لهم . وهذا يشير الى استخفاف من جانبهم بوعد الله الحق ، وعدم التفريق بين ما هو نافع لهم وما هو ضار . وذلك نابع عن حمق وجهل تلك الفئة بحقائق الامور وجوهرها . فبعد ايمان «بالوحدانية» في عهد فرعون ، فهاهم لا يجتازون امتحاناً لابتلائهم ، في وقت لم يكن غياب موسى عنهم طويلاً ! وقد أثارت ردتهم المصطحبة بالقصر في العنصر الزمني دهشة موسى ، فتراة يوجه السؤال الاستنكاري الآتي لهم (أفطال عليكم العهد) . وقد أتبع سؤاله هذا بسؤال آخر موجها لهم : هل أردتم غضب الله تعالى عليكم من جراء عبادتكم للعجل؟ ونكثكم بالعهود؟ وسؤاله هذا يشير الى إتهام هؤلاء المرتدين بالتحدي المتعمد لدين الله تعالى . على أن كل تلك المعاني وردت في الآية الكريمة الآتية :

http://kotob.has.it/

(فرجع موسى الى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم
يعدكم ربكم وعداً حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن
يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفهم موعدي)(٤) .

وفي اجابتهم على هذه الاسئلة الاستنكارية من جانب موسى ، حاول المرتدون من قومه تبرير فعلتهم المنكرة بعبادة العجل . فادعوا بأن الامر كان فوق طاقتهم ! فهم والسامري مثلهم ، قد ألقوا ما كان لديهم من حلي القبط في النار . ولكنه صاغ لهم عجلاً صغيراً بلا روح ، وله صوت ، من هذا الذهب . فما كادوا يرون هذا العجل حتى نسوا ربهم الذي أفاض عليهم بنعمة الاستقرار والامان والرزق . وبكل جهل وغباء قالوا (هذا إلهكم وإله موسى فنسى) . فموسى بنظرهم ، قد نسي الهه هنا ، وذهب ليطلبه عند جبل الطور :

(قال ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً
من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامري ،
فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا
إلهكم وإله موسى فنسى)(٥) .

إن هذه الآية تبين عدم قدرة تلك الفئة المرتدة على مقاومة ماديات الدنيا ومتاعها . فعبادة العجل الذي صنعه السامري لهم ما هو بالحقيقة ، الا توجهاً نحو عبادة الذهب أو المال . فعالم الروح في مفهومهم هذا لا يهم ، طالما أن المادة او ما ترمز اليه من مال ، موجود أمامهم . فالتفضيل هنا لعالم المادة بكل بريقه ووهجه . على أنهم باتجاههم نحو هذا المنحى ، فقد فشلوا للارتقاء بأنفسهم نحو الاعلى وهبطوا بها الى الدرك الاسفل ! هذا من ناحية ، أما من جانب آخر ، فالآية تبين مدى استخفاف هؤلاء الجهلة بنبيهم العظيم موسى ، وبرسالته ، التي تدعو الى التوحيد ، كمبدأ جوهري فيها . . مبدأ التزموا به بدقة يوم كانوا أذلاء ، فقراء تحت حكم فرعون ، ولكنهم طرحوه جانباً حين رأوا العجل الذهبي ! وهذا يلقي الاضواء على نفسية الفئة المرتدة التي تنسى الفضائل الروحية عندما ترى بريق الذهب المتجسد مثلاً في العجل امامها . نفسية تنم عن قصور في التفكير ، وقصر في النظر . على أنه لهذا السبب ذكرهم الله تعالى بجهلهم الكبير ، موبخاً اياهم في الآية الكريمة التالية :

http://kotob.has.it/

(أفلا يرون ألا يرجع اليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً)(٦) .

اي أفلا يدركون بأن العجل لا يجيبهم اذا دعوه ، ولا يقدر على دفع الضرر عنهم ، ولا يجلب لهم النفع . فالعجل عاجز عن مخاطبتهم وضرهم ونفعهم ، ولو تفكروا بالامر !!

وعند هذه النقطة ، تنتقل الصورة قليلاً الى الوراء ، الى الوقت الذي كان فيه هارون مكلفاً بأمر بني اسرائيل اثناء غيبة موسى . فهذا هارون كان قد نصح المرتدين بالكف عن عبادة الصنم ، منبهاً اياهم الى أن هذا ابتلاء ، ومبيناً لهم في الوقت ذاته طريق الحق . فطريق الحق يكمن اولاً في عبادة الله تعالى وحده ، ثم في معرفة النبوة ، وطاعة امر الانبياء . وما أن تصل الاحداث الى هذا الحد حتى يبين السياق هارون وهو يوجه نظر المرتدين الى الكف عن طريق الباطل ، وتقديم التوبة لله تعالى ، الرحيم بعباده :

(ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري)(٧) .

على أن خطاب هارون هذا ونصائحه للمرتدين قوبلت بالاستزادة من اصرار هؤلاء على التحدي والجحود ! فقد أخبروه بأنهم سيقيموا على عبادة العجل الى حين عودة موسى . وهذا يعني رفضهم لحجة هارون بدعوى أنهم لن يرضوا الا بقول موسى لهم . وهذا الامر دفع هارون ، ومن معه من مؤمنين ، الى اعتزال من عبدوا العجل :

(قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى)(٨) .

إن هذه الآية تسلط الاضواء على عنصر المراوغة والاستهزاء والاستخفاف بالانبياء من جانب الفئة التي عبدت العجل من بني اسرائيل . ولكن هنا ، تعود الصورة ثانية الى موسى لتظهره وقد اشتد به الغضب بسبب مخالفة بني اسرائيل بوعدهم من الاقامة على دينه الى حين عودته هذا ، وفي غمرة غضبه ، واذ به يتجه الآن لهارون لمخاطبته كالآتي :

(قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري)(٩) .

http://kotob.has.it/

فموسى قد سأل هارون عن السبب الذي منعه من اتباع وصيته بمقاتلتهم حين عبدوا العجل ، وخصوصاً أن هارون كان يعلم بأنه كان موجوداً بينهم وقتئذ لقاتلهم على ضلالهم وكفرهم . فهل في ذلك مخالفة لامره؟ هذا ، وتحت وطأة انفعاله وفرط غضبه لله تعالى ، واذ بموسى يأخذ بشعر رأس أخيه ولحيته . ولكن هارون هنا يتمسك بهدوئه ، ويرد على أخيه من خلال نقطة حساسة لتثبيت أواصر الاخوة بينهما :

قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي . إني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي)(١٠) .

لقد امتنع هارون عن قتال هؤلاء المرتدين خوفاً من تقسيم بني اسرائيل الى احزاب يتقاتلون ، حيث أنه كان قد تلقى امراً من أخيه بالمحافظة على وحدة القوم ، ونفذه بالفعل . وبهذا الاطار ، أكد هارون لأخيه الالتزام بما كان قد طلبه منه بشأن الاصلاح في توليه للامور أثناء غيابه . وبعد هذا الحوار الذي تميز بالانفعال من جانب موسى ، وبالهدوء من جانب هارون في تبريره للموقف ، اتجه موسى بغضبه الى السامري ، رأس الفتنة ، على أن عدم توجهه له منذ البداية يعود الى ما يلي في نظر سيد قطب :

لأن القوم هم المسؤولون ألا يتبعوا كل ناعق ؛ وهارون هو المسؤول أن يحول بينهم وبين أتباعه اذا هموا بذلك وهو قائدهم المؤتمن عليهم . فأما السامري فذنبه يجيء متأخراً لأنه لم يفتنهم بالقوة ، ولم يضرب على عقولهم انما أغواهم فغووا ، وكانوا يملكون أن يثبتوا على هدى نبيهم الاول ونصح نبيهم الثاني . فالتبعة عليهم اولاً وعلى راعيهم بعد ذلك ، ثم على صاحب الفتنة والغواية أخيراً(١١) .

هذا ، وعند توجه موسى للسامري :

(قال فما خطبك يا سامري)(١٢)

http://kotob.has.it/

أي ما شأنك ، وما هو السبب الذي دفعك الى صنع عجل من ذهب ، قالها بإستنكار لفداحة الخطب ، ولكن السامري أجابه كالآتي :

(قال بصرتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي)(١٣) .

أي أنه ادعى بأنه فطن او علم أمراً لم يفطن اليه غيره من بني اسرائيل . ولكن تجدر الاشارة هنا الى أن ماهية هذا الامر غامضة : وكذلك ينطبق الحال بالنسبة للقبضة التي قال السامري عنها بأنه قبضها من أثر الرسول هذا ، يذكر سيد قطب هنا بأن الروايات المتعلقة بقول السامري هذا كثيرة ، على أن ما :

يتردد كثيراً في هذه الروايات أنه رأى جبريل ـ عليه السلام ـ وهو في صورته التي ينزل بها الى الارض . فقبض قبضة من تحت قدمه . او من تحت حافر فرسه ، فألقاها على عجل الذهب ، فكان له هذا الخوار ـ والقرآن لا يقرر هنا حقيقة ماحدث ، انما هو يحكي قول السامري مجرد حكاية(١٤) .

من الواضح أن السامري الذي تسبب في اغواء فئة من بني اسرائيل ، اتبع اسلوباً متميزاً بالمراوغة والكذب والتدجيل في رده على سؤال موسى . فقد حاول من خلاله أن يبرر عمله المنكر بوضع صبغة «روحية» عليه ، وذلك من أجل التملص والنجاة من الحاق عقاب به من قبل موسى ، ولكن السامري نسي أن أسلوبه هذا لا ينفع مع الانبياء ، بمعرفتهم الرفيعة ، التي تفوق معرفة غيرهم بحكم مكانتهم الروحية ، اذ أنه تلقى الرد الآتي من موسى :

(قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساسَ وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر الى إلهك الذي ظَلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسَفاً)(١٥) .

لقد حكم موسى على السامري «بالعزلة» بحيث لا يخالط احداً ولا يخالطه احد ، هذا بالنسبة للعقاب الدنيوي . أما بالنسبة للعقاب الإخروي ، فقد اخبره

http://kotob.has.it/

موسى بأنه سوف يوفي له يوم القيامة بكل تأكيد ، وبهذا يكون خزيه بالدنيا والآخرة معاً من جراء ضلاله وكفره واغوائه للغير بعبادة الوثن . على أن موسى اخبره هنا بأنه سوف يقوم بحرق ثم بنسف العجل الذي أقام على عبادته باليم نسفاً وهذا بدوره يرمز الى نسف الوثنية . واقرار التوحيد ، كالمبدأ الأول في رسالة موسى وفي كل الرسالات السماوية :

(انما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً)(١٦) .

إن الله تعالى هو وحده المستحق للعبادة والتعظيم ، فلا يماثله احد في علمه الذي يشمل كل ما في الوجود ، أما العجل ، فلا مكان له ، لأنه يصاغ ويحرق وينسف نسفاً . اذن ، فالقصة بدأت لتأكيد مبدأ الوحدانية حين ركزت على وقوف موسى بين يدي ربه لتلقي تكاليف الدين ، وعلمه وقتئذ بابتلاء قومه بالعجل ، ثم عودته لهؤلاء القوم واستطلاع الامر ـ ثم انتهت بحرق ونسف العجل الذهبي ، واقرار الوحدانية . فجو التوحيد وما يتبعه من توجيه لبني اسرائيل نحو عالم الروح ـ بدل التوجه والانبهار بعالم الذهب الفاني ـ هو الجو المسيطر على هذه القصة ، وفي ظل جو التوحيد تذكر القصة قسماً من ابناء اسرائيل بضرورة الشكر والاعتراف بالنعم الالهية ، وعدم الجحود بها من جهة ، كما تبين لهم بأن اساليبهم في المراوغة والالتواء مكشوفة لدى الله تعالى الذي يتسع علمه لكل شيء بالوجود من جهة اخرى . فالله تعالى يرصدكل أعمال الانسان الصغيرة والكبيرة منها ، ويحاسبه عليها ، ويحق الحق ، ويمحق الباطل . هذا ، وقد قدمت كل هذه المعاني الازلية من خلال اسلوب قصصي أخاذ يبعث على التأمل والتفكير بالطبيعة السريعة التقلب لفئة من ابناء البشر ، ثم توجه تلك الفئة نحو الضلال والمفسدة في وقت وفرت لها فيه كل سبل الحياة الكريمة ، على أن ذلك يؤكد بدوره اهمية تلك القصة في مجال علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والاخلاق .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ـ ١٣٨ الاعراف ٧ .

٢ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص٢٣٤٧ .

٣ـ ٨٥ طه ٢٠ .

٤ـ ٨٦ طه ٢٠ .

٥ـ ٨٧, ٨٨ طه ٢٠ .

٦ـ ٨٩ طه ٢٠ .

٧ـ ٩٠ طه ٢٠ .

٨ـ ٩١ طه ٢٠ .

٩ـ ٩٢ ، ٩٣ طه ٢٠ .

١٠ـ ٩٤ طه ٢٠ .

١١ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٤٨ .

١٢ـ ٩٥ طه ٢٠ .

١٣ـ ٩٦ طه ٢٠ .

١٤ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٣٤٩ .

١٥ـ ٩٧ طه ٢٠ .

١٦ـ ٩٨ طه ٢٠ .

http://kotob.has.it/

الفصل العاشر

بنو اسرائيل: حكايات متنوعة

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

١ـ الميقات ، الطعام ، الشراب

إن قصة بني إسرائيل مع العجل لم تنته عند نسف الصنم ، وعزل السامري عن المجتمع ، ولكنها امتدت ، في مرحلة ثانية ، لتشمل أحداث أخر ، إذ أن موسى قد أمر قومه بالتوبة ، واختار سبعين رجلاً من خيرة وشيوخ قومه ، وذهب بهم الى طور سيناء لميقات ، وقّته الله تعالى لتحقيق الهدف ، على أنه عند وصولهم الى مكان الميقات ، وإذ بالحكاية تفاجىء القارىء بتصرفات غير متوقعة من قبل هؤلاء الرجال الذين آتوا من أجل الاعتذار لله تعالى عن عبادة العجل ، فبدلاً من تنفيذ أمر التوبة ، وإذ بهم قد اتجهوا نحو المراوغة في مكان مقدس لا يسمح فيه لأي التواء أو انحراف . فالمشهد هنا يبين هؤلاء وقد قالوا لموسى بأنهم لن يصدقوا فيما جاءهم به من الفرائض في الالواح ، إلا عندما يروا الله جهرة . . قول يتسم حقاً بالتطاول الذي يتناقض مع مفهوم التوبة . ومن أجل ذلك ، فقد أخذتهم الرجفة ، كما ورد في قوله الكريم :

(واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما اخذتهم الرجفة قال ربّ لو شئت أهلكتهم من قبل واياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وانت خير الغافرين)(١) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن «التوبة» تعني «الندم» على فعل شيء لا يتوافق مع المثل والفضائل الدينية بعد ايمان ، والتراجع ، من ثم ، عن هذا الفعل بعد مراجعة للضمير ، ومحاسبة دقيقة للنفس ، وقيام بالعبادات اللازمة بالشكل الصحيح . فالانسان التائب يتوجه عادة لطلب الغفران من الله تعالى بروح نقية ، وقلب سليم خال من كل شائبة بيد أن مستلزمات التوبة تلك لم تكن موجودة عند من اتوا للاعتذار لله تعالى عن عبادة العجل ، والا لما طلبوا رؤية الله جهرة بقصد التصديق برسالة موسى ! فطلبهم هذا لا يدل فقط عن عدم وجود نية صحيحة للتفكير عن ذنب مرتكب ، بل يشير الى

http://kotob.has.it/

استكبار وغطرسة وعدم اكتراث للمبادىء والمثل الروحية والاخلاقية . فهؤلاء تناسوا الهدف الذي أتوا من أجله ، ومضوا لوضع شروط للتصديق ! اوبهذا وصلوا الى القمة في التحدي . على أن تحديهم هذا يتشابه ، بشكل أو بآخر ، مع تحدي فرعون الذي رأوا نهايته بأعينهم ، ولم يتعظوا . ففرعون كان قد طلب من وزيره هامان لكي يبني له صرحاً ليطلع الى الهه موسى كما بينا سابقاً . وها هم بعد وقت يطلبون من موسى رؤية الله جهرة . فكأن شخصية فرعون بتطاولها وتحديها تجسدت في هؤلاء وتأصلت في نفوسهم ، بالرغم من أن المتوقع كان هو العكس تماماً . على أن تطاولهم الروحي لم يكن ليذهب دون عقاب سريع ، إذ انهم قد أخذوا «بالرجفة» .والرجفة تعني الاضطراب الشديد الذي يهز كيان الانسان هزاً عنيفاً ، وقد يؤدي الى الهلاك وإستناداً الى هذا المعنى لهذه الكلمة ، فقد اختلف المفسرون في تفسير كيفية الرجفة التي حدثت لشيوخ بني اسرائيل . فبعضهم ظن بأن تلك الرجفة أدت الى موتهم ، ولكنهم بعثوا بعد ان استجاب الله تعالى لموسى ، بانزال الرحمة بهم . أما البعض الآخر ، فقد اعتقدوا بأن الرجفة كانت بمثابة اضطراب شديد سلط على هؤلاء الشيوخ بحيث هز كيانهم هزاً ، وقوض دعائمهم ، وأثار الهلع والفزع في قلوبهم ، ففقدوا كل قوتهم ، وأصبحوا كالاموات ، ولكنهم استعادوا قدرتهم على التحرك والعمل بعد أن أنعم الله تعالى عليهم برحمته استجابة لتضرع موسى له بعدم اهلاكهم . فالتفسير الاول لمعنى الرجفة يؤكد الموت «الحقيقي» لفئة متطاولة على الحدود الالهية ، بينما يتعرض التفسير الثاني لمعنى الرجفة ، وما تلاها من بعث ، من خلال إطار «مجازي» . وسواء أكان الموت ، وما تلاه من بعث ، أمراً حقيقياً أم مجازياً ، فالهدف هو تأكيد قدرة الله تعالى على فعل أي شيء . ومن هنا ، فالقصة توجه الانسان نحو ضرورة معرفة مكانته كمخلوق ضعيف تابع لواجب الوجود . فلا يتطاول على الحدود الدينية ، ولا يجحد بالنعم الآلهية ، حتى لا يعرض نفسه للعقاب بما قدمت يداه .

ومن حكاية الميقات التي أظهر فيها بنو اسرائيل جحوداً بالنعم الآلهية ، تنتقل «قصة موسى مع بني اسرائيل» لتتحدث عن حكايات أخرى ، وهم في التيه . وتتعلق تلك الحكايات بتوفير المياه ، والظل ، والطعام لهؤلاء في وقت من الحاجة الملحة . فعندما استسقى بنو اسرائيل موسى ، أمره الله تعالى أن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً . وهذا الرقم هام ، لأنه يتناسب مع عدد الجماعات التي

http://kotob.has.it/

تكون منها بنو إسرائيل وقتئذ . فقد كانوا ، بإذن الله ، ينقسمون الى اثنتي عشرة فئة تعود كل واحدة منها الى أحدٍ احفاد جدهم يعقوب ، وهو إسرائيل . على أن تزويدهم باثنتي عشرة عيناً يعني بدوره بأن الله تعالى قد خصص عين للشرب لكل جماعة منهم ، كما ورد في قوله الكريم :

(وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أسماً وأوحينا الى موسى إذ إستسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغمام)(٢) .

إن تخصيص كل عين لكل جماعة منهم يرمي الى عدم تعدي جماعة على جماعة أخرى منهم او بالاحرى ، فهو يهدف الى تذكير هؤلاء بضرورة المحافظة على الوحدة العضوية بين القوم ككل ، ولكن هل قدر القوم النعم الآلهية تلك؟ من الواضح ، أنهم كعادتهم منذ خروجهم من مصر ، لم يقدروا تلك النعم . إن القوم لم يدركوا أن انبثاق الينابيع لهم ، بعدد معين ، بضرب العصا من قبل موسى ، جاء من خلال معجزة الهية . كما أنهم لم يدركوا بأنه لولا تفجر الينابيع تلك ، لماتوا عطشاً . فاستمرارية حياتهم جاءت من خلال هذه المعجزة وغيرها من امثال تظليلهم بالغمام . فقد أرسل الله تعالى الغمام لوقايتهم من حرارة الشمس الملتهبة بالصحراء المكشوفة . أي أن الله تعالى قد سخر الطبيعة بأمر منه لحمايتهم من خطر المرض أو الموت . ولكن هؤلاء لم يفهموا أنهم كانوا ينعمون بمعجزات يتمناها الناس ؛ ولم يستوعبوا أهمية تلك المعجزات بالنسبة لوجودهم وكيانهم .

ومهما يكن ، فمن النعم الاخرى التي حظى بها بنو إسرائيل وهم في التيه ، «المن والسلوى» . والمن نوع من العسل البري . أما السلوى فهو طائر السماني . وقد أنزل المن والسلوى لاطعام هؤلاء بعد توفير الماء لهم :

(وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم)(٣) .

ولكن لمرة اخرى ، فلم يقدر بنو اسرائيل نعمة المن والسلوى . فالحكاية تفاجيء القاريء بهؤلاء ، وهم يطلبون من موسى لكي يدعو الله ليزودهم بالاطعمة التي كانوا قد تعودوا عليها اثناء الفترة الفرعونية في مصر ، مثل العدس والثوم والبصل والقثاء وغيرها ، كما ورد في الآية الكريمة :

http://kotob.has.it/

﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾(٤) .

وكما كان الحال مع نعم الماء والغمام ، فهؤلاء لم يدركوا بأن الله تعالى سخر لهم المن والسلوى بشكل خارقة . كما أنهم لم يقدروا أنه ، بناء على ذلك ، فقد حصلوا على ارقى أنواع الاطعمة الممكنة التي يتمناها كل انسان . فإن جهلهم بحقائق الامور ، وقلة قناعتهم وعدم قدرتهم على الثبات على حال واحدة ، قد دفعهم للطلب للعودة الى أطعمتهم السابقة . ويطلبهم هذا ، لم يشعروا بأنهم كانوا ينحدرون بأنفسهم نحو الاسفل . نحو عهود سابقة من الذل ، لم يتخلصوا منها الا بالارادة الالهية العظيمة . ولو كانوا متحصنين بالايمان الصحيح لما أقدموا على مثل هذا الطلب . فهم بالواقع أظهروا اتجاهاً نحو استبدال كل ما يرمز الى العلو الروحي والاخلاقي الى كل ما يرمز الى الهبوط والانحطاط . ففي الوقت الذي كانوا يعيشون فيه في عصر المعجزات بكل معنى الكلمة ، عبروا عن رغبتهم بالعودة الى عصر فرعون ، عصر الذل ، كما يتجلى من طلبهم في استبدال الطعام الراقي ، بالاطعمة الأدنى منه . على أن موقفهم هذا ينم عن عدم تقدير لما أنعمه الله تعالى عليهم في كل مجال : روحي ، سياسي ، اجتماعي أخلاقي ومادي . وبناء على جحودهم الغير معقول هذا ، بالاضافة الى أمور أخرى ، فقد غضب الله تعالى عليهم .

وتجدر الأشارة هنا أن «الشكر» كلمة ترمز الى تقدير الانسان للنعم الآلهية التي تفاض عليه . أما الجحود فهو على العكس من ذلك تماماً . على أن الشكر مرتبط بالتصديق ، بينما يرتبط الجحود بالتكذيب والكفر . فالانسان المؤمن يدرك النعم ، ويعرف قيمتها ، ويسعد بها ، ويدعو الله تعالى لكي يديمها عليه خوفاً من ضياع سعادته وأمنه . أما الانسان الضال ، فهو لا يدرك ، بقصر نظره بأن مصدر النعم هو الله تعالى . وعليه ، يظن ، بأن ما يراه من حوله من نعم ، في أي مجال ، ما هي الا مصادر

http://kotob.has.it/

أوجدتها الطبيعة له ، وبأن تلك النعم لا تفنى !! ومن هنا ، يمضي في أشواط من الغطرسة والغي دون أي وازع ضمير . وهذا ما فعله بنو إسرائيل بالرغم من وجود نبي بينهم يهديهم للحق ، ويبيّن لهم زيف تفكيرهم ، وتخطيهم للحدود الدينية . على أنهم بفعلهم هذا ، فقد ظلموا أنفسهم :

(وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(٥) .

إن هذه الآية تبين الموقف الديني نحو قضية الخير والشر . إن ما ينال الانسان من خير ، فهو من عند الله تعالى . أما ما يصيبه من مكروه ، فهو نتيجة أعماله الشريرة . فالله تعالى هو مصدر الخير كله ، أما الشر ، فمصدره الانسان الذي يتبع الوساوس الشيطانية بحكم حرية الاختيار التي يتمتع بها دون سائر المخلوقات . فهذه الحكاية إذن ، تلقي الاضواء على عدة قضايا دينية هامة : الوحدانية ، صفات الله تعالى ، حرية الاختيار ، ثم الحساب .

٢ ـ البقرة

ولو أن الحكايات المتعلقة بسقاية بني إسرائيل وإطعامهم قد ركزت على مواضيع أزلية هامة مثل الوحدانية ، المسؤولية الفردية ، الثواب والعقاب وغيرها ، فإن حكايتهم مع «البقرة» قد تناولت كل تلك المواضيع بالاضافة الى قضايا أزلية اخرى . فالقصة تلك تؤكد أن الله لا يعجزه أمر ، وتبين أن علمه لا يحده شيء . فلا مجال الى الاستخفاف منه في كبيرة أو صغيرة ، لأنه يرى ويسمع ويعلم ما تخفيه الضمائر ، وما تكتمه النفوس من أسرار . فلا يمكن ، من ثم ، إخفاء أي أمر عنه ، فهو قادر على كشفه للعيان بكل وسيلة ، في الوقت الذي يحدده بعلمه وحكمته الفائقة . إن أحداث تلك الحكاية ، التي تمثل جزءاً آخر من «قصة موسى مع بني اسرائيل ، أدت الى تمزق في مجتمعهم . فقد اختلف هؤلاء بشأن القاتل ، وعمد كل فريق منهم الى طرح التهمة عن نفسه ، ونسبتها الى فريق آخر ، ثم اتوا ، على اثر ذلك ، الى موسى لكي يفصل بينهم . ولكن الامر اشتبه عليه سبب دفعهم للطلب منه للدعاء الى الله تعالى ، لإظهار ما أشكل عليهم . على أنه عندما توجه موسى بالدعاء ، وإذ به ، تعالى ، يأمر بذبح بقرة ، وضرب جسد المقتول ببعضها حتى ينجلي الامر وتتكشف الحقيقة . هذا ،

http://kotob.has.it/

ويبتدىء السياق القرآني بالتركيز على محاورة بين موسى وقومه ، مصدرة بالآية الكريمة التالية :

(واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا اتتخذونا هزواً قال اعوذ بالله ان اكون من الجاهلين)(٦) .

إن هذا القول ، المعروف مضمونه لدى موسى ، كان غامضاً ، بالنسبة للقوم فهم على حساب رؤيتهم للأمور ، قد سألوه عن مسألة القتيل ، ولكن ها هو يبلغهم بالامر الالهي لذبح بقرة . ولعدم تمكنهم من التفكير بوجود «حكمة» من وراء ذلك ، بسبب عدم قدرتهم لادراك جوهر الاشياء ، فقد ظنوا أن موسى كان يستهزىء بهم او يسخر منهم ، متجاهلين بأن موسى كان نبيهم ، وأنه كان يبلغهم «الكلمة الحق» بكل تأكيد وأنه لا يمكن له أن يقف موقفاً متسماً بالجهل والسفه . هذا ، ولفظاعة ظنهم ، فقد استعاذ موسى بالله تعالى ، مؤكداً لهم جهلهم ، حين نسبوا اليه أمر الاستهزاء بهم دون حق . فمنذ البداية ، فالقصة ، إذن ، تسلط الاضواء على تشكيك بني إسرائيل بموسى واتجاهاته نحوهم ، وتبين أن الجهل والتمرد المستمر هو أساس هذا التشكيك . وهذا بحد ذاته أمر مثير للدهشة والاستغراب فالتمرد كتعبير ، يعني عدم قبول أمر ما بشكل مطلق ، والثورة عليه استناداً الى «سبب» يعود الى امر لا تتناسب مع تطلعات أي شخص معني بالشأن ولكن عندما يأتي التمرد دون سبب ، فيكون عندها تمرد من أجل التمرد لا غير ! ! أي تمرد ناتج عن طبيعة يغلب عليها الاتجاه نحو الشر والضلال ، دون وجود أي مبرر لذلك . فهؤلاء حتى هذه النقطة لم يعرفوا أن الله يأمرهم لأن يذبحوا بقرة لحكمة أكيدة ! ! فلماذا تمردوا؟ هل تمردوا لمجرد الطلب منهم بذبح البقرة ! ! إن مثل هذا التمرد ، الغريب من نوعه ، كان لا بد وأن يجلب نتائج عكسية لبني إسرائيل ، فكل شيء لا يقوم على أساس صحيح ، يعود بالنتائج العكسية على صاحبه . وبهذا الاطار تمضي الحكاية للتركيز على تمرد وعصيان بني إسرائيل فيما يتعلق بأمر ذبح البقرة ، كما يتجلى ذلك من توجيههم لأسئلة متعددة لموسى ، حتى الوصول الى النقطة الحاسمة .

(قالوا ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون)(٧)

http://kotob.has.it/

عندما أمرهم الله سبحانه وتعالى ، أن يذبحوا بقرة ، كان الأمر يسري على أي بقرة يختارونها . وفي ذلك تأكيد على الرحمة الآلهية في تيسير الأشياء لهم . ولكن بدلاً من تنفيذ الأمر الآلهي كما هو مستوجب ، وإذ بهم يبدأون بسلسلة من الاستفسارات عن «ماهية» البقرة المراد ذبحها . ويبدو أنهم كانوا يرمون الى «التعجيز» من وراء موقفهم هذا . فبالنسبة لجماعات توجهت بتفكيرها نحو التمرد والعصيان ، فلربما ظنوا أنهم سوف يعجزون الله تعالى . ولكن بما أن الله تعالى لا يعجزه أي شيء في السموات والارض ، فقد وضع هؤلاء المتمردين أنفسهم في موقف حرج ، كان يزداد تعقيداً مع كل سؤال يوجهونه الى موسى لنقله الى الله تعالى . على أنهم بسؤالهم الاول ، طلبوا من موسى لكي يدعو الله لكي يزودهم بمعلومات عن سنها ، صغيرة أو كبيرة هي . وسؤالهم هذا ، من حيث الصيغة ، يتنافى مع القيم والفضائل الانسانية والروحية . وفي هذا الصدد يعلق سيد قطب بقوله :

> والسؤال بهذه الصيغة يشي بأنهم ما يزالون في شكهم أن يكون موسى هازئاً فيما أنهى اليهم ! فهم أولاً : يقولون : «أدع لنا ربك» ـ فكأنما هو ربه وحده لا ربهم كذلك ! وكأن المسألة لا تعنيهم هم إنما تعني موسى وربه ! وهم ثانياً : يطلبون منه أن يدعو ربه ليبين لهم «ما هي»؟ والسؤال عن الماهية في هذا المقام ـ وإن كان المقصود الصفة ـ إنكار واستهزاء ـ ما هي؟ إنها بقرة . وقد قال لهم هذا من أول الأمر بلا تحديد لصفة ولاسمة . بقرة وكفى(٨) .

على أن الجواب بشأن سؤالهم «ما هي» جاء كالآتي : إن البقرة المتطلب ذبحها ليست كبيرة ولا صغيرة ولكن في سن متوسطة . وهذا يشير الى أن الله تعالى وضع اوصافاً معينة للبقرة على أثر تحديهم . ففي الوقت الذي ظنوا فيه بأنهم يعجزون الله ، فقد كشف الله تعالى لهم عن زيف تفكيرهم هذا ، مبنياً لهم مدى ضحالتهم . هذا وقد زجرهم موسى لتماديهم بقوله (فافعلوا ما تؤمرون) . على أنهم بالرغم من ذلك ، مضوا في مرحلة ثانية ، للقول لموسى :

(قالوا أدعُ لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها

http://kotob.has.it/

بقرة صفراء فاقع لونها تَسُرّ الناظرين [٩] .

إذن فمن السؤال عن «السن» ، انتقل بنو إسرائيل للاستفسار عن «اللون» . فجاءهم الرد بأن البقرة المراد ذبحها يجب أن تكون ناصعة أو شديدة الصفرة ، بحيث تدخل السرور والبهجة الى قلب من ينظر اليها . وهذا أمر يشير الى أن البقرة المطلوبة مخصصة في صفاتها ، وجمال لونها ومتميزة في إثارة الجمال في العيون والنفوس والقلوب . فالبقرة الغير مخصصة سابقاً ، أصبحت الآن مخصصة بالسن ، واللون ، والهيئة . وبهذا شددت الامور عليهم من قبل الله تعالى بسبب تشديدهم على أنفسهم ، بالتمادي في الاستفسارات .ولكن هل توقف هؤلاء عند هذا الحد؟ لا ، لم يتوقفوا ، لأنهم واصلوا كلامهم مع موسى كما يلي :

(قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون)[١٠] .

في هذه المرة ، لم يأتوا بسؤال جديد . بل جاءوا بسؤال مكرر غايته الاستزادة من الاستكشاف عن حالة البقرة وصفتها . إذ انهم على ما يبدو ، قد ادركوا أن الله تعالى كان يطلب منهم ذبح بقرة معينة بعد «تعميم» . ويؤكد ذلك قولهم (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ، أي بمعنى إنا مهتدون الى البقرة المراد ذبحها بإذن الله تعالى . وهنا جاءهم الجواب عن سؤالهم الاخير الذي جاء كتكرار لسؤال سابق ، كما يلي :

(قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الارض ولا تسقي الحرث مُسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبوحها وما كادوا يفعلون)[١١] .

فالبقرة المطلوب ذبحها ليست مذللة بالعمل ، تقلب الارض للزراعة ، ولكن لا يستقى عليها بالسواقي الحرث . كما أنها في الوقت نفسه ، بقرة خالية من العيوب وآثار العمل ، ولا لون فيها غير لونها . وبتلقي هذه المعلومات التفصيلية الأخيرة عن وصف البقرة ومهامها ، تأكدوا فعلاً من البقرة المعينة ، المطلوب ذبحها . وبهذا يكونوا قد توصلوا الى معرفة البقرة في المرحلة الثانية من استفساراتهم حولها ، ولكنهم تأكدوا أنها هي المعنية بالذات في المرحلة الأخيرة من الاستفسار حول هذا الموضوع .

http://kotob.has.it/

وعلى اثر ذلك ، أحضروا البقرة وذبحوها . ولكن يبدو أن ذبحهم لها جاء بعد بعض التردد من جانبهم (وما كانوا يفعلون) . وربما يعود سبب ذلك الى إرتفاع ثمن البقرة ، فهذه بقرة «فريدة» ، ولها قصة ذو خلفية روحية وإجتماعية هامة تتحدث عنها كتب التفسير . فلو أن هؤلاء نفذوا الامر الآلهي منذ البداية دون تمرد ، لما اجبروا على شراء هذه البقرة وذبحها . فدخولهم في أمور لا طائل من ورائها ، وظنهم بالقدرة على إعجاز الله تعالى ونبيه موسى ، قد عاد عليهم بالخزي والعار . فقد كشف النقاب عن جهلهم ، وغبائهم في التصرف ، وحاق بهم مكرهم السيء . على أنه بالوصول الى هذا الحد ، يسدل الستار عن هذه الحكاية ليكشف عن اخرى مرتبطة بها كل الارتباط . وقد كنا ذكرنا منذ البداية بعض المعلومات عن هذه الحكاية الثانية «كخلفية» للحكاية الاولى . فالحكاية الثانية تتحدث أولاً للقوم بشأن قضية القتل والاختصام في أمرها ، ثم تبين بأن الله تعالى مظهر ماكتمه بنو إسرائيل بلا محالة :

(وإذ قتلتم نفساً فأدارءتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون)(١٢) .

هذا ولاظهار ما هو مكتوم ، فقد أمر الله تعالى هؤلاء لكي يضربوا جسد القتيل ببعض أجزاء البقرة ، ففعلوا ذلك ، وكانت النتيجة أن قام القتيل ، بإذن الله تعالى ، في حالته عند القتل . ثم تحدث عن إسم القاتل ، وهو ابن عمه ، ثم سقط ميتاً في مكانه . وفي هذا تذكرة لبني إسرائيل بأن الله تعالى الذي أحيا صاحب البقرة لقول كلمة الحق ، قادر على احياء الموتى يوم القيامة . فخارقة احياء الميت تشكل دليلاً حياً على قدرة الله تعالى لفعل كل شيء . ومن هنا ، فهي تحمل في طياتها حثاً لبني اسرائيل وغيرهم لكي يتعقلوا ، ويمنعوا أنفسهم من ارتكاب المعاصي ، ويصدقوا بالبعث والحساب :

(فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى
ويريكم آياته لعلكم تعقلون)(١٣) .

ولكن هل استوعب القوم الدرس بعد كل تلك العبر؟ وهل توجهوا بانفسهم نحو الخير والايمان الصحيح ، والخشية من الله تعالى؟ إن السياق القرآني يظهر أن توجههم كان في خط معاكس ، لمرة أخرى ، بعد دورات عديدة من التمرد والعصيان ! يقول الله تعالى في كتابه العزيز :

http://kotob.has.it/

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون)(١٤) .

لقد قست قلوب هؤلاء بشكل لا مثيل له . «والقسوة» هنا تشير الى التجمد في المشاعر الدينية والاخلاقية . هذا وقد تجمدت قلوب بني إسرائيل الى درجة اصبحت معها كالحجارة ، ولكن لا ككل الحجارة !! إذ أن هنالك نوعين من الحجارة . أولهما الحجارة التي تشبه بنو إسرائيل بقسوتها . ولكن مقابل تلك الحجارة ، فهنالك نوع آخر مفيد ولين . ومن هذا النوع حجارة تتفجر منها الانهار ، وأخرى تتشقق ، فتخرج منها العيون ، ومنها ما يسقط من أعلى الجبل الى اسفله امتثالاً لامر الله تعالى أي أنه في حين أن النوع الثاني من الحجارة ، باصنافه المتعددة ، ينفعل ويتأثر ويشارك الطبيعة في خضوعه لله تعالى ، فقلوب بني إسرائيل جامدة لا تلين ولا تخشع ولا تتحرك من الخوف من الله تعالى . وبهذا لا تخالف المسار المتوقع من الانسان كمخلوق عاقل فقط ، بل حتى تخالف الجماد الذي تقف الحجارة المفيدة اللينة كرمز له وهذا يعني انحداراً من المنزلة الانسانية الى ادنى منزلة ممكنة .

ومن الجدير بالذكر هنا الى أنه بحكم أزلية القرآن الكريم وإعجازه ، فقد قدم الجزء المذكور أعلاه من قصة موسى ـ والذي يحتوي على حكايتين مترابطتين ؛ من خلال اسلوب لا مثيل له من حيث ترتيب الاحداث ، وتطورها ، الى حين الوصول الى نقطة حلها . صحيح أننا بدأنا بعرض«الخلفية» لهذا الجزء ، فيما يتعلق بمسألة القتل ، ولكننا لم نفعل ذلك الا لفسح المجالّ امام «القارىء » لفهم الحوار الذي دار بين موسى وبني اسرائيل بشأن الامر الالهي بذبح البقرة . أما الاحداث كما وردت في «البقرة» ، فلا تتحدث عن القتل الا بعد عرض للمشهد المختص بذبح البقرة من أوله الى آخره . على أن هذا الاسلوب متسم بطابع «الغموض» . والغموض هنا لا يكتنف ذهن القارىء فقط ، بل يذهب الى ابعد من ذلك ليشمل طرفاً هاماً في الحكاية ـ أي ليشمل الجماعات من بني إسرائيل . والغموض المختص ببني إسرائيل يجلي أمام القارىء بعض المسائل النفسية والخلقية المتعلقة بهؤلاء . فمع أن الحكمة من أمر ذبح

http://kotob.has.it/

البقرة كانت خافية عليهم في البداية ، إلا أنهم مضوا في تساؤلات عديدة عن ماهية البقرة المطلوب ذبحها ، ومع أن القصد من وراء ذلك هو «التعجيز» . إلا أن التعجيز لا يكون مع الله تعالى الذي يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور . وما دام الحال كذلك ، فالتعجيز هنا كان عكسياً في نتائجه على بني إسرائيل ، لأنه كشف عن جهلهم ، وأكد تمردهم من أجل التمرد ، وتحديهم بحكم سيطرة الشر المطبق كلية عليهم . ولكن المبدأ الذي قررته الحكاية هو أن كل أمرىء مجزي بأعماله وأنه لا مفر له من العقاب اذا توجه بأعماله نحو الشر . هل فكر احد منهم بذلك وهم يتمردون على موسى ويستهزؤن به؟ طبعاً لا ! ! ومن هنا ، لابد وأنهم فوجئوا بمسألة بعث الميت وهو ينزف دماً ، وفوجئوا به وهو يُدلي باسم القاتل أمامهم ، ثم يموت ثانية بأمر من الله تعالى . على أن دهشتهم تلك كانت مؤقتة كما تظهر أحداث القصة ، فقد تغلبت عليهم طبيعتهم العاصية ، ومضوا في قلوبهم القاسية للطغيان والعبث بالموازين الروحية والاخلاقية . ولقد يعجب القارىء أن تظل ناحية الشر مسيطرة على عقولهم ونفوسهم بعد أن رأوا معجزة بعث الميت لانشاء سر مكتوم ، ويزداد عجباً حين يعلم بقسوتهم التي فاقت قسوة الحجارة ! !

٣ـ الأرض المقدسة

تبتدىء حكاية بني إسرائيل والارض المقدسة بمشهد يكشف فيه عن موسى وهو يخاطب قومه بعبارات أصبحت مألوفة لدى القارىء أو السامع من حيث المعنى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم) . أما تلك العبارة القرآنية ، فتحمل في طياتها تذكيراً لهؤلاء القوم بالنعم الكثيرة التي حصلوا عليها باضطراد ، طبيعي وتلك هي الحال ، أن يكون هذا التذكير قد اتى كنتيجة لجحود هؤلاء المستمر لكل العطاء الالهي يقول بعض المفسرين بشأن هذه الآية القرآنية :

> قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما اذكروا عافية الله وقيل معناه اذكروا أيادي الله عندكم وأيامه التي أنعم فيها عليكم قال الطبري هذا تعريف من الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بتمادي هؤلاء اليهود في الغي ويعدهم عن الحق وسوء اختيارهم لانفسهم وشدة

http://kotob.has.it/

> مخالفتهم لأنبيائهم مع كثرة نعم الله عليهم وتتابع أياديه وآلائه لديهم سلى بذلك نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم عما نزل به من مقاساتهم ومعالجتهم في ذات الله عز وجل (١٥) .

ما أورده الطبري في هذه الفقرة المستندة الى القرآن الكريم ، يبرز رابطة قوية بين نفسية اليهود زمن الرسول محمد (ﷺ) ، ونفسية بني إسرائيل أيام موسى عليه السلام ، وذلك بالرغم من البعد الزمني بين العهدين . ونستطيع أن نستنبط هنا أن النفسية واحدة من حيث الميل نحو الضلال والمفسدة من قبل الاكثرية . وهذا الامر ناتج عن التوجه بفكر معظم هؤلاء نحو الشر بدل الخير بشكل مستمر . ويجمل بنا أن نبين بأن هذا التشابه في النفسية يكشف عن وحدة زمنية بين الماضي البعيد وزمن الرسول محمد (ﷺ) ، والقصد منها هو إبراز المعاناة والمقاساة المشتركة التي يواجهها الانبياء . هذا من ناحية المعنى ، ولكن من حيث الاسلوب ، فالوحدة الزمنية التي برزت بانتقال زمني سريع بين عصرين ، تشكل أحد مظاهر «الاعجاز» في الاسلوب القرآني للقصة . ولو عدنا ثانية الى احداث «حكاية بني اسرائيل والارض المقدسة» ، يبين السياق أنه بعد تذكير القوم بضرورة التقدير للنعم الالهية ، تخصص الآية القرآنية أهم تلك النعم وهي : نعمة تشريفهم بالانبياء الذين خالفوهم بشدة ، ثم نعمة جعلهم «ملوكا» بعد ان كانوا مستعبدين من قبل فرعون . أو بعبارة اخرى ، تكريمهم بالتحرر والانعتاق من استعباد فرعون لهم :

> (واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت احداً من العالمين)(١٦) .

من الملاحظ هنا بأن النعم التي وهبها الله تعالى لبني اسرائيل فيما يتعلق بالنبوة والتحرر من العبودية ، ذكرت في اطار من التخصيص . وبعد ذلك ، بينت الآية بأن بني اسرائيل حظوا بنعم الهية لم يحصل عليها احد في زمانهم ، دون ذكر لتلك النعم في هذا الموضع . وهذا معناه أن الجزء الاخير من الآية المذكورة أعلاه ، قدم في اطار من التعميم . ويكفي أن نذكر هنا ، بأن مسألة عرض النعم المنزلة على بني اسرائيل من

http://kotob.has.it/

خلا اطار يجمع بين التخصيص والتعميم ، يشكل عنصرا هاما من عناصر «الاعجاز» في الاسلوب القرآني . ولو أن هذه الآية (واذ قال . .) وضعت بهذا الاطار ، فالآية التي وردت بعدما اتجهت نحو التخصيص ، وذلك بالكشف عن نعمة جديدة كبرى كتبها الله تعالى لبني اسرائيل ، وهي نعمة الارض المقدسة :

(يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين) (١٧) .

والواقع أن تلك الآية تحذر هؤلاء القوم من مغبة التمرد على الامر الالهي «بالجهاد» في سبيل الدخول الى الارض المقدسة ، الارض المطهرة ، أرض الانبياء والرسالات السماوية . فعدم الالتزام بالجهاد يعني بدوره التراجع أو الهروب حرصا على الدنيا . وهذا أمر مرفوض في الميزان الروحي ، ومن أجل ذلك ، أنذر هؤلاء بالخسران لثواب الدارين . لكن السياق القرآني يكشف فيما يلي من احداث ، اصراراً من جانب العتاة من بني اسرائيل على عدم الدخول للارض المقدسة واهلها فيها ، كما ورد في الآية القرآنية التالية :

(قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون)(١٨) .

إن هذا الموقف اللاأخلاقي من قبل بني اسرائيل قد أثار حمية رجلين منهم ، كما يتجلى في الآية التالية :

(قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين)(١٩) .

إن هذين الرجلين المتصفين بالخشية من الله تعالى والوفاء بعهده ، وجها أمرا للقوم بضرورة مباغتة سكان الارض المقدسة من باب مدينتهم بقوة ارادة ، وعزيمة وثبات . ثم أكدا لهم أنهم ان التزموا بذلك فسوف يتغلبون على هؤلاء . وعليهم أن يتذكروا بأن الله تعالى قد وعدهم بالنصر في هذه المرحلة وهو منجز وعده اذا آمنوا به ، وصدقوا برسالته . ولكن هل استمع القوم لهذين الرجلين الحكيمين؟ أم أنهم

http://kotob.has.it/

مضوا في غيهم وضلالهم نتيجة تأثرهم بأهوائهم ، أو أمزجتهم الذاتية . هذا ما ستكشف عنه الآية التالية :

(قال يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)[٢٠] .

لقد كان خليقا بهؤلاء أن يغيروا من موقفهم السابق فيما يختص بالدخول الى الارض المقدسة ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل مضوا في غي أعظم ، وضلال أكبر . فها هم الآن يؤكدون لموسى بأن قرارهم لعدم دخول الارض المقدسة في حالة وجود أهلها فيها ، قرار «مؤبد» ، يمتد طيلة حياتهم . واعجب الامر في هؤلاء وانكره أنهم ، بتأثرهم بنزعاتهم الشيطانية أشد التأثر ، قالوا لموسى (فاذهب أنت وربك فقاتلا) ، ثم اخبروه بأنهم ماكثون في مكانهم وأنهم لن يقاتلوا من اجل نصرة الدين !! ولقد أثار موقفهم المفزع هذا اهتمام العلماء المسلمين ، حيث ورد ما يلي على لسان بعضهم فيما يتعلق بالآية القرآنية المذكورة أعلاه :

إنما قالوا هذه المقالة لأن مذهب اليهود التجسيم فكانوا يجوزون الذهاب والمجيء على الله ، تعالى الله عن ذلك علوّ كبيرا قال بعض العلماء إن كانوا قالوا هذا على وجه الذهاب من مكان الى مكان فهو كفر وان كانوا قالوه على وجه الخلاف لامر الله وامر نبيه موسى فهو فسق وقال بعضهم إنما قالوه على وجه المجاز والمعنى اذهب انت وربك معين لكل قوله فقاتلا يفسد هذا التأويل . . . والاصح أنهم ؟ قالوا ذلك جهلا منهم بالله تعالى وصفاته ومنه قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره . . .[٢١] .

من الواضح أن بني اسرائيل قد دفع جهلهم وغرورهم الى اللامبالاة ، والاستهانة بالله تعالى ونبيه . . . أمر أثار شعورا بخيبة الامل ، واليأس ، والمرارة لدى موسى . فالتجأ الى الله ، جلّ شأنه ، متضرعاً له ، لكي يحكم له ولاخيه بما يستحقانه ، ويحكم على بني اسرائيل بما يستحقونه . كما توسل اليه ، في الوقت ذاته لكي يبعد ما بينه وبينهم ، وينقذه من صحبتهم . وهذا معناه أنه لم يعد له طاقة للاستمرار معهم

http://kotob.has.it/

بقلوبهم المتحجرة ، ونفوسهم المليئة بالشوائب والمعاصي . ولقد استجاب الله تعالى لتوسلات نبيه الحزين ،فأصدر حكما «بتحريم» الارض المقدسة على بني اسرائيل لمدة اربعين سنة ، والتيه في الارض . وفي ذلك عقاب شديد بما قدمت أيديهم . يقول جل جلاله :

(قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الرض فلا تأس على القوم الفاسقين)(٢٢) .

وتجدر الاشارة هنا الى أن «التحريم» للدخول للأرض المقدسة كان يسري على هذا الجيل الذي وصفته الآية القرآنية بالفسق . ولكن يفهم من السياق القرآني بأن الدخول اليها من قبل جيل آخر كان مقيدا بشروط وهي : تقديم الولاء لله تعالى ، والخشية منه ، والاعتراف بنعمه ، والالتزام بفضيلة العدل ، والاحترام للحقوق الشرعية للشعب الاصلي الذي يقطن الارض المقدسة ، وعدم الطرد له من أراضيه . اي أن الدخول للارض المقدسة كان مشترطاً بتعايش القادمين مع الشعب الاصلي في اطار من العدل والمساواة على اساس أن خلق الشعوب جاء للتعارف :

(. . . إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . .)(٢٣) .

في الواقع أن هذه الآية تبين «العدل المطلق» لله تعالى . فهو لا يرضى بالظلم المنبثق من قبل الكثيرين من ابناء البشر . ومن انواع الظلم الذي يعاقب مرتكبوه بشدة ، طرد شعب من أرضه من اجل توطين شعب آخر محله . إن اصرار بني اسرائيل على هذه الفكرة المنكرة ، الخارجة عن الاحكام الدينية ، قد ادى الى انزال العقاب بهم ، بتيههم في الارض لمدة اربعين سنة الى حين هلاك جيل منهم ، وقدوم جيل آخر اعتبر عدد منهم بالدرس ، فدخل الارض وعاش فيها مع الابقاء على سكانها الاصليين . اما الذين اصروا على ضلالهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى ، انزل الله بهم عذابه . هذا وقدوم اجيال اخرى فيما بعد ، وتخطيها للإعتبارات الاصلية للعيش في الارض المقدسة ، أدى لعودة الى الوراء الى زمن التحريم ، فلو اخذنا التاريخ الحديث ، لرأينا عودة في منهجية التفكير اليهودي الى الجيل الذي حق عليه « التيه» زمن موسى بما

http://kotob.has.it/

قدمت ايديهم !! فهؤلاء رفضوا فكرة العيش بسلام وأمان مع الشعوب المسلمة . فتمردوا واحتلوا اجزاء من بلادهم بمساعدة الكثيرين ممن لا يبالوا بحقوق الشعوب ، وطردوا معظم السكان الاصليين لتلك البلاد المحتلة بالقوة وشردوهم في الارض بغير حق . وقد تناسوا في زهوهم بالنصر ، بأن ما فعلوه لا يتفق مع رسالة موسى السماوية ، بشكل كلي لأنه يقف كتجسيد للظلم ، في اقبح مظاهره وللتطاول على المبادىء الروحية والأخلاقية والاجتماعية الى اقصى حد ممكن . كما أنهم قد تناسوا بأن الله تعالى يُمهل ولا يهمل ، وبأنه قال فيهم ما يلي :

(. . . وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا)(٢٤) .

أي إن عادَ هؤلاء للضلال والظلم والمفسدة ، سيعاقبوا عقاباً شديد بموجب ذلك ، اذ أنه اضافة الى تحريم الارض المقدسة عليهم لمدة اربعين سنة أيام موسى ، فقد أشار القرآن الى انزال عقابه خلال فترتين من التارخ البشري مع ترك الباب مفتوحاً في هذا الصدد في حال السعي نحو التمرد والعصيان .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ـ ١٥٥ الاعراف ٧ .

٢ـ ١٦٠ الاعراف ٧ .

٣ـ ١٦٠ الاعراف ٧ .

٤ـ ٦١ البقرة ٢ .

٥ـ ١٦٠ الاعراف ٧ .

٦ـ ٦٧ البقرة ٢ .

٧ـ ٦٨ البقرة ٢ .

٨ـ سيد قطب ، المصدر السابق ، جزء ١ ، ص, ٧٨ .

٩ـ ٦٩ البقرة ٢ .

١٠ـ ٧٠ البقرة ٢ .

١١ـ ٧١ البقرة ٢ .

١٢ـ ٧٢ البقرة ٢ .

١٣ـ ٧٣ البقرة ٢ .

١٤ـ ٧٤ البقرة ٢ .

١٥ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص, ٢٥٨ .

١٦ـ ٢٠ المائدة ٥ .

http://kotob.has.it/

١٧ـ ٢١ المائدة ٥ .

١٨ـ ٢٢ المائدة ٥ .

١٩ـ ٢٣ المائدة ٥ .

٢٠ـ ٢٤ المائدة ٥ .

٢١ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص، ٢٦٢ .

٢٢ـ ٢٥ ، ٢٦ المائدة ٥ .

٢٣ـ ١٣ الحجرات ٤٩ .

٢٤ـ ٨ الاسراء ١٧ .

http://kotob.has.it/

الفصل الحادي عشر

التطور في العقيدة السماوية

ابتداء من عهد نوح الى عهد موسى

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

حتى الآن ، لقد تركز البحث في الفصول السابقة على قصص الانبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع اقوامهم بالاضافة الى «قصة موسى مع فرعون وبني اسرائيل» . هذا وفي دراستنا لتلك القصص ، ابرزنا المبادىء الهامة التي تمثلت في كل قصة ، وربطنا تلك المبادىء بالحالة الروحية والاجتماعية لكل قوم . هذا وفي دراستنا تلك لاحظنا أن الكثير من المبادىء تكررت بين قصة واخرى في حين أن بعضها الآخر قد اختلف تبعا للاختلاف في الازمنة والامكنة . ولكن حتى مع تكرار المبادىء الجوهرية الروحية في كل قصة ، فهنالك توجهات جديدة لها في كل قصة اضافة الى التوجهات المشتركة . إن هذه النقاط جميعها ستشكل موضوع هذا الفصل ، لأنها تكشف عن مسألة التطور في العقيدة السماوية ابتداء من عهد نوح الى عهد موسى مبينة اهميتها في تقرير المبادىء أو القواعد الصحيحة اللازمة لبناء المجتمع السليم . وبهذا تبرز اهمية القصص كوحدة من نواحي روحية واخلاقية واجتماعية . على أننا سنبدأ البحث في هذا الفصل بتركيز على مسألة الوحدانية لاهميتها القصوى في كل قصة . فمن المؤكد بأن كل موضوع ديني أو دنيوي في تلك القصص مرتبط بمبدأ الوحدانية .

إن الوحدانية تعني تقديم الطاعة الى الله تعالى وحده لا شريك له ، كما يتمثل ذلك في عبادته وفي العمل بكل احكامه ، منها الاحكام التي تدعو الى التحلي بالاخلاق الفاضلة في المعاملات . إن قصة نوح مثلاً قدمت مبدأ الوحدانية من خلال دعوة هذا النبي الكريم للقوم للابتعاد عن عبادة الاوثان ، مع العلم بأن امر عبادة الاوثان أخذ مجراه في فترات متعددة شملت عصر نوح وما بعده ، كما يتجلى من دعوة كل الانبياء المذكورين اعلاه لاقوامهم للكف عن عبادة غير الله تعالى . هذا وأن عبادة الوثن مرتبطة عادة بالجهل ، وعدم التأمل بخلق الكون والقوة الخفية التي تدير شؤونه . فالكافر يستكفي عادة بعبادة شيء مرئي لديه دون التفكير أو الادراك بأن هذا الشيء لا يجلب له نفعا ولا ضرا . ومن هذه الزاوية ، ينصب اهتمامه على عالم المادة من دون أي اعتبار لعالم الروح ، على أن هذا الاتجاه هو الذي يحبب اليه بريق الدنيا

http://kotob.has.it/

وزخرفها وجاهها ، فينجرف بكل طاقاته لجمع المال وتكديسه ظانا أن هذا يكفل له الخلود . ثم أنه في انجرافه نحو تحقيق هدفه هذا يظلم ويتعدى على حقوق الغير ، ويضع نفسه في مركز عليٍّ دون حق . هذا هو ما انطبق على الملأ أو الاشراف من قوم نوح . فقد توجهوا بانفسهم لعبادة المال وقهر المستضعفين فكريا واجتماعيا ، ومن اجل ذلك ، دعاهم نوح لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له المالك لخزائن السموات والارض ، والحافظ لحقوق الضعفاء ، والقادر على اهلاك الكفرة المستكبرين . وبهذا الاطار ، فقصة نوح تؤكد بأن الدعوة للالتزام بالوحدانية تدخل في واقع الفرد والمجتمع . فالذي يتقي الله تعالى لا يظلم ، ولا يطغى ، ولا يفسد في الارض لأنه يعلم بأن الله تعالى يحاسبه على كل اعماله ، وهنا تظهر العلاقة الوثيقة بين الدين والدنيا .

هذا وأن قصة هود مع قومه عاد ، قررت هذه الحقيقة ايضا في خضم بحثها لموضوع الوحدانية . على أنها في التركيز على هذا الموضوع ، اتت بمعلومات جديدة متعلقة بالدوافع نحو الحب الشديد للمادة أو العبادة لها ، والحرص بالتالي على الدنيا . إن القدرة الانسانية على التصنيع ، والبراعة في مجال العمران قد تبهر الانسان ببريق الابنية التي يقطنها وينعم بين جدرانها . اذ قد تصبح تلك الابنية عالما صغيراً للانسان المستكبر الجاهل ، ينسى من خلاله العالم الكبير . . . عالم الروح والعلم والمعرفة . إن هذا ما حصل مع الغالبية العظمى من قوم هود الذين اشتهروا بالتصنيع وانشاء القصور والقلاع والابنية الباهرة . فقد نسى هؤلاء عبادة الله تعالى في خضم زهوهم بحضارتهم العمرانية التي رأوا فيها الخلود . ومن هذه الزاوية ، ذكرهم هود بضرورة التوجه لعبادة الله تعالى وحده . فالله قادر على سحق حضارتهم التي كانوا يعتزون بها . ولكن هيهات لقوم طغت المادية على عقولهم ان يدركوا مثل هذه الحقائق . ويجب ان نضيف هنا الى أن عدم التزام القوم بالوحدانية لم يقتصر على انجرافهم نحو المتاع الدنيوي ، بل ارتبط ايضا بعبادة الشخصيات الذين حببوا اليهم شهوات الحياة ، ومهدوا لهم الطريق الى المفسدة . وقصة هود مع قومه تحذر من عبادة الناس للمفسدين الطغاة من المتحكمين فيهم ، وتبين لهم بأن سوء العقاب ينتظرهم جميعاً دون تمييز .

هذا من جهة ، اما ناحية اخرى ، فقصة هود مع قومه «عاد» تحدثت عن

http://kotob.has.it/

الوحدانية من زاوية التحذير من الجحود بالنعم الالهية والبغي والاستكبار . إن القصة بينت بأن حبس المطر على القوم لم يكن لينفرج الا في حالة توجههم نحو الله الواحد الاحد ، وطلب المغفرة منه على ما ارتكبوه من آثام ، فالالتزام بالوحدانية هنا امر مصيري لأنه يشكل منبع الحياة للقوم . ولكن كان من المستحيل لقوم استفحل الشر في قلوبهم ، وتغلغل في نفوسهم ان يدركوا مثل هذا المعنى . فمضوا في غيهم وطغيانهم وتمردهم الاحمق ضد رسالة هود ودعوته الى الوحدانية الى ان أخذهم الله تعالى بالعاصفة .

هذا بالنسبة لعاد ، اما فيما يختص بثمود قوم صالح ، فقد قدم موضوع الوحدانية - اضافة الى امور اخرى - في اطار الغضب الالهي على القوم ، واخذهم بالصيحة بسبب عقرهم للناقة . هذا ، وان اخذهم بالصيحة جاء نتيجة تعدي السفهاء منهم على حدود الله تعالى ، كما يتجلى ذلك في عقرهم للناقة وقبول ذلك من القوم ، ومن هنا تجلى الله تعالى بقدرته لتدمير القوم ، مبيناً بذلك حجم مكانتهم كبشر . وفي هذا المنظار ، فالوحدانية في قصة صالح جاءت في اطار تحذيري في مجمله ، يرمي الى تذكير الانسان بحدوده ، وحقوق الدين عليه ،كي لا يطغى ويفسد في الارض بغير حق . فالله تعالى عليم بكل شيء .

بيد أنه بالانتقال الآن الى قصة لوط مع قومه ، نرى ان القصة تابعت كغيرها الخوض في موضوع الوحدانية من خلال التركيز على زاوية علم الله تعالى اللامحدود ولكنها اتجهت نحو معالجة مسألة الانحراف الخلقي للرجال . فالله يعلم كل ما يجول في خاطر الانسان ، وكل ما يكتمه صدره وما يفعله سراً وعلانية . إن الانحراف أو الشذوذ الاخلاقي الذي اتصف به الرجال من القوم لم يكن ليخفى على الله تعالى . هذا وأن ابلاغ لوط للقوم بضرورة الالتزام بالوحدانية ، كان يرمي لتذكيرهم بأن الله تعالى يرصد ويراقب ويحصي أعمال كل أنسان ، الصغيرة والكبيرة منها ، ويعاقبه بعلمه وحكمته . ولكن لو أراد هذا الانسان النجاة بنفسه من العقاب ، فعليه أن يمتثل للأوامر الإلهية بوجوب التقيد بالفضيلة ، وعدم الانسياق وراء الغرائز الحيوانية المتجسدة مثلاً ، في الشذوذ الاخلاقي . فهذا عمل منكر يعود بالضرر الوخيم على الفرد والمجتمع ككل . فالدعوة للوحدانية هنا جاءت بقصد حث الانسان على تهذيب

http://kotob.has.it/

نفسه، وتطهير قلبه، وصقل شخصيته، وتوجيه فكره نحو الخير بدل المفسدة.

أما فيما يتعلق بقصة شعيب فتحدثت عن موضوع الوحدانية أيضاً من زاوية العلم الالهي لمعرفة كل ما يفعله الانسان سراً وعلانية، ولكن ومع ذلك فقد ركزت على قضية لا أخلاقية جديدة وجدت وتوجد دائما ألا وهي قضية «التلاعب بالموازين». إن القصة أظهرت النبي وهو يدعو القوم لضرورة التقوى وطلب المغفرة من الله تعالى حتى ينالوا الحصانة اللازمة لمنع النفس من الغش والتدليس في المعاملات التجارية انطلاقا من الجشع، فالتركيز على الوحدانية هنا جاء لتحصين الانسان بالامانة، وحثه على الالتزام بالصدق في القول والعمل، وذلك لأن السرقة الخفية تضر الفرد والمجتمع أيضاً. ولكن في مجال آخر، فقد ورد بحث قضية الوحدانية من خلال تذكير المطففين بضرورة اعطاء الولاء لله تعالى وحده، اذ أن هؤلاء كانوا قد وضعوا العصبية للرهط فوق كل اعتبار، ولفداحة الأمر فالقصة تبين أن التعصب للرهط لا يمثل قوة كما قد تظن الجماعة، فالقوة جميعها بيد الله تعالى القادر على القضاء على كل عصبية. وبهذا الاطار، فبحث الوحدانية أتى ضمن اطار تحذيري يرمي الى تذكير الجماعة الواحدة بحجم حدودها وامكاناتها كبشر، ومن جهة اخرى، كي يبحث الموضوع في اطار النهي عن الشرك، وعبادة المال والجاه في قصة شعيب. بيد أنه يجب ان نضيف أخيراً بأنه في تناول «قصة موسى مع فرعون وبني اسرائيل» لموضوع الوحدانية فهي كغيرها من القصص، لقد ركزت على مسألة وجوب الابتعاد عن عبادة الاوثان، وعبادة المال والجاه، والمتاع الدنيوي، ومن ثم أكدت وجوب اعطاء الولاء المطلق الى الله تعالى وحده لا شريك له. إلا إنها في أثناء تأكيدها على هذه النقاط، فقد سلطت الأضواء على زوايا جديدة مختصة بمبدأ الوحدانية. وهذه الزوايا تبلورت في أربع قنوات. ففي القناة الأولى، تم بحث موضوع الوحدانية في اطار الرعاية الإلهية لموسى كطفل وشاب قبل مرحلة اختياره للنبوة. أما في القناة الثانية، فقد بحث الموضوع من خلال الحديث عن التجلي الإلهي لموسى في الوادي المقدس طوى «بالتكليم» عندما كلف للنبوة. أما في القناة الثالثة، فقد قدم موضوع الوحدانية من خلال الحث الالهي لفرعون والملأ وغيرهم للنظر والتفكير والتأمل بخلق السموات والأرض، وتدبير أمورهما وتنظيمهما بالقدرة الإلهية اللامحدودة. وذلك بقصد النفي القاطع لفكرة التأليه للبشر. على أنه في

http://kotob.has.it/

القناة الرابعة ، فقد تم التركيز على مبدأ الوحدانية من خلال الحديث عن «المعجزات» الإلهية الكثيرة التي شملت عصر فرعون ، والعصر الذي خرج فيه موسى مع قومه من مصر ، بعد هلاك فرعون وجنوده باليم ، وبهذا الاطار تكون القصة قد قدمت موضوع الوحدانية بشكل واسع جدا في مداه بحيث شمل ما أتى بشأنه بالسابق ، مع اضافات أخرى .

إن بحث موضوع الوحدانية بكل الزوايا المبينة أعلاه يسلط الأضواء على قضية الخير والشر . إن الخير المحض منبعث من الله تعالى الذي ينزل الرسالات على الانبياء لتبليغها للناس لكي يسيروا في طريق الحق والنور والهدى . أما الشر فهو منبعث من نفس أي انسان يستمع الى وساوس الشيطان الرجيم . هذا وبما أن الشر منبعث من الانسان الضال ، فهذا يعني أن الانسان يمتلك «حرية اختيار» بحكم تميزه بالعقلانية على باقي الكائنات . على أنه بموجب حرية اختياره هذه ، يحاسب ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، والقصص المذكورة أعلاه توضح الأسباب التي دعت لعقاب كل قوم على حدة .

هذا وفي اثناء البحث القصصي للاسباب التي ادت الى عقاب كل قوم ، فإن كل تلك القصص حملت في طياتها توجيهات لاقامة مجتمع مبني على أسس وقواعد سليمة . بيد أن كل قصة تناولت المسألة من زاوية معينة تبعاً للحالة الاجتماعية السائدة وقتئذ . فلو بدأنا بقصة نوح ، لرأينا أنها ركزت على الفرد ، ثم العائلة ، ثم الجماعة التي تكون منها القوم ككل . بالنسبة للفرد ، فقد وجهت انتقاداً لكل شخص من الكفرة الذين انتموا الى الملأ أو الاشراف من القوم . فالفرد منهم كما صورته القصة ، كان أنانياً في طبعه ، محباً لذاته ، غير مدرك لحقيقة قدراته العقلية ومحدوديتها ، مستخف بمجرى تفكير ومنزلة كل من هو أقل منه مرتبة من الناحية الاجتماعية . وقد كان يصل الاستخفاف بالضعفاء من قبل مثل هذا الفرد وأمثاله الى درجة استعباده واذلاله ، والحط من قدره الى أسوأ درجة ممكنة . وهذا يبين أن استعباد القوي للضعيف نشأ منذ فجر التاريخ تبعاً للقسوة في النفس البشرية الناتجة عن التوجه المحض نحو المادية . هذا ، وبما أن الصفات والاتجاهات لمثل هذا الشخص المبين أعلاه غير مقبولة على نطاق ديني ، فقد وجهت القصة الافراد الى ضرورة تحلي كل منهم بالتفكير

http://kotob.has.it/

السليم الذي يقود الى الايمان المستنير . فالايمان يُحلي الانسان بالفضائل والمثل القومية اللازمة للرأفة بالغير ولاحترام حقوقهم ، وعدم التعدي على حرياتهم . على أن تحلي الفرد بالفضائل ينعكس على المجتمع . فيثبت الفضائل به .

ومن الجدير بالذكر هنا الى أن القصة عُنيت باصلاح الجنسين ، الذكور والاناث ، دون تفريق . وأكدت بأن المجتمع السليم الطبيعي في صبغته يقوم على التعاون بين النساء والرجال الذين يتصفون بالتفكير السليم والايمان المستنير ، كما كان الحال مع اتباع نوح . إن آية (قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول . . .)(١) ، الموجهة الى نوح للاعداد للاقلاع بسفينته تبين بأن ركب الحضارة الصحيح يسير من منطلق الجهد المبذول من كل من الجنسين معاً . كما أن الآية تلك تزود الانسان بأول مثل يدل على «المساواة» بين الرجل والمرأة من حيث «العقل والدين» ولابأس ان نذكر في هذا المقام بأن القرآن الكريم يعطي أمثلة كثيرة اخرى ، تشمل عصوراً مختلفة لتأكيد هذا المبدأ في المساواة . ولكننا لن نخوض ببحثها في هذه الدراسة ، لأن جوهر الموضوع يدور حول قضايا اخرى . ولكن ومع ذلك ، فيجب أن نبين بأن مبدأ المساواة هذا لم يُفهم على حقيقته . فذهب الكثير من اعداء الاسلام للتهجم على هذا الدين القويم ، واتهامه باذلال المرأة والحط من قيمتها وقدرها بقصد إبرازه كدين متخلف ، لا يصلح للتطور العصري .

ولكن بالعودة ثانية الى قصة نوح ، نرى أنها تبين أنه بعكس المقام العالي المخصص للمؤمنين والمؤمنات ممن تبع نوح ، فلا مقام للمشركين والمشركات . والقصة تضع ابن نوح ، كنعان ، وزوجته كأمثلة في هذا الصدد . فقد أغرق هؤلاء مع من أغرق من الملأ الكفرة ، ولم تشفع لهما قرابتهما من نوح ، الذي كان قد بذل كل جهد لإظهار طريق الحق والنور والهدى أمامهما دون جدوى . المهم أن العبرة المستفادة هنا اجتماعياً هي أن المجتمع السليم يجب ان يقوم في احدى قواعده الهامة على مبدأ القرابة في «العقيدة» وليس على مبدأ القرابة من حيث «النسب» . وبذلك ، يكون الولاء موجه الى الله تعالى بالدرجة الاولى ، وبهذا التوجه نحو الاعلى يسود العدل وما يتبعه من وحدة عضوية في المجتمع . على أن أي مجتمع قائم على العدل والوحدة يرقى ويتقدم نحو الامام .

http://kotob.has.it/

إن مبدأ العدل كان من الامور الرئيسية الذي تركز البحث عليه ايضاً في قصة هود مع قومه عاد ، كأساس للمجتمع السليم . ولكن التركيز عليه لم يأت من منطلق حدود القبيلة الواحدة ، كما كان الحال مع قوم نوح ، بل جاء من منطلَق أوسع في مداه يخضع لسيطرة قبيلة عاد على من حولها من قبائل للاستثمار بمواردهم . وتجدر الاشارة هنا الى أن حب استئثار قوم بموارد اقوام غيرهم ، أمر وجد مراراً على الساحة البشرية . على أن الدافع لمثل هذا العمل المتصف بالظلم البغيض هو الحفاظ على القوة المادية ، والرخاء الاقتصادي لقوم عرفوا بالتفوق الحضاري على غيرهم . فكم من امم ازدهرت وعلت ، وعملت على الحفاظ على علوها هذا ، وعلى رخائها الاقتصادي ، من خلال السيطرة على الامم الضعيفة المحيطة بها . ولاريب أن عاد كقوم اعطوا مثلاً بيناً في هذا الصدد . فقد استغل هؤلاء مسألة تفوقهم الزراعي ، ورقيهم الصناعي والعمراني للتعدي على من حولهم من القبائل الضعيفة ، وارهاقهم اقتصادياً ، وذلك من اجل الابقاء على حضارتهم ورفاهيتهم دون أي وازع أخلاقي . فمن المعلوم حقاً بأن وازع الضمير يتبع الايمان ، ولكن القوم تجردوا منه . هذا وبسبب ظلمهم الواسع في مداه وكفرهم بالله تعالى وجحودهم بنعمه ، فقد أخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر . وبالوصول الى هذا الحد يجب أن نذكر بأن ما يمكن استنتاجه من هذه القصة بشأن النظام الاجتماعي السليم ، هو أن مثل هذا النظام يجب أن يقوم على السعي والعمل والاكتشاف الذي يكفل الرقي الصناعي حسب مفاهيم كل عصر الى جانب الرقي العمراني . ولكن يجب التذكر بأن هذا الرقي لا بد وأن يكون مصحوباً بالايمان والفضيلة . ففي ذلك ضمان لاقامة موازنة صحيحة بين الواجبات الدينية والواجبات الدنيوية ومن ثم عدم طغيان المادية على الانسانية بسبب الخطر المنبثق عن ذلك في حياة الافراد والجماعات .

ولا بد ان نذكر هنا فيما يختص الآن بقوم صالح ، ثمود ، نرى الفشل الذريع للقوم في منع سيطرة ماديتهم على انسانيتهم انطلاقاً من عدم توجههم بقلوبهم نحو الله تعالى . ومن هذه الزاوية ، فقد أخلوا بالقواعد الجوهرية اللازمة لاقامة المجتمع السليم . إن من أهم الاعمدة في المجتمع السليم وجود افراد يعرفون حدودهم وقدراتهم وامكاناتهم كبشر . فالذي يدرك بأن القدرات الذهنية البشرية محدودة مهما سمت بحكم طبيعة أبناء البشر ، يعرف مقدار نفسه . ومن ثم لا يعلو ولا يستكبر ، بل

http://kotob.has.it/

على العكس من ذلك ، يزيد من اتصاله بالله عزّ وجل لمعرفة أسرار الكون وسننه . وبهذا الاطار ، يتوجه بنفسه نحو العلو الروحي ، ويتحرر من ثم ، من أغلال المادية البحتة . إن قصة ثمود تبين قصور القوم عن ادراك حدودهم وامكاناتهم كبشر ، ومن ثم تبرز عبثهم كنتيجة لذلك بالموازين الروحية ، والتعدي على حدود الله تعالى ، دون تحسب للعقاب . ومن هنا عُوقبوا ، وذهبت حضارتهم عن المسرح التاريخي .

هذا وأن العمل او المحاولة من اجل تهديم الحدود الروحية والنفسية مع استبقاء للحدود المادية البحتة لم يقتصر على ثمود ، بل مثل اتجاهاً عاماً فيما يختص بمجتمع قوم لوط ، ولكنه اتخذ ناحية اخرى جديدة من نوعها ، وهي ناحية الانحراف أو الشذوذ الجنسي . بكل آثامه وعواقبه الوخيمة بالنسبة للفرد ، والعائلة ، والجماعة ككل . إن شذوذ القوم ، وارتكابهم للفاحشة علانية دون خشية من الله الواحد الأحد ، وخروجهم من ثم على الحدود الأخلاقية المحددة للتصرف ، قد أدى الى الغضب الإلهي عليهم واقتلاعهم من مسرح الحياة البشرية . هذا ، ولو اردنا عند هذه النقطة ، أن نبين الدروس والعبر التي تحملها هذه القصة فيما يختص ببناء النظام الاجتماعي السليم ، لقلنا بأنها ركزت جوهريا على مبدأ اصلاح أخلاق الفرد كمنطلق لإصلاح المجتمع . فالقصة تناولت بالواقع مسألة ضرورة تطهير النفس البشرية من براثن الحيوانية المحضة . فما دامت صلة الانسان بالانسان تقوم على النزعة الحيوانية ، فهذا يعني بدوره فقدان المعاني السامية التي توثق روابط المحبة والتعاون بين أفراد المجتمع الواحد . ومن الجدير بالذكر هنا بأن انحراف الرجال كقاعدة يشكل خطراً عظيماً على وجود العائلة نواة المجتمع . ولا يمكن لأي مجتمع أن يتقدم ويرقى في الوقت الذي تهتز فيه مكانة العائلة بسبب شذوذ الرجال . ومن هنا ، حرصت رسالة لوط على زجر المنحرفين من القوم ، وعلى التأكيد على ضرورة الحفاظ على مبدأ العائلة ، وإعطاء المرأة مكانتها الصحيحة المحددة لها ، دون شعور بالتفاضل عليها ولا بأس أن نعيد الى الأذهان ثانية بأن قصة نوح كانت قد أكدت مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة من حيث التفكير والتوجه به اما نحو الخير أو نحو الشر .

ومهما يكن ، فلو انتقلنا الآن الى قصة شعيب مع قومه ، نرى أنها ركزت أيضاً على أهمية الالتزام بالفضائل والاخلاق كأساس للمجتمع السليم . ولكنها تناولت

http://kotob.has.it/

مسألة «المعاملات التجارية» . وهي كغيرها من القصص قد عنيت بمسألة الاصلاح الفردي ، ولكن بتركيز عظيم على وجوب التحلي بالامانة والصدق في القول والعمل ، وفي القناعة أيضاً ، ووضعت الأسس اللازمة في هذا الصدد ، لقد حثت القصة على وجوب الاتصال بين العبد وربه عن طريق الصلاة . فالصلاة تطهر النفس من براثن المادية وتزينها بالقناعة . كما أن القناعة ، في الوقت نفسه . تكبح جماح الطمع والجشع والحب الجم للمال لدى أي انسان معني بالامر . هذا ، وبالسيطرة على أهواء ونزعات النفس تلك ، يتزود الانسان بالحصانة أو القوة اللازمة التي تدفعه للالتزام بالدقة والامانة في المعاملات . وبهذا يكف عن التعدي على اموال وحقوق الغير من المستضعفين والغافلين . وتجدر الاشارة هنا الى أن عناية القصة بالاخلاق والفضائل للفرد والجماعة ترمي الى توجيه الانظار الى أن المجتمع السليم يعتمد على روابط الأخوة والثقة والتعاون بين جميع أفراده . فالغش والتدليس والسرقة الخفية الناتجة عن التلاعب بالكيل والميزان تؤدي الى اثارة البغضاء في النفوس . ولا يمكن لمجتمع أن يتقدم ويرقى ما دامت نار الحقد متأججة في النفوس . ويبقى ان نضيف أخيراً أنه فيما يختص بقصة موسى ومسألة الاصلاح ، فقد تناولت مسألة الحكم وقواعده مبينة مساوىء حكم الفرد المستبد ، وحاثة في الوقت نفسه على وجوب اقرار العدل والمساواة وحماية المستضعفين . (راجع الفصل الثامن) .

وبعد هذه الجولة السريعة المتعلقة باظهار أهم النقاط التي قدمت تدريجاً كأسس للمجتمع السليم ، لا بد وأن نقدم على جمعها ، وابرازها كوحدة . على أن أول ما يجب تقريره هنا هو أن هذه النقاط مجتمعة قد عرضت من خلال اطار تناول الخطوط العريضة لبناء مثل هذا المجتمع دون دخول في التفصيلات بشكل عام . وهذا الاطار «هرمي» في طابعه أو صبغته ، ويتغلغل فيه الدين الى واقع الحياة اليومية للفرد والجماعة معاً . على أن مبدأ «الوحدانية» يقف على رأس هذا الهرم . أمر هام يبين بأن هذا المبدأ يمثل الجوهر الذي تدور كل المبادىء الاخرى اللازمة للسيرة التاريخية ، التي تأخذ اتجاهاً صحيحاً من حوله إن الوحدانية تبين بأن العبودية لله تعالى وحده ، وأن الكل ، من ثم ، يتساوى في الخضوع له . على أن ذلك يكشف للانسان عن مركزه ومقداره الضئيل أمام خالق الكون الذي يحاسب الانسان على كل صغيرة وكبيرة . هذا وأن ادراك الانسان لمنزلته الضئيلة يدفع به نحو الالتزام «بالعدل» حرصاً على نيل

http://kotob.has.it/

الثواب الحسن بدل العقاب . ومن هذه الزاوية ، نرى الرابطة الوثيقة بين التوجه الانساني نحو العدل ومبدأ الوحدانية . ولكن بالخوض في مسألة العدل ، فالقصص القرآنية تبين بأن التحلي بالعدل يقود الانسان للمعرفة الصحيحة بما له وما عليه ، فلا يفرط بحقوقه ، ولا يعتدي في الوقت نفسه ، على حقوق الآخرين . وبهذا الاطار ، فالعدل يمثل ، اذن ، الطريق الصحيح للتقيد بمبدأ «الحقوق والواجبات» فيما يختص بالمعاملات اليومية . على أن هذا التقيد يعني بدوره الالتزام بالاحكام والشرائع والمثل الاخلاقية الصحيحة . هذا وأن تأسيس مجتمع قائم على كل هذه المبادىء والفضائل يعني الحفاظ على الحقوق الانسانية ، والكرامة والحرية ، والرعاية للضعفاء والمحتاجين .

ويجمل بنا ان نذكر في هذا المقام بأن القرآن الكريم هو الذي زودنا بكل هذه المعلومات من خلال القصص التي اوردها . قصص غطت أحوال أقوام ظهرت منذ فجر التاريخ الى عصور عديدة اخرى ، إن مثل هذه المعلومات «أزلية» في طابعها ، وتبين بأن الله تعالى الذي خلق الانسان «كخليقة» له على الارض ، وأمره بتنظيمها ، قد وضع له الاسس اللازمة في هذا الشأن . وتجدر الاشارة هنا الى أن القارىء قد يعجب وهو يقرأ عن تجاهل الكثيرين من العلماء الغربيين لهذه الحقائق العظيمة المتعلقة بالدور القرآني في تزويد الانسان بالمعارف التي تؤدي الى رقيه على نطاق حضاري . فقد ذهب هؤلاء للادعاء بأن المواضيع القرآنية لا تصلح للعصر الحديث ، والكثير منها مستمد من الشعر الجاهلي . ولكن دون ادراك منهم بأن مواضيع الشعر «شخصية» في معظمها ، وتعبر عن مشاعر وأحاسيس وتجارب لاشخاص معينين في حين أن القرآن منزل من السماء وهو «أزلي» في طابعه . والقرآن كما تحدث عنه طه حسين ، في كتابه «مرآة الاسلام» هو :

> المعجزة الكبرى التي آتاها الله رسوله الكريم ، آية على صدقه فيما يبلغ عن ربه(٢) .

هذا وفيما يتعلق بالنقطة التي اثيرت من قبل بعض المفكرين الغربيين والمختصة بالادعاء باحتواء القرآن الكريم على مواضيع وردت في الشعر الجاهلي ، يقول طه حسين بأن القرآن :

http://kotob.has.it/

لم يشارك الشعر الذي الفه العرب في قليل أو كثير من موضوعاته ومعانيه ، فهو لا يصف الاطلال والربوع ولايصف الحنين الى الاحبة ولا يصف الابل في اسفارها الطوال والقصار وليس فيه غزل ولا فخر ولا مدح ولا هجاء ولا رثاء .

إن القرآن الكريم قد قدم مواضيع مصيرية . ولم يلتفت قطعيا الى مثل هذه المسائل الشخصية المذكورة في الشعر . فكما رأينا في هذه الدراسة . فقد تحدث عن قضايا روحية هامة مثل صفات الله ، ومسألة خلقه للكون ، وتنظيمه لشؤونه . كما تحدث عن مسألة الوحدانية مركزاً على علاقتها بوجود الانسان ، وكيانه ومصيره . ولم يقف عند هذا الحد ، بل تناول قضية المسؤولية الفردية ، مبيناً علاقتها بالعقلانية . وبتقرير مصير الانسان . هذا بالاضافة الى حديثه عن أمور تشريعية واخرى تنظيمية تقوم عليها حياة الانسان الفردية والاجتماعية ، وأمور غيرها ، تفيد الانسان في كل زاوية من حياته ، في شتى الازمنة والامكنة . هذا والفصل القادم يزود القارىء بمعلومات بصدد آفاق اخرى افاض بها القرآن على المعرفة الانسانية من خلال القصص الواردة به .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ ٤٠ هود ١١ .

٢ ـ طه حسين ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

٣ ـ المصدر نفسه ، ص ١٢٥ .

http://kotob.has.it/

الفصل الثاني عشر

التصوير القرآني الحي لأصناف بشرية

تشكل نماذج لأمثالها خلال التاريخ

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

حتى الآن قمنا بمحاولة لاظهار أن القصص القرآنية تشكل بمجموعها وحدة من النواحي الروحية والاخلاقية والاجتماعية ، وركزنا على دورها في الكشف عن العوامل التي تؤدي الى الازدهار والانحطاط في المجتمعات الانسانية . ومن ثم بينا دور تلك القصص في وضع الخطوط العريضة اللازمة لبناء المجتمع السليم . وبهذا ابرزنا اهمية تلك القصص بالنسبة لمجال المعرفة الانسانية . إن هذه الاهمية لم تقف عند هذا الحد ، بل تعدت ذلك الى جهات أخرى . فالقصص القرآنية قد عنيت بتقديم وصف حي لاصناف بشرية متعددة ، اكثرها سلبي في صورته : على أن الهدف من تقديم مثل هذه الاصناف السلبية هو التنفير منها . في هذا الفصل ، سنقوم بتقديم هذه الاصناف ، بالاضافة الى اصناف اخرى ايجابية في صورتها كنماذج لفئات توجد في كل زمان وفي كل مكان . ومن هنا نواصل في مرحلة ثانية ، الكشف عن مواطن جديدة تبرز الارتباط الوثيق بين القصص القرآنية بمفاهيمها الأزلية ، واهميته بالنسبة لعالم المعرفة البشرية .

على أنه عند اتمام هذا الفصل ، نكون قد توصلنا الى المفهوم الاسلامي عن الانسان وتوجهاته عبر التاريخ ، واثر تلك التوجهات في تصوير شخصيته . مع العلم بأننا كنا قد ابرزنا في الفصل السابق ، المفهوم الاسلامي بالنسبة لمسألة الوحدانية ، والمسؤولية الفردية ، والخير والشر ، والثواب والعقاب بالاضافة الى امور اخرى تهم الانسان في تنظيم حياته وصقل شخصيته . إن كل هذا يمهد الطريق لاجراء مقارنة بين التوراة والقرآن بصدد عدة قضايا مستقاة من بعض القصص فيما يلي من فصول .

هذا وبالانتقال الآن للتركيز على موضوع الاصناف البشرية ، نرى أن تلك الاصناف ، كما ابرزت بالقصص القرآنية تضم الغني والفقير ، صاحب المهارات ، الرجل المفسد المتحكم بالقوم ، والشخص المستكين له . هذا بالاضافة الى الرجل المنحرف جنسياً ، والتاجر الملتوي في معاملاته ، والشخص المخادع ، والمنافق ، والقاسي القلب والعنيد وهلم جرا . فقصة نوح مثلا ركزت على صنفين من ابناء

http://kotob.has.it/

البشر ، الأغنياء وأصحاب النفوذ ، وبالمقابل الفقراء والضعفاء ، وأصحاب المبادىء والأخلاق . أما الشخص الذي ينتمي إلى الصنف الأول ، فقد أبرز كرجل يعيش لدنياه من دون الإهتمام بآخرته ، يرى المركز والخلود والحماية بالمال . وبهذا الاطار ، فقد كان يضع نفسه عاليا فوق كل من هو أقل منه مالا أو مركزاً دون حق . . . يزجر هذا ويستعبده ، ويحتقر طرائق تفكير ذاك . . . ويسخر منه . فالسياق القرآني قد صور جماعات من الملأ وهم يمرون قرب المكان الذي كان يصنع نوح السفينة به ، وذلك من أجل التحقير من شأنه ، والتقليل من قيمته ، والسخرية من عمله ، ولكن دون علم من جانبهم بأن سخريتهم واهية ، ضحلة ، تكشف عن تفاهتهم ، ولا تعود بالضرر إلا عليهم . وهذا ماحصل بالفعل ، فقد أخذهم الله تعالى بالطوفان بما عملت أيديهم . . أي أن العذاب الذي كانوا قد طلبوا الاستعجال به سابقاً ، قد صُبّ عليهم صباً بالوقت الصحيح الذي قضت به المشيئة الإلهية . وتجدر الإشارة هنا الى أن صفات الفئة المستكبرة من قوم نوح ، تتطابق في جوهرها مع صفات فئات كثيرة من أمثالها في كل الأزمنة . . . فالغني الذي يرى الخلود بالثراء المادي ، ويتخذ ذلك ذريعة لالحاق الأذى والضرر بغيره ، موجود في يومنا هذا مثلا . . . كما أن الإنسان القوي أو صاحب النفوذ الذي يحتقر ، ويستغل الضعيف موجود في كل مكان . . . وهكذا . أما فيما يتعلق بفئة المستضعفين التي شملت على ما يبدو الفقراء ، وأصحاب المبدأ والفضيلة من قوم نوح ، فقد كان الشخص منهم يتصف بالفطنة والذكاء بدليل اتجاهه نحو التقوى وطاعة الله تعالى وحده . ولقوة ايمان مثل هذا الشخص ، فقد كان يتصف بالتواضع في تصرفاته . والتواضع صفة عظيمة ، لأنها تشير إلى معرفة الإنسان المتصف بها ، بحجم مكانته كمخلوق تابع لواجب الوجود . على أن معرفة الإنسان بمكانته تدفعه للتصرف الحكيم ، وتزوده بالقدرة اللازمة للإبقاء على حبل التوازن بين العقل والعاطفة أو المادة والروح . وبهذا ينال الجزاء الحسن

هذا وبالتوجه الآن نحو قصة هود مع قومه عاد ، تبرز القصة تصويرا حياً لصنف آخر من أبناء البشر ، وهو صنف أصحاب المهارات من الصناع والحاذقين في فن البناء والنحت . فعلى عكس رجال قوم نوح من الملأ الذين لم يُقدروا قيمة الصناعة ، كما يظهر ذلك من تهكمهم على نوح ، وهو يصنع الفلك ، فالكثير من أفراد قبيلة عاد أدركوا أهمية هذه الزاوية في أحداث الرقي في وسائل العيش ، وربما يعود ذلك إلى

http://kotob.has.it/

التطور الزمني وبتقدمهم هذا ، فقد برعوا في البناء . ويبدو أن مدينة «أرم» التي أقيمت على اعمدة ، والتي وصفها القرآن بعدم وجود مثيل لها في البلاد ، قد بنيت بموجب حسابات دقيقة ، وهندسة راقية ، وذوق رفيع ، وقدرة عظيمة . على أن هذا يؤكد بأن عددا كبيرا من أفراد القوم عرفوا بالسعي وراء المعرفة وحب الاكتشاف في وقت مبكر من تاريخ الانسانية . وهذه كلها أمور ايجابية في الواقع . بيد أنه مقابل هذا التفوق العمراني القائم على التصنيع ، فالقصة تناولت مسألة الأثر الذي يخلفه التقدم العمراني على النفوس البشرية ، فانتقلت بذلك من الآفاق الايجابية إلى الآفاق السلبية ، إذ أظهرت ميلا بارزا من قبل هؤلاء وغيرهم نحو التباهي والتفاخر بمن يمتلك الأجمل والأثمن من الأبنية ، وجنوحا نحو ملذات الحياة وشهواتها بدون قيود ، إذن ، فمقابل صفات الذكاء ، والنشاط ، والرقي بفن البناء ، فقد عُرف رجل الصنف المذكور أعلاه بالفساد والضلال ، والحب الشديد للدنيا ومادياتها ، دون أي تقبل للدين ، وما يدعو اليه من مبادىء ومثل وفضائل . وما نستطيع أن نستنتجه هنا بأن انسان «عاد» الذي توصل إلى حياة متقدمة نسي فضل الله تعالى عليه ، ورمى بالدين بعرض الحائط ، وانساق وراء زينة الدنيا وبهجتها دون تفكير بمصيره أو بسبب وجوده في عالمنا الأرضي ، وبذلك لم يعد معنى لوجوده .

وعدا عن الصنف المذكور أعلاه ، فإن قصة صالح مع قومه أظهرت صنفين آخرين يشمل أولهما رؤساء القوم الذين ، كما يبدو عُرفوا بالفساد والضلال والغيّ ، والقدرة على التأثير على الغالبية العظمى من الناس . أما ثانيهما ، فيشمل الأكثرية من القوم الذين انساقوا وراء المتحكمين منهم بشكل أعمى ، فكانوا شركاء لهم في الضلال . هذا وأن قبولهم بذبح الناقة التي عقرها السفهاء منهم لدليل على استكانتهم لهؤلاء دون تفكير . فالقصة إذن ، زودت القارىء بصورة عن الشخص المتحكم الضال الذي لا يكتفي بضلاله ، بل ينشر الفساد بين الناس ، ومن ناحية أخرى ، فقد أعطت القصة صورة عن الإنسان العادي الذي لا يفكر بمصيره قطعياً ، ولا بأسباب وجوده ، وبذلك يبقى عرضة لأي تأثير خارجي عليه .

وبالاضافة إلى ما تقدم ، فمن الفئات البشرية الظالمة ، فئة الرجال الشاذين جنسياً من قوم لوط . فالرجل من هذه الجماعة الضالة كان يتصف بسيطرة الشهوة الجسدية

http://kotob.has.it/

المحضة عليه ، التي كانت بدورها تجعله يندفع كالمجنون لطلب الفاحشة دون أي وازع أخلاقي . وهذا الإندفاع الغير طبيعي يعود في جوهره إلى تغلب العاطفة على العقل لمثل هذا الشخص . فمن تسيطر عليه النزعات الشيطانية ، وتتملكه الشهوات ، ويصبح عبدا لأغلال الهوى ، يعيش من ثم في ظلالم دامس . إن فقدان التوازن بين العقل والعاطفة ، وعدم القدرة على كبح جماح النفس ، هو الذي دعا جماعة المنحرفين من القوم للهرع في حالة محمومة إلى بيت لوط ، عندما علموا بزيارة ضيوفه له . . .أمر سبب حرجا للوط ، فعمل جاهدا لايقاظ الفطرة السليمة في نفوسهم ، وذلك من خلال توجيههم نحو الجنس الآخر ، ودعوتهم لتقديم التقوى إلى الله تعالى ، واثارة النخوة فيهم . ولكن في خضم شهوات النفس العارمة ، لم يكترثوا لتوجيهاته ، وأصروا على مواقفهم المنكرة المناقضة لسنن الحياة في الزواج ! بيد أن الله تعالى أنقذ لوط برحمته بالقضاء التام على المنحرفين بقذفهم بالحجارة . . . هذا ما جرى في وقت مضى على الساحة البشرية ، ولكن ما جرى لم يقتصر على ذلك العصر ، بل تكرر خلال التاريخ . وما زال يتكرر حتى يومنا هذا .

وعدا عن صنف الرجال المنحرفين جنسياً ، فالقصص القرآنية تتحدث عن صنف آخر متصف بالالتواء من حيث المعاملات بالكيل والميزان . فقصة شعيب مثلا ركزت البحث على فئة التجار الذين تلاعبوا بالموازين وأخلوا بمبدأ الحقوق والواجبات . فالواحد من هؤلاء مثلا لم يكن ليكتفي بما هو حق له ، بل كان يتعدى على حقوق الآخرين ، يسلب أموالهم بخسة وجبن ، بكل وسيلة ممكنة . إن مثل هذا الشخص لم يكن ليشعر بأن عمله هذا بعيد كل البعد عن الأخلاقية ، بل كان يظنه مشروعا ، ويحارب من ثم ، كل من يحاول أن يوجهه نحو الطريق المستقيم ، ويشكك به ، ويطعن في أمانته لو اقتضى الأمر . هذا ما فعله القوم مع شعيب عندما دعاهم لضرورة الايفاء بالكيل والميزان . وتجدر الاشارة هنا الى أن حب جمع المال وتكديسه قد يدفع بصاحبه لفعل أي شيء من أجل تحقيق الهدف . فعندما يذهب وازع الضمير ويطغى حب المادة على الانسان يضحي أي شخص معني بالأمر ، بالمثل والفضائل في سبيل المتع بالحياة . وبوصولنا الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا الصنف من أبناء البشر موجود دوما على الساحة البشرية . فالانخداع بزينة الحياة الدنيا ومالها ، يجرف الكثيرين للتوجه نحو اختلاس هذا المال بكل طريقة . ولا بأس أن نذكر هنا بأن عرض

http://kotob.has.it/

صنف التجار المخادعين في قصة شعيب ، يرمي الى دفع الإنسان المخادع نحو ضرورة تطهير نفسه من دنس الاحتيال ، والاختلاس ، والسرقة ، بغية عدم الحاق الأضرار بالآخرين .

ولو انتقلنا الآن الى «قصة موسى مع فرعون وبني اسرائيل» ، نرى أنها في الجزء الأول المتعلق بفرعون وموسى منها ، فهي تزود القارىء بصورة حية عن شخصيات سياسية ، وشخصيات وصولية . فتبدأ بفرعون وتظهره كحاكم عنيد جبار يتخذ من القوة والبطش طريقا لتثبيت حكمه القائم على فكرة التأليه . ثم تكشف عنه وهو يتخبط أمام العواصف المثيرة التي جابهته عندما واجهه موسى . . فيضعف أمام الملأ الأشراف ، ويطلب مشورتهم بعد معاملتهم بلغة الأمر سابقاً ، ويبقي على سياسة البطش التي اتبعها ، ولكن في أعنف صورها ، ويكذب ، ويلتوي حتى يحصل على تأييد الغير إلى أن أخذ باليم . فأصبح عبرة لمن يعتبر . هذا بالنسبة لفرعون ، أما فيما يتعلق بفئة الملأ أو الأشراف المحيطة بفرعون ، فقد كان الواحد منهم متصفاً بالأنانية ، وحب السلطة ، والعمل على المحافظة عليها بكل وسيلة . ومن هنا كان يتقبل طلبات فرعون التي كانت توجه له «كأوامر» ، ببساطة ، ويأخذ بأكاذيبه دون أية محاولة لتمحيصها ، وينسى وازع الضمير حتى ولو رأى المعجزات أمام عينيه . أو بكلمة أخرى ، فمثل هذا الشخص كان لا يسعى إلا وراء تحقيق مكاسب ذاتية ومنافع شخصية ، ولو كان ذلك على حساب المبادىء والمثل والكرامة الإنسانية . أما من ناحية ثالثة ، فالقصة تعطي تصويرا حياً عن فئة السحرة . فالواحد منهم كان متميزا بالفن والإبداع ، بيد أنه كان يستغل تميزه هذا لتحقيق مآرب ذاتية له . فالسحرة استجابوا لدعوة فرعون لمجابهة موسى أمام جمع غفير من الناس ، ولكن بشرط مسبق ، وهو الحصول على المال والمركز إذا نجحوا في المهمة . على أن تلك الصورة النفعية الوصولية ، التي لازمتهم قبل المباراة وفي بدئها ، قد تحولت إلى صورة معاكسة تماما . فبرؤيتهم للمعجزات فقد أسلموا لوجه الله تعالى دون اي اكتراث لتهديدات فرعون بعد انحيازهم التام عنه . وبناء على ذلك ، فالواحد منهم كان متصفا بالكفر والعناد عن جهل في البداية ، ولكن عندما رأى الحقيقة أمامه ندم ، واستغفر الله تعالى ، وبهذا توجه بنفسه نحو المنحى الروحي والاخلاقي السليم قبل فوات الأوان .

ولكن بالتركيز على الجزء المتعلق بموسى وبني اسرائيل ، نرى أن القصة ، تكشف

http://kotob.has.it/

عن الأصناف التالية : الصنف المنافق الذي ينحاز عن الايمان في أول «فتنة» يبتلى بها . فقد اتجه قسم من بني إسرائيل بأنفسهم نحو عبادة عجل من ذهب ، متنكرين بذلك لعبادة الله تعالى الواحد الاحد ، بالرغم من أن هؤلاء عاشوا في عصر المعجزات ، وما يفترض أن يصحبه من تأجج روحي . فالواحد منهم كان يتذرع بالايمان للمصلحة ، فما أن يرى الذهب ببريقه ووهجه حتى ينسى المجال الروحي بكل سموه ، ويتجه بنفسه نحو عالم المادة ، ظناً منه أن سعادته تكمن في مثل هذا العالم . وباتجاهه هذا ، يتجرد من الأخلاقيات الضرورية للإنسان .

ومن الجدير بالذكر هنا ، أن القصة تظهر فيما يلي من احداث ، محاولة للتوبة من قبل بعض المرتدين الذين توجهوا لعبادة العجل المصنوع من الذهب . . . ولكن أية محاولة تلك ! ! محاولة نفاق مصحوب بالعناد والجهل والغرور المنبثق عن حب الدنيا فما أن ذهب هؤلاء لمكان التوبة حتى كشفت القصة عنهم ، وهم يطلبون رؤية الله تعالى جهرة كشرط للإيمان ! ! فالواحد من هؤلاء قد نسي ضعفه ومحدوديته كبشر ، وتطاول على الحدود اللاإلهية في ساعات كان من المتوقع أن تكون مخصصة للعابدة والتقوى للتفكير عما سلف ! ! وكأن هذا الانسان الذي تغلغل حب الذهب الى نفسه ظن بأن تعامله مع عالم الروح يخضع للأرقام والأعداد والمساومة وبهذا بلغ الذروة في التحدي فنال القصاص الذي هز كيانه ، وعرفه بمكانته الحقيقية ! !

وعدا هذه الفئة ، فقصة موسى مع بني إسرائيل كشفت عن فئة أخرى متصفة بالإنحراف والإلتواء المبني على جهل وغرور . فقصة البقرة ركزت على فئة مراوغة ظنت القدرة بالنفس على أن تعجز الله عزّ وجلّ ، فوقعت في شر أعمالها ، (راجع قصة البقرة) . وبالاضافة إلى ذلك ، فالقصة المذكورة أعلاه كشفت عن صنف جاحد بالنعم الإلهية ، أو صنف لا يرضيه أو يقنعه شيء في الحياة فلو احتاج الماء ، مصدر الحياة ، وحصل على ينابيع بمعجزة إلهية لنسى فضل الله تعالى عليه ، وضرب بكتفه عرض الحائط . . . ولو كان بحاجة الى الوقاية من شدة الحر ، وأرسل له الغمام لتظليل لنسي أيضاً فضل الله تعالى عليه . . . ولو نال أشهى الأطعمة وأرفعها في وقت ضيق وحاجة لطلب استبدال الطعام الشهي ، كالمن والسلوى ، بالطعام العادي الذي يمكن لأي إنسان أن يحصل عليه . فمثل هذا الشخص ، إذن لم يعرف قيمة النعمة الإلاهية فجحد بها . . . وربما زين له جهله وغروره رؤية النعمة من منظار

http://kotob.has.it/

الواجب ، وبهذا طغى وخرج عن الاخلاق والحدود الإنسانية . . .

وأخيراً تظهر قصة موسى مع بني إسرائيل صنفاً أنانياً للغاية ، متجمداً في عواطفه ، لا يرى حقاً بالعيش الكريم إلا لنفسه ، ومن هنا ، يسعى لبناء سعادته على شقاء وتشريد الآخرين . وهذا ما حصل مع هؤلاء الذين ذهبوا مع موسى إلى الأرض المقدسة . فالشخص منهم كان يرى وجوب اخراج أهالي البلاد منها قبل دخوله اليها . ولكن بما أن مثل هذا الطلب خارج عن الحدود الروحية ، ومخل بالموازين الأخلاقية ، ومبادىء العدل والحقوق الإنسانية ، فقد أمر الله تعالى بتشريد مثل هذا الشخص وجماعته حى يعودوا إلى رشدهم . وهذا يبرز العدل الإلهي المطلق .

بناء على ما تقدم ، نرى أن القصص القرآنية تناولت جانب التصوير الحي الأخاذ لعدة أصناف من ابناء البشر الذين وجدوا على الساحة الدنيوية خلال التاريخ . ومع أن هذه الأصناف ظهرت في أزمان محددة ، وبيئات معينة ، إلا أنها تشكل بلا شك نماذج لفئات توجد دائما على الساحة البشرية . وهذا بحد ذاته يؤكد «أزلية» القرآن الكريم . إن التصوير الموجز ، البالغ الروعة لتلك الأصناف أمر مثير للفكر والوجدان الانساني «فكأن» القارىء لتلك القصص يرى الاشخاص وهم ماثلون أمامه . . . يتابع تحركاتهم عن قرب . . . ويرى تعابير وجوههم بعينيه . . . ويستمع لأصواتهم التي قد يعلو ضجيجها أحيانا مع شعور أصحابها بالغرور والإستكبار ، والغطرسة ، والتحدي للمبادىء والفضائل والمثل . . ولكن ما أن ينتقل هذا القارىء بعقله ووجدانه من ماضي الإنسانية الى حاضرها ، ويفكر ويتأمل بما يجري من حوله على المسرح البشري الذي أصبح يشكل اليوم وحدة جغرافية مع التقدم التكنولوجي ، حتى يدرك بأن كثيرا من الأصناف البشرية التي يعرفها بالتجربة أو من خلال الاطلاع على الآداب العالمية المتعددة ، ما هي إلا نسخ متكررة عن الشخصيات المقدمة في القصص القرآنية . ومن أجل ذلك ، فقد تكون النفسيات واحدة لإنسان اليوم والأمس ، بالرغم من تقدم الأزمان وتغير البيئات . وهذا ، بحد ذاته أمر هام يدعو إلى التوقف والنظر بالأشياء . إن التشابه بالنفسيات يرتبط إما بالالتزام بالدين أو بعدم الالتزام به ، كقاعدة . فالشخص الملتزم بالدين والأخلاق والفضائل والمثل يتشابه في جوهر نظرته للأمور مع أمثاله من حيث التعقل والحكمة ولكن بدرجات طبعا . أما الشخص الذي يتحدى الدين ويسخر من الانبياء . فسماته تتشابه مع سمات أمثاله خلال التاريخ .

http://kotob.has.it/

ويجب أن نبين عند هذه النقطة ، بأن من عادة الإنسان في كل عصر أن يعتقد بأنه أكثر تمدنا بدرجات من انسان العصور السابقة . ولكن دراستنا عن القصة تؤكد بأن مثل هذا الاعتقاد مشوب بكثير من الاخطاء . فالتمدن كتعبير يعني الإرتقاء بالذات الإنسانية نحو الاعلى . . . أمر يحتاج إلى صفاء روحي ، ونقاء في الضمير ، وإيمان صادق ، وتمسك من ثم بالخلق العظيم الذي يدفع بصاحبه نحو التعامل مع الآخرين بطريقة متسمة باللطف ، والتهذيب مع احترام لشعورهم ، ولكرامتهم وحقوقهم . هذا من ناحية ، اما من جانب آخر ، فالكلمة تشير إلى تقدم الإنسان من النواحي العلمية والصناعية ، والعمرانية وغيرها . وبهذا الاطار ، فالكلمة تحمل معنى أخلاقيا في طياتها بالاضافة إلى معاني متعلقة بوسائل الرقي المادية ، أي أنها تجمع بين الناحية الروحية ، والجانب المادي .

ومن الجدير بالذكر هنا بأن الانسان قد يتوصل من خلال النظر والفكر والعلم إلى إكتشافات جديدة في كل عصر بحيث تميزه عن سابقه بحكم التطور العلمي . ولكن مثل هذه الاكتشافات التي تشمل نواحي الرقي المادي ، لا تتبع بالضرورة بإحداث رقي في النفس البشرية ، وسمو بالضمير الإنساني . فقد يكون الأمر على عكس ذلك تماما في كثير من الأوقات . فلو أخذنا العصر الحديث مثلا ، لقلنا بكل تأكيد بأن الساحة البشرية شهدت أعظم تقدم «علمي» و «تكنولوجي» خلال التاريخ ، ولكن هذا التقدم لم يرتق بالكثير من الأنفس أو الضمائر البشرية ، فلو نظرنا الى أكثر البلاد من الناحية التكنولَوجية نراها أكثرها انحطاطا من الناحية الأخلاقية بشكل عام . وذلك لأن تلك البلاد ألغت الاديان ، وشرعت الإباحية بشتى انواعها ، وأعطت حرية مطلقة للفرد ، بحيث فُقد المعنى السليم المختص بمبدأ الحقوق والواجبات ، فأصبح التعدي على حقوق الضعفاء من أفراد وأمم صغيرة أو ضعيفة ، حقا مشروعا للأمم المتقدمة . وبهذا أعيد إلى الساحة البشرية الفساد والظلم السابق . . . ذلك الظلم الذي ادى إلى الغضب الإلهي على أقوام نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، واقتلاعهم من الحياة .

بناء على ما تقدم ، فالنقطة الهامة التي يجب التركيز عليها هنا ، بأن التمدن الذي يعني «الرقي» يجب أن يَكون مبنيا على قواعد روحية وأخلاقية ، وعلمية ،

http://kotob.has.it/

وحضارية . فلو توفر الرقي التكنولوجي دون اكتراث للجانب الروحي والأخلاقي ، لفقدت كلمة التمدن الكثير من قيمتها ، ولتلاشت حتما معظم الفروق بين اقوام مسبقين ، وأمم حاضرة ، سارت على منهج روحي وأخلاقي ، مشابه في جوهره للأقوام الذين حق عليهم العقاب . ومن اجل ذلك ، فالتأمل بالمصير المخزي لمثل تلك الاقوام أمر في غاية الاهمية . فهو يحمل تذكيرا للإنسان بأن الله تعالى الذي لا يعجزه شيء يقف بالمرصاد للطغاة من افراد وجماعات ، وامم كبيرة . فلو أصرت مثل تلك الأمم على الإخلال بالموازين الروحية والأخلاقية بسبب الانبهار بالتقدم التكنولوجي ، فعليها أن تنتظر مصيراً مخزيا كمصير من سبقهم . إن الله تعالى ، الذي أنزل الرسالات السماوية من أجل سعادة الإنسان ، لا يرضى عن الظلم بكل أشكاله وأنماطه . فالظلم لا يتوافق مع السُنن والقوانين التي تسير الحياة بموجبها . ومن أجل ذلك ، فعندما يبلغ الظلم إلى حد الذروة ، يتدخل الله تعالى بشكل حازم ليضع نهاية له وليثبت العدل في الارض . وبهذا يطمئن الإنسان المؤمن المظلوم ، وتقر عينه ، ويرتاح فؤاده ، ويغمر الأمل حياته ثانية بعد قهر ، ويدرك بالتجربة أهمية الدين بالنسبة لكيانه ووجوده ومصيره . . .

ويجمل بنا أن نذكر ، عند هذه النقطة ، بأننا بالانتهاء من هذا الفصل ، نكون قد توصلنا الى «النظرية الاسلامية» التي تحدثنا عنها في «المقدمة» ، كما هي مستقاة من القصص القرآنية . هذا وطالما أننا وصلنا الى هذا الحد المنشود ، فلا بأس أن نتجه الآن الى «كتاب العهد القديم» لنجري مقارنة بين القرآن والتوراة بصدد بعض القصص ، وذلك لهدفين ، أولهما ، الكشف عن الاضافات التي أوردها القرآن فيما يختص بتلك القصص ، على اساس أن القرآن :

> لم يأت لنسخ التوراة ولا لنسخ الانجيل وانما جاء مصدقا
> لما بين يديه منهما ومضيفا اليهما ما أمره الله ان يضيف
> من العلم والدين .(١)

ثانيهما الكشف عن أي «تحريف» ورد في التوراة فيما يتعلق بالقصص الخاضعة للمقارنة ، على أساس أن القرآن الكريم اشار الى حدوث تحريف في التوراة والانجيل فيما يتعلق بقضايا دينية جوهرية .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ طه حسين ، المصدر السابق ، ص ١٢٧ .

http://kotob.has.it/

الفصل الثالث عشر

مقارنة بين القرآن والتوراة بصدد قصتي نوح ولوط مع قوميهما

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

إن الذي يقرأ قصص نوح ولوط وموسى في القرآن الكريم ، ويقرأ ما ورد بالمقابل بشأنهم في التوراة يلاحظ ثلاثة أمور أولهما : وجود نقاط مشتركة من حيث الجوهر ، ولكن مع اختلافات هنا وهناك بالتفاصيل تبعاً لنوعية التوجه في السياق العام للأحداث في كل منهم . ثانيهما ، هنالك نقاط وردت في القرآن من دون التوراة تهم الانسان فيما يختص بمسألة خلقه وكيانه ووجوده ومصيره ، والكثير منها يُبرز «الاضِافات» الواردة في القرآن على القصص التوراتية . ثالثهما هنالك نقاط إختصت التوراة بذكرها من دون القرآن ، وتختلف في مفاهيمها وتوجهاتها عن النظرة الروحية والأخلاقية الواردة في القرآن ، وبعضها خاضع «للتحريف» .

فإذا ركزنا البحث أولاً على قصة نوح فيما يتعلق بنقاط التشابه في الجوهر مع الاختلاف في التفاصيل ، نرى أن كلاً من القصة القرآنية والتوراتية وضعت مسألة تفشي الظلم والفساد «كخلفية» للأحداث ، بيد أن التوراة لم تتحدث تفصيلياً عن الاسباب في هذا الصدد . في حين أن القرآن كشف عن أسباب جوهرية . ولكن ومع ذلك ، فالقرآن لم يَعرض تلك الأسباب مباشرة ، بل تركها للقارىء لكي يستنتجها من خلال عرض لحوار كان قد أخذ مكاناً بين نوح والملأ أو الاشراف من القوم . فالقرآن عادة يُخاطب الانسان من خلال استخدام المنطق وأدواته بغية ترك المجال له للتوصل الى النتائج بفكره . هذا وأن الحوار بين نوح والملأ كان يشير الى مشكلة إجتماعية ناتجة عن إستعلاء طبقة على طبقة أخرى وحرمان الاخيرة من حق تقرير المصير ، ومن العيش الكريم . أو بكلمة أخرى ، فالحوار قد كشف عن هوة ساحقة بين الأقوياء أصحاب الثراء والنفوذ من جهة ، وبين الضعفاء والفقراء والمساكين من جهة أخرى . . . هوة أدت الى إنتشار الظلم ، والاخلال بموازين العدل ، بكل الآثار السلبية المترتبة عن ذلك في المجتمع السائد وقتئذ . هذا ، وبما أن الظلم كما كان سائداً في عصر نوح ، يُشابه الظلم الذي ساد في كثير من العصور التالية ، فالحوار بين نوح والملأ قد زود الانسان بأسباب جوهرية عن التصدع في مجتمع يقف كنموذج لغيره وبالتالي الحلول . هذا وإن الكشف عن الاسباب والحلول في قصة نوح القرآنية أمر هام فهو

http://kotob.has.it/

يُبرز أزلية القرآن . وبهذا الاطار نرى إختلافاً بارزاً بين التوراة والقرآن . فالقصة التوراتية بدت وكأنها تتحدث عن شيء مضى وانتهى ، في حين أن القصة القرآنية تحدثت عن شيء مضى ، ولا تزال أحداثاً مشابهة له تأخذ مكانً حاضراً ومستقبلاً ، وبهذا تركت الأبواب مفتوحة للاستفادة ، وأخذ العبر .

ولكن لو انتقلنا الآن من موضوع «الخلفية» لاحداث قصة نوح الى موضوع «أثر» تلك الخلفية في البعث على الغضب الالهي من الاشرار ، نرى أن السياق العام للأحداث توجه في كل من التوراة والقرآن نحو التركيز على الابلاغ الالهي لنوح لصنع الفلك كهيئة لإيجاد وسيلة للخروج من العقاب الالهي الذي ينتظر الكفار . ولكن فيما يتعلق بمسألة «صنع» السفينة نفسها ، فالقصة التوراتية عن نوح ، اعطت معلومات مفصلة عن طبيعة السفينة من حيث البناء والتركيب ، كما ورد في الاصحاح السادس ، تكوين ٦ :

> «فقال الله لنوح ـ اصنع لنفسك فلكاً من خشب جغر . تجعلُ الفلك مساكن . وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه . ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع كواً للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق وتضع باب الفلك في جانبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله»(١) .

اما فيما يختص بالقرآن الكريم ، فلم يأت بمثل تلك التفصيلات . ولكن بعض كتب التفسير اهتمت بهذا الموضوع . هذا ، والقرآن اكتفى بالاشارة للقارىء بأن صنع السفينة جاء ضمن «الوحي» والتعليمات الالهية لنوح . «والايجاز» هنا أمر «هام» ، لأنه يرمي بالواقع الى إثارة التفكير الانساني ، ودفعه نحو التوصل بنفسه لاستنتاجات عن نوعية السفينة من خلال الربط بين الاحداث . فعندما يقرأ الانسان عن قدرة السفينة الهائلة لشق طريقها بنجاح منقطع النظير من خلال موج عال كالجبال ، يدرك عندئذ بأن السفينة كانت «فريدة» من نوعها . ومهما يكن فاجتماع التوراة والقرآن في تأكيد الدور الالهي في تعليم نوح لصنع السفينة يذكر الانسان بأن إتمام صناعة شيء ما في اطار الرعاية الالهية المباشرة ، أعظم بدرجات من إتمام صناعة شيء بالاعتماد على

http://kotob.has.it/

العقل البشري وحده . على أن هذا يؤكد بدوره حاجة الانسان الدائمة لتلقي العلم من الله سبحانه وتعالى .

ومن صنع السفينة انتقلت كل من القصة التوراتية والقرآنية المختصة بنوح ، للحديث عن حمولة السفينة . واتفقت القصتان على النص القائل بالحمل فيها من كل زوجين اثنين ، ولكن مع وجود اختلافات هنا وهناك . فالتوراة بينت أن السفينة اشتملت على أهل نوح وآخرين غيرهم ، بالاضافة الى الحيوانات ، كما جاء في الاصحاح السادس ، تكوين ٦ :

«ولكن اقيم عهدي معك . فتدخل الفلك انت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك . ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك . تكون ذكراً وأنثى ، من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها . أثنين من كل تدخل اليك لاستبقائها . »[٢] .

أما القصة القرآنية ، فلم تذكر مثل تلك التفاصيل ، واكتفت بإظهار الأمر الالهي لنوح لأخذ أهله ـ إلا من حق عليه العذاب منهم ـ بالاضافة الى الفئة القليلة المؤمنة . اذن ، فالقرآن استثنى بعض أفراد عائلة نوح ، والاشارة هنا ، كما ذكر المفسرون ، لابنه الذي حزن على فراقه . فالسياق القرآني أظهر حواراً بين نوح وابنه ساعة إقلاع السفينة اتخذ طابعاً إنسانياً رائعاً انساب من خلاله الحنان الأبوي ، والخوف على مصير ابن انجرف مع تيار الكفر . ولكن مقابل هذه الانسانية الرقراقة من ناحية نوح ، أظهر الحوار تعنتاً وصلفاً وجحوداً من جانب الإبن الذي أغرق بالنتيجة والعبرة من هذا الحوار «الموجز» ، هو إظهار أن عنصري الخير والشر اللذين يكتنفان الساحة البشرية ، يبرزان بصورة مصغرة حتى في البيت الصغير . فهذا أب نبي بكل مركزه الروحي الخالص ـ وهذا ابن ضال كذب بالنبوة في بيت نبي ! ! فأخذ بالطوفان ـ فالعبرة هنا تتجسد في الكشف عن أهمية القصة القرآنية في إبراز الاختلاف في الاتجاهات وطرائق التفكير حتى بين الآباء والابناء ، وأثر ذلك في إثابة الانسان أو في عقابه .

ولكن لو انتقلنا الآن للحديث عن «الطوفان» في الكتابين المقدسين ، نرى أنه في

http://kotob.has.it/

صدد الحديث عنه ، ركز كل من كتاب التوراة والقرآن على القوة «الهائلة» لهذا الطوفان ، المرتفع بأمواجه الى حد بعيد . بيد أن التوراة استفاضت في تزويد القارىء بتفاصيل عن قوته وأثرها على الأحياء ، كما جاء في الاصحاح السابع ، تكوين ٧ :

«وكان الطوفان أربعين يوماً على الارض . وتكاثرت المياه ورفعت الفلك . فارتفع عن الارض . وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الارض فكان الفلك يسير على وجه المياه . وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الارض . فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء . خمسة عشر ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه . فتغطت الجبال . فمات كل ذي جسد كان يدب على الارض . . .»(٣) .

أما القرآن الكريم ، فقد أشار لمسألة قوة الطوفان بشكل «موجز» ، بحيث ترك المجال للذهن البشري ، لمرة أخرى ، لتصور هول الموقف ورهبته ، وما يمكن أن يكون قد اكتنف الذين اغرقوا من مشاعر ، وما سيطر عليهم من أفكار ، وندم ساعة مفاجئتهم بالعقاب بكل عنفوانه . فالهدف من الايجاز يكمن في الحث على الاثارة الفكرية بكل أهميتها في مجال أخذ العبر . هذا بالنسبة لموضوع قوة الطوفان كما عرضت في الكتابين المقدسين ، بيد أنه عند الانتقال للتحدث عن مسألة انتهاء الطوفان ، بعد غرق المغرقين ، ونجاة الناجين ، فقد تناول كتاب العهد القديم ظاهرة امتصاص الارض للمياه مبيناً بأن ذلك قد أخذ وقتاً ، وتحدث عن «علامات» في هذا الشأن ، منها ارسال الحمامة والغراب ، كما جاء في الاصحاح الثامن ، تكوين ٨ :

«وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها وأرسل الغراب . فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الارض . ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الارض . فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها . فرجعت إليه الى الفلك . لأن مياهاً كانت على وجه كل الارض . فمد يده وأخذها وأدخلها عنده الى الفلك . فلبث ايضاً سبعة ايام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك . فأتت اليه الحمامة عند المساء

http://kotob.has.it/

واذا ورقة زيتون خضراء في فمها . فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الارض . فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع اليه أيضاً»(٤) .

أما فيما يتعلق بالقرآن الكريم ، فالقصة تعطي انطباعاً بأن عملية «انتشال» الارض من الطوفان أتت بشكل سريع . والهدف هنا هو اظهار السيطرة الالهية التامة على الطبيعة . فكما جاء الامر الالهي للطبيعة للابتداء بفوران التنور ، ومن ثم غمر الارض بماء الطوفان بشكل سريع ، جاء الأمر الألهي لها للتوقف بسرعة مذهلة أيضاً . وهذا كله يبين بأن أمر الابتداء والانتهاء من الطوفان حدث بشكل خارق . على أن ذلك يبين بأن الله تعالى الذي وضع القوانين للطبيعة ، قادر على تخطيها . فهو الاله الأوحد للكون ، المتحكم بكل أموره ، والمدبر لشؤونه . وبهذا الاطار ، فالقصة القرآنية قد قررت مبدأ دينياً هاماً ، وهو خضوع الانسان والطبيعة لله تعالى ومشيئته ، وسننه الثابتة في الكون . على أن كل هذا يؤكد أهمية مبدأ الوحدانية .

وبالدخول الآن لموضوع الوحدانية نرى أن هذا الموضوع قد نال تركيزاً ملموساً في كل من التوراة والقرآن . ولكن التركيز القرآني كان أوسع كثيراً من حيث المدى ، لأنه شمل الافق النظري والأفق الواقعي بحكم الدور القرآني في الاضافة لما سبق من كتب مقدسة . ومن الجدير بالذكر هنا أنه ، كما بينا في الفصل السابق ، فالقرآن لم يأت لنسخ التوراة أو الأنجيل بل أتى مُصدقاً لهما ، ومحضراً إضافات جديدة تتماشى مع التطور الزمني والبيئي للانسان . ومن هذه الاضافات الاهتمام بمسألة الوحدانية من زوايا جديدة وربطها بقضايا روحية أخرى تهم الانسان في حياته الدنيوية والأخروية معاً . وبالاضافة الى ذلك فالقصة القرآنية تناولت مسألة الحرية الانسانية وربطتها بالعقلانية ، ونسبت الخير المحض الى الله تعالى ، والشر للانسان . ثم تناولت موضوع الحساب ، مبينة بأن الانسان يثاب ويعاقب بموجب أعماله أو سعيه ، وفرقت بين العقاب الجماعي الدنيوي ، والحساب الفردي الاخروي ، ومن جانب آخر ، ركزت على مبدأ السماحة في الدين ، ودعوته لاقرار مبادىء الحرية والعدل والمساواة في المجتمع . ثم وضعت للفرد الاخلاق والفضائل التي تحثه على اقرار هذه المبادىء ومنها : التفكير السليم ، والايمان المستنير الذي يُحليه بالتواضع ، والتسامح ، والايثار

http://kotob.has.it/

للغير ، والتضحية في سبيل المبدأ والواجب ، والصبر ، والثبات حتى النهاية .

وبهذه الاضافات الجوهرية ، فقد خرجت قصة نوح القرآنية من الطابع التاريخي البحت الى الطابع الازلي ، الصالح لكل زمان ومكان بمفاهيمه ومبادئه . فالقصة القرآنية لم تعد قصة لاحداث جرت في يوم ما وانقضت ، بل امتدت بعبرها ودروسها لتشمل الانسانية في كل عصورها ، كما بينا في وقت سابق .

هذا بالنسبة للافكار ، أما فيما يختص بأسلوب العرض لقصة نوح في كل من التوراة والقرآن ، فهنالك فروق شاسعة بينهما . ففيما يتعلق «بالعناصر» القصصية ، فالتوراة لم تبرز الا القليل في هذا الصدد . فقد تحدثت مثلاً عن «مشكلة» في البداية ، ثم بينت تفاعل نوح معها بشكل سريع . وبعد ذلك انتقلت للحديث عن «الحل» كما تجسد في الطوفان . على أن إظهار هذه النقاط جاء من خلال أسلوب «سردي» يتناسب مع الصبغة التاريخية البحتة المخصصة لتلك القصة في التوراة . أما فيما يتعلق بالاسلوب القرآني في عرض القصة ، فقد بدأ أولاً بتسليط الأضواء على «المشكلة» والأسباب التي أدت الى حدوث صدع في مجتمع قوم نوح ، ولكن بشكل حوار - حوار حدث بين نوح والاشراف من القوم كما ذكرنا سابقاً . وقد توجه الحوار - بين أمور أخرى - للتركيز على قوة نوح في جداله معهم ، ولكن مع تأكيد على إصرار الكفرة على التصدي والتحدي له ، بالرغم من كل وسائل المنطق المستخدمة في جداله معهم . هذا وقد أظهر السياق القرآني بأن الاصرار على عناد الكفار كان يؤدي تدريجياً الى الزيادة في تعقيد الأمور . وهذا بحد ذاته شكل عاملاً هاماً في «إثارة» شوق القارىء لمتابعة الأحداث بعقله ووجدانه الى أن وصلت الأمور الى «الذروة» من حيث التعقيد . وبهذا التدرج ، المصطحب بالانفعالات النفسية ، في بحث مسألة تطور الأحداث ، أتى الحل للمشكلة في قصة نوح . حل جازم ، تجسد «بالطوفان» الذي قضى على معالم حياة ماضية بأكملها . ولكن حتى هذه النقطة ، فلم تنته الأمور ، إذ أن القصة القرآنية مضت لتوجيه القارىء نحو النظر والتفكير والتأمل في «المسار» التاريخي للأحداث ، مع ربط ذلك بالروحانيات من جهة ، والماديات من جهة أخرى . فبينت أن الأمن والاستقرار الاجتماعي مرتبط بالروحانيات ، في حين أن الانحطاط ، وبالتالي اندثار أي مجتمع معني بالأمر مرتبط بالجنوح نحو حب المادة ،

http://kotob.has.it/

وملذات الدنيا . وبهذا حملت القصة القرآنية معها دروساً وعبراً لكل الاجيال ، وأغنت عالم المعرفة الانسانية بقضايا هامة مختصة بأسباب الرقي والانحطاط للمجتمعات البشرية .

حتى الان ، لقد تمّ التركيز بصدد موضوع المقارنة لقصة نوح في الكتابين المقدسين على نقاط جوهرية مشتركة بين التوراة والقرآن بالرغم من ابراز اختلافات في التفاصيل فيما يتعلق بتلك القصة . كما تمّ التركيز أيضاً على إضافات وردت في القصة القرآنية ، مع التقدم أيضاً بمقارنة بين اسلوب العرض للقصة في كل من الكتابين المقدسين . ويبقى أن نضيف هنا بأن هنالك نقطتان أختصت التوراة بذكرهما بشأن قصة نوح ، من دون القرآن ، وهما : أولا . بناء نوح مذبحاً للرب كما جاء في الاصحاح الثامن ، تكوين ٨ :

«وبنى نوح مذبحاً للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد مُحرقات على المذبح»(٥) .

أما النقطة الثانية ، فهي متعلقة بحياة نوح الشخصية ، ووردت كالآتي في الاصحاح التاسع ، تكوين ٩ :

«وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً ، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فابصر حام أبو كنعان عورة أبيه واخبر أخويه خارجاً . فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا الى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما الى الوراء . فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير»(٦) .

إن هذه القصة خارجة بشكل كلي عن المفهوم الديني للانبياء ومكانتهم ، وعليه فهي خاضعة «للتحريف» . فالأنبياء كما يظهرهم القرآن ، أشخاص متميزون بعلمهم ، وأخلاقهم الفاضلة ، ويشكلون «مثلاً» أعلى للاحتذاء بهم . فالله تعالى يصطفي الشخص المتميز بتفكيره السليم ، ونقاء روحه ، وصفاء نفسه ، وطهارة أخلاقه للنبوة ، ويلقي على كاهله التحذير من الشر واللاأخلاقية والظلم . ومن ثم

http://kotob.has.it/

الحث نحو الالتزام بقوانين ومثل وفضائل معينة تكفل للانسان حسن الثواب . وبهذا الاطار ، فالنبي يقضي حياته وهو يعمل كمبشر ونذير بكل جد وإخلاص وصبر وثبات حتى ساعة الفرج . إن نوح أظهر في هذا الاطار «الفاضل» في القصة القرآنية . فنوح قد بدأ في القرآن كنبي عظيم قضى جزءاً كبيراً من حياته وهو يحاول بكل صدق وإخلاص ، توجيه قومه نحو طريق الحق والنور والهدى ، مستخدماً في ذلك وسائل المنطق ، وقد كان يتكلم معهم كأب أو أخ حريص على إنقاذهم من براثن الجهل والكفر ، والاستكبار ، والظلم . ولكنه فشل من تحقيق الهدف مع الاكثرية . وهذا أمر غير مستغرب ، فالقرآن يُظهر بأن الهداية من أمر الله تعالى كما ورد في قوله الكريم :

(. . . . والله لا يهدي القوم الكافرين)(٧)

(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء . . .)(٨)

(. . .قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)(٩)

ومن الجدير بالذكر هنا الى أن نسبة الهداية لله تعالى يؤكد بأن هنالك حداً فاصلاً بين الالوهية والنبوة . فبالرغم من تميز الانبياء بعلمهم وأخلاقهم على باقي أبناء البشر فهم لا يستطيعون فعل كل شيء بحكم طبيعتهم كبشر . فالقدرة التي لا يحدها شيء ، لا تنسب الا الى الله تعالى ، خالق الوجود وكل ما فيه .

ويبقى أن نضيف أخيراً بأن نسبة حكاية لا أخلاقية لنوح ، كتلك المذكورة في التوراة تحط من منزلته المتميزة كنبي كريم ، عانى ما عاناه في سبيل حث القوم على الالتزام بالفضائل ! على أن الحط من قدره بهذا الشكل الغير مقبول قطعياً يقلل من أهمية ما ورد في القصة التوراتية من قيم قبل ورود تلك الحكاية في إطارها المفاجىء ! إن القيمة للقصة التوراتية تكمن في عدم وجود مثل تلك الحكاية المحرفة في آخرها . فالقصة التوراتية بدون هذه الحكاية المحرفة ، تدعو لفضيلة الايمان كطريق لتجنب العقاب ، تماماً كما هو الحال في القصة القرآنية .

وبالانتهاء من المقارنة المتعلقة بقصة نوح في الكتابين المقدسين ، نود أن ننتقل الآن الى قصة لوط لإجراء مقارنة أخرى . ومع هذا الانتقال ، نرى من الضروري أولاً العودة الى التحدث عن النقاط المشتركة بين التوراة والقرآن الكريم بالرغم من وجود

http://kotob.has.it/

اختلافات في التفاصيل بصدد تلك القصة . إن «الخلفية» للأحداث واحدة في كل من الكتابين المقدسين ، وهذه متمثلة في تصدع مجتمع وُجد في يوم ما على الساحة البشرية بسبب انتشار رهيب للشذوذ الجنسي بين الرجال في البلاد التي كان يسكن لوط بها ، مما دعا الى الغضب الالهي على القوم . فأرسل ملائكة في هيئة «رجال» الى بيت لوط كإنذار للقوم قبل إهلاكهم التام تمشياً مع السنن الروحية . ولكن ومع وجود هذا العامل المشترك بشأن ارسال الملائكة لبيت لوط في كل من القصة التوراتية والقرآنية : الا أن الكتابين المقدسين أظهرا إختلافاً بالنسبة «لعدد» الملائكة «ومعرفة» لوط أو «عدم» معرفته لهم منذ البداية . فالقصة التوراتية تحدد عدد الملائكة باثنين ، وتبين معرفة لوط لهما انطلاقاً من سجوده بوجهه الى الأرض عند رؤيتهم ، كما جاء في الاصحاح التاسع عشر ، تكوين ١٩ :

«فجاء الملاكان الى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم . فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه الى الارض»(١٠)

أما القصة القرآنية ، فلم تحدد عدد الملائكة ، والدليل على ذلك إستخدام كلمة (رسلنا) ، كما أنها لا تبين بأن لوطاً قد عرف ، في بداية الأمر ، بأن الضيوف كانوا رُسلاً من عند الله تعالى . ولكن وبالرغم من ذلك ، فالكتابان المقدسان تحدثا عن اندفاع محموم من قبل رجال القوم لبيت لوط ، عند علمهم بزيارة الضيوف هؤلاء له في بيته ، بيد أن التوراة زودت القارىء بحكاية عن حدوث «إشتباك» بين الرجلين اللذين دخلا الى بيت لوط ، وبين رجال القوم المحمومين في حين أن القرآن لم يتحدث عن ذلك ، فقد جاء ما يلي في الاصحاح التاسع عشر ، تكوين ١٩ :

«وقبلما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث الى الشيخ . كل الشعب من أقصاها ، فنادوا لوطاً وقالوا له اين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة . أخرجهما إلينا لنعرفهما . فخرج اليهم لوط الى الباب وأغلق الباب وراءه . وقال لا تفعلوا شراً يا إخوتي . هو ذا لي إبنتان لم تعرفا رجلاً . أخرجهما اليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . وأما

http://kotob.has.it/

هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لانهما قد دخلا تحت ظل سقفي . فقالوا ابعد الى هناك . ثم قالوا جاء هذا الانسان ليتغرب وهو يحكم حكماً . الآن نفعل بك شراً أكثر منهما . فألحوا على الرجل لوط جداً وتقدموا ليكسروا الباب . فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما الى البيت وأغلقا الباب . وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير الى الكبير ، فعجزوا عن أن يجدوا الباب»(١١) .

إن هذه الفقرة من التوراة تبين بأن لوطاً حاول أن يكبح جماح شهوة الرجل للرجل ، وذلك حين أشار إلى إبنتيه بقوله «فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم» . هذا والقصة القرآنية كالتوراة تؤكد من جهتها محاولة لوط لمنع معاشرة الرجل للرجل ، ولكنها توجه نحو الزواج في الاطار السليم (هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم)(١٢) . فكلمة أطهر المستخدمة في النص القرآني تؤكد ذلك . هذا من جهة ، ومن ناحية أخرى ، فالاستخدام القرآني لكلمة «بناتي» لم تذكر في إطار التحديد العددي كما هو الحال في التوراة . ويذكر بعض المفسرين للقرآن الكريم ، بأن الكلمة قد تشير إلى بنات القوم بشكل عام . وهذا التفسير يتماشى مع المنطق ، ومع المنهج الطبيعي لتكاثر النسل . فهنا عدد كبير من الذكور ، وهناك عدد كبير من الإناث ، والزواج «المشروع» بينهما يحفظ المجتمع من الإنهيار ، لأن المجتمع السليم يقوم على العائلة . ولكن هل أدرك الرجال من قومه الهدف النبيل الذي كان يسعى الى تحقيقه؟ بالنسبة لقوم فقدوا الحياء وانحدروا بنفوسهم الى المرتبة الحيوانية ، كان من المستحيل أن يستوعبوا المبادىء الإصلاحية التي أتي هذا النبي الكريم بها . وعليه مضوا في تحديهم له ولرسالته . ومن هنا حَقّ عليهم العقاب . هذا وعند عرض موضوع العقاب ، فإن القصة التوراتية والقرآنية المتعلقة بلوط تحدثت عن عقاب مريع بالنسبة لرجال القوم ، ولكن مع اختلاف في إظهار نوعية العقاب . فبينما تحدث القرآن عن قذف المجرمين بحجارة معلمة متتابعة من السماء قلبت المدن رأساً على عقب ، فقد تحدثت التوراة عن سقوط أمطار من الكبريت والنار من السماء ، كما ورد فيما يلي من الإصحاح التاسع عشر ، تكوين١٩ :

«وإذ اشرقت الشمس على الأرض دخل لوط الى صوغر .

http://kotob.has.it/

فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض»(١٣) .

ولكن بالرغم من أن القصة التوراتية ركزت على مسألة العقاب الالهي لقوم لوط بسبب شذوذ الرجال من القوم ولا أخلاقيتهم ، نراها ، كما كان الحال مع قصة نوح سابقاً ، تحضر حكاية لا أخلاقية متعلقة بعلاقة لوط مع إبنتيه بعد رحلة النجاة ، والحكاية تلك عرضت كالتالي في الاصحاح التاسع عشر ، تكوين ١٩ :

«وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وإبنتاه معه . لأنه خاف أن يسكن في صوغر . فسكن في المغارة هو وإبنتاه . وقالت البكر للصغيرة أبونا قد شاخ وليس في الارض رجل ليدخل علينا كعادة كل الارض . هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه . فنحيي من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضجعت مع أبيها . ولم يعلم باضجاعها ولا بقيامها . وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضجعت البارحة مع أبي . نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي اضجعي معه . فنحيي من أبينا نسلاً . فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً . وقامت الصغيرة واضجعت معه . ولم يعلم باضجاعها ولا بقيامها . فحبلت إبنتا لوط من أبيهما . فولدت البكر إبناً ودعت اسمه موآب . وهو أبو الموآبيين الى اليوم . والصغيرة أيضاً ولدت إبناً ودعت اسمه بن عمي . وهو أبو بني عمون الى اليوم»(١٤) .

إن هذه الحكاية المتعلقة بحياة لوط الخاصة لا تتناسب مع منهج معظم أحداث القصة كما وردت في التوراة ، كما أنها تتخالف مع منهج الرسالات السماوية كلها لإنحرافها عن المثل والفضائل الدينية . بالنسبة لكتاب التوراة ، فقد أظهر لوطاً في بعض أجزاء القصة وهو يعمل جاهداً لكبح جماح شهوة رجال قومه نحو بعضهم البعض . أي أنه أظهر وهو يعمل جاهداً لصدهم عن طريق الشذوذ الجنسي . وتحمل

http://kotob.has.it/

من اجل ذلك ما تحمل ، وتعرضت حياته للخطر كما بينت الحكاية المختصة بإشتباك الملائكة مع الرجال من القوم كما ذكر سابقاً . إن الرجل الذي يعرض حياته للخطر من أجل المبدأ . من أجل حماية المجتمع من الشذوذ . . . لا يمكن أن يقدم على إرتكاب أعمال شاذة ، منحرفة تسير باتجاه معاكس لكل الفضائل والمثل الروحية التي كان يقوم بتبليغها . وبناء على ذلك ، فالقصة تدخل في إطار «التحريف» بكل تأكيد . ثانياً ، فيما يتعلق بالرسالات السماوية ، فالنبي يحتل مكانة روحية وأخلاقية خاصة بحكم منزلته ومكانته التي تعلو على الناس العاديين . ولو تأملنا بالقصة القرآنية ، لرأينا أنها تبرز لوطاً «كنبي» كريم يسعى بكل جهده للإصلاح الإجتماعي ، بقوة ايمانه ، وبعد نظره ، وقوة إرادته وتضحيته ، وصبره ، وثباته حتى النهاية . ومن زاوية أخرى ، فالقصة القرآنية تظهره «كإنسان» فاضل ذاق الكثير من مرارة الشعور بالحياء والخجل والحرج بسبب تصرف أبناء قومه اللاأخلاقي . وهذه الصورة القرآنية النبيلة عن لوط ، تدحض أي «إفتراء» ضده ، بقصد تشويه سمعته ، ومن ثم ، هز الثقة بالرسالات السماوية التي تأمر الانسان بوجوب الإمتثال لقوانين وأحكام معينة لمنع تسرب الرذيلة الى الحياة الفردية وحياة الجماعة الانسانية .

هذا من حيث الاختلاف في المعاني بين التوراة والقرآن . أما فيما يختص بالأسلوب فهنالك إختلاف أيضاً بينهما يتبع إعجاز القرآن . ذلك الكتاب الذي أنزل بالنص على رسول الله محمد (صلعم) ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . إن قصة لوط القرآنية إبتدأت بعرض لمشكلة أخلاقية تسير في اتجاه مخالف للمسار الطبيعي للحياة وشاركتها القصة التوراتية في ذلك . ولكن إختلافاً بين القصة في الكتابين تبلور في حضور «الملائكة» الى بيت لوط . فبينما كان مجيئهم مصطحباً بجو من «الغموض» في القصة القرآنية ، فلم يكن الامر كذلك في القصة التوراتية كما بيّنا سابقاً ، مع العلم بأن «الغموض» يشكل أحد العناصر الأساسية التي تبعث على «الإثارة» و «التشويق» في مجال القصة . إن عدم علم لوط بحقيقة «الرسل» ، قد بعث على إثارة جو من القلق الشديد والكآبة في نفسه الى حد الشعور بالضعف ، والتمني من ثم الى الالتجاء لركن شديد لدفع الضرر ، والحرج عنه . على أن إنفعالات لوط النفسية تلك تنعكس على القارىء الذي يجد نفسه وهو يقرأ الاحداث بشغف ، ويترقب اللحظة التي يعلم بها لوط عن حقيقة الملائكة حتى يفرج عن كربه بعد تأزم

http://kotob.has.it/

الأحداث ، ووصولها الى حد الذروة . ولكن ما أن يكشف الملائكة للوط عن حقيقتهم بقولهم . (إنّا رسل ربك لن يصلوا اليك)(١٥) . ويأمره بمغادرة المكان ليلاً على أساس أن التدمير للقوم آت في الصباح ، حتى يشعر القارىء بالانفراج . فهو يشارك لوطاً في إنفراجه . ويتنفس الصعداء عند علمه بالتدمير الشامل للمكذبين .

إن قصة لوط كما قُدمت في القرآن ، عملت على «التنفير» من رذيلة الشذوذ الجنسي من خلال وصف للنفسية المريضة ، وقلة الحياء والخجل للمنحرفين من القوم . وقد شاركتها القصة التوراتية في ذلك الى حد ما . ولكن «التحريف» الذي أوردته فيما يختص بحياة لوط مع ابنتيه ، قد أضاع الكثير من أهمية ما جاء بشأن المنحرفين من القوم فيها .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ الكتاب المقدس ، كتب العهد القديم والعهد الجديد (الشرق الاوسط : دار الكتاب المقدس ، ١٩٨٥) ، التكوين ، الاصحاح السادس ، نص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ص . ١١ .

٢ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح السادس ، نص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ص . ١١ .

٣ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح السابع ، نص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ص . ١٢ـ١٣ .

٤ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح الثامن ، نص ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ص . ١٣ .

٥ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح الثامن ، نص ٢١ ، ص . ١٤ .

٦ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح التاسع ، نص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ص . ١٥ .

٧ ـ ٢٦٤ البقرة ٢ .

٨ ـ ٢٧٢ البقرة ٢ .

٩ ـ ١٤٢ البقرة ٢ .

١٠ ـ الكتاب المقدس ، التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، نص ٢ ، ص . ٢٧ .

١١ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، نص ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ص ص .٢٧ ـ ٢٨ .

١٢ ـ ٧٨ هود ١١ .

١٣ ـ الكتاب المقدس ، التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، نص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ص ص . ٢٨ ـ ٢٩ .

http://kotob.has.it/

١٤ ـ المصدر نفسه ، التكوين ، الاصحاح التاسع عشر ، نص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، + الاصحاح العشرون ١ . ص ٢٩ .

١٥ ـ ٨١ هود ١١ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

الفصل الرابع عشر

مقارنة بين القرآن والتوراة

بصدد قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

هذا وبالانتقال الآن الى قصة «موسى مع فرعون وبني إسرائيل» بصدد موضوع المقارنة بين الكتابين المقدسين ، فمن الملاحظ أنه بالرغم من وجود بعض التوافق في تسلسل الأحداث بين التوراة والقرآن ، إلا أن هنالك اختلافات جوهرية في التفاصيل تتبع بشكل كبير المفهوم للإله وصفاته بالاضافة الى مسألة حرية الاختيار الانسانية ، والخير والشر وقضايا هامة أخرى وردت في الكتابين المقدسين .

إن القصة ابتدأت في كل من الكتابين المقدسين بإعطاء «خلفية» للأحداث ، وهذه تشمل ظلم فرعون وطُغيانه بوسائل عديدة . بيد أن الحديث في هذا الصدد جاء بشكل موجز في القرآن . «والايجاز» هنا يهدف الى التنفير من حكم الفرد المستبد الظالم على مدى الازمنة والامكنة ، لأنه يقوم على التأليه للحاكم ، وما يترتب عن ذلك من عواقب وخيمة في حياة الأمم والأفراد . أما التوراة فقد تحدثت عن موضوع ظلم فرعون بشكل مفصّل ، إتخذ صبغة «تاريخية» ، «قومية» ، «وعاطفية» . هذا وفي الحديث عن ظلم فرعون ، أوردت كل من القصة القرآنية والتوراتية مسألة الفتك بأطفال بني إسرائيل ، كتقدمة أو عرض للظروف التي ولد فيها موسى ، ثم تحدثت القصة في الكتابين المقدسين عن تربية موسى الى فترة ما في قصر فرعون ، ولكن دون تحديد لها . وبعد ذلك تدرجت القصة في القرآن والتوراة الى الحديث عن حياة موسى بعد خروجه من القصر وقتله للقبطي الى نقطة إختلافه مع شخص عبراني . ولكن بينما ذكر القرآن بالتخصيص بأن هذا الشخص العبراني ، هو نفس الشخص الذي كان قد طلب النجدة من موسى ضد القبطي المقتول دون قصد ، فالتوراة لم توضح إذا ما كان نفس المفهوم ينطبق فيها تماماً . هذا وقد أورد كتاب التوراة ما يلي في الإصحاح الثاني ، خروج ٢ ، في هذا الصدد :

«وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج الى إخوته لينظر في أثقالهم . فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته . فالتفت الى هنا ورأى أن ليس أحد

http://kotob.has.it/

> فقتل المصري وطمره في الرمل . ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان . فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك . فقال من جعلك رئيسا وقاضيا علينا . أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري . فخاف موسى وقال حقاً قد عُرِفَ الامر»(١) .

وبعد ذلك مضت القصة في كل من القرآن والتورة لتكشف عن هروب موسى الى مدين خوفاً من بطش فرعون بعد قتله للقبطي ، وزواجه هناك . ولكن بينما ذكر القرآن بأنه تزوج من ابنة شيخ كبير (إسمه شعيب في كتب التفاسير)(٢) كان قد سقى لها ولأختها المواشي عند بئر مدين في يوم تزاحم شديد على الماء ، ذكر كتاب التوراة بأنه تزوج من إبنة كاهن «مديان» الذي كان له سبع بنات ، كما ورد في الإصحاح الثاني ، خروج ٢ :

> وكان لكاهن مديان سبع بنات . فأتين واستقين وملأن الأجران ليسقين غنم أبيهن . فأتى الرعاة وطردوهن . فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن . فلما أتين الى رعوئيل أبيهن قال ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم . فقلن رجل مصري أنقذنا من أيدي الرعاة وأنه إستقى لنا أيضاً وسقى الغنم . فقال لبناته وأين هو . لماذا تركتن الرجل .إدعونه ليأكل طعاماً ، فارتضى موسى أن يسكن مع الرجل ، فأعطى موسى صفورة إبنته»(٣) .

هذا وقد تحدث القرآن عن عقد بين الشيخ الكبير وموسى كما بينا في فصل سابق . ولكن التوراة لم تتحدث عن ذلك . وكان العقد يقتضي إنجاز موسى لأعمال خصصها الشيخ له لمدة ثمان سنوات إلزاماً أو عشر إذا احب موسى ذلك .

والقصة القرآنية أظهرت فيما بعد وفاء موسى بالالتزام وخروجه من مدين للعودة الى مصر ، حيث رأى في الطريق ناراً ، وعندما ذهب للإستقصاء عنها . أفاض الله تعالى عليه «بالتكليم» حيث اختاره للنبوة . هذا والقصة التوراتية تحدثت عن أمر التكليم أيضاً وذلك عندما أوردت ما يلي في الإصحاح الثالث ، خروج ٣ :

http://kotob.has.it/

«وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر وإذا العليقة تتوقد النار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى . فقال ها أنذا . فقال لا تقترب الى ههنا . إخلع حذائك من رجليك . لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدسة»(٤) .

على أنه بشأن الأمر الإلهي لموسى لخلع نعليه ، لوقوفه في أرض مقدسة مطهرة ، فقد ورد مثله بالقرآن أيضاً . ولكن عندما جاء الكلام المختص بمواضيع دينية أخرى لموسى ، فقد ظهرت اختلافات جوهرية بين القرآن والتوراة . فالتكليم الالهي لموسى في الوادي المقدس ركز قبل كل شيء على المبادىء التالية : وجوب طاعة الله تعالى وحده ، وإقامة الصلاة لذكره ، ثم الايمان بالبعث واليوم الآخر والحساب بموجب الاعمال ، مع حث لموسى على عدم الالتفات الى من لا يؤمن بالساعة . إن هذه الأوامر التي ركزت على مبدأ الوحدانية والعبادة والحساب كانت ترمي في جوهرها الى تهيئة موسى لمجابهة فرعون بإيمان وعلم وشجاعة ، دون خشية إلا من رب العالمين . فالأوامر من هنا قدمت في الإطار الشمولي الذي يخص جميع أبناء البشر في كل الأزمنة والأمكنة . ولكن لو اتجهنا الى القصة التوراتية نرى أنها تناولت موضوع الوحدانية من بين النقاط الواردة في القصة القرآنية . ولكن ضمن اطار يختلف عن الاطار القرآني الى حد بعيد . فالله تعالى في القرآن هو الاله الواحد الأحد رب العالمين المتحكم بمصير العباد أجمعين ، والذي يحاسبهم بموجب سعيهم أو اعمالهم . أما كتاب التوراة فقد أبرز الله تعالى كالاله المختص ببني إسرائيل وحدهم ، بأحزانهم ، وصراخهم فهم «شعبه» ، الذي كان يقاسي في مصر من ظلم فرعون . وبهذا الصدد ورد ما يلي في الإصحاح الثالث ، خروج ٣ :

«ثم قال انا أبيك إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب . فغطى موسى وجهه لأنه خائف أن ينظر الى الله . فقال الرب إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر وسمعت

http://kotob.has.it/

صراخهم من أجل مسخريهم . إني علمت أوجاعهم(٥) .

هذا وفي سبيل إنقاذ بني إسرائيل من الظلم فقد أوردت القصة التوراتية بأنه تم الاختيار الالهي لموسى لإخراج شعب بني إسرائيل من مصر ، كما جاء فيما يلي في الإصحاح الثالث ، خروج ٣ : .

«فالآن هلم فأرسلك الى فرعون وتخرج شعبي بني اسرائيل من مصر»(٦) .

وبالاختيار الالهي لموسى في مهمة قومية ، مكتنفة بالصعوبات والمخاوف ، مضت القصة التوراتية للتركيز على جزع موسى وخوفه من عدم تصديقه من قبل قومه أولاً ، وبالتالي من قبل فرعون . وعليه أتى دور الجانب «العلمي» في القصة . جانب المعجزات لإعطاء الدليل على مصداقيته . هذا وقد جاء هنا ذكر المعجزتين «العصا» «واليد البيضاء» اللتين أتى ذكرهما في القصة القرآنية ولكن مع اختلافات قليلة ، هنا وهناك ، فمثلاً بشأن المعجزة الثانية المتعلقة بإدخال يد موسى في جيبه ، فقد خرجت بيضاء ، دون مرض أو برص ، على حسب القصة القرآنية . أما بموجب النص التوراتي فقد خرجت برصاء مثل الثلج كما ورد في الإصحاح الرابع ، خروج ٤ :

«ثم قال له الرب أيضاً أدخل يدك في عُبك . فأدخل يده في عُبه . ثم أخرجها وإذا يده برصاء مثل الثلج . ثم قال له رد يدك الى عُبك . فرديده الى عبه . ثم أخرجها من عبه وإذا هي قد عادت مثل جسده»(٧) .

وعند هذه النقطة أظهرت القصة التوراتية إختلافاً آخر عن القصة القرآنية ، وذلك عندما تحدثت عن قول الهي لموسى يقتضي بسكب ماء على اليابسة ، وتحويله بالتأييد له الى دم كدليل آخر للقوم على مصداقيته . كما ورد ذلك في الإصحاح الرابع خروج ٤ :

«ويكون إذا لم يصدقوا هاتين الآيتين ولم يسمعوا لقولك إنك تأخذ من ماء النهر وتسكب على اليابسة فيصير الماء الذي تأخذه من النهر دماً على اليابسة»(٨) .

http://kotob.has.it/

هذا بالنسبة للمعجزات ، ولكن عندما أتى الوقت للحديث عن المواجهة مع فرعون ، والطلب منه لإخراج بني إسرائيل من مصر في كل من القرآن والتوراة ؛ إتخذت القصة القرآنية اتجاهاً مختلفاً في البداية عن الاتجاه التوراتي ، ثم اجتمعتا بعض الشيء من حيث المنحى للأحداث ، ثم افترقتا الى حد بعيد في النظرة لكثير من الامور . عند ذهاب موسى لفرعون لتأدية الرسالة الالهية كما ورد ذلك في القرآن ، فقد توجه أولاً إلى الحديث عن مفهوم الوحدانية لفرعون ، انطلاقاً من رفض الأخير له بسبب نسبة التأليه لنفسه . ففي شرحه لسؤال فرعون القرآني (وما رب العالمين)[٩] . بين له بأن رب العالمين هو رب الكون ، رب البشرية جمعاء ، المتحكم بالطبيعة ، المسير لها بحركة النور والظلام .مظهراً بذلك الحد الفاصل بين الالوهية والبشرية . فالله تعالى قادر على فعل كل أمر ، مالك كل شيء ، متحكم بمصير العباد ، وفرعون خاضع له ، فلا يغتر ، ولا يعلو في الأرض دون حق . وبهذه المقدمة التي عالجت الأمور في الاطار «الشمولي»«العقلاني» ، اتجه السياق الى الناحية العملية ، ناحية «المعجزات» ، لإعطاء دلائل وبراهين حسية لفرعون إنطلاقا من إصراره على التكذيب . وبهذا فخلافا للقصة التوراتية ، فالناحية العملية أتت في إطار التدرج «المنطقي» لبحث قضايا دينية في القصة القرآنية .

هذا وبصدد الاحداث المتعلقة بمواجهة موسى وهارون لفرعون ، وما جرى قبل ذلك لإعدادهم للمهمة ، فالقصة التوراتية أوردت ما يلي في الاصحاح السابع ، خروج ٧ :

> «فقال الرب لموسى انظر . أنا جعلتك إلها لفرعون .
> وهارون أخوك يكون نبيك . أنت تتكلم بكل ما آمرك .
> وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه»[١٠] .

إن هذه النصوص التوراتية تعني بأن الله تعالى قد وضع موسى في مكانة أعلى من مكانة فرعون . فهو يتلقى العلم من الله تعالى بصدد مشكلة فرعون مع بني إسرائيل ، ولكن أخاه هارون هو الذي يكلم فرعون بصدد إخراج بني إسرائيل من مصر ، بيد أن ذلك يسري الى نقطة معينة . إذ أن الاحداث التوراتية أظهرت تعاوناً بين

http://kotob.has.it/

موسى وهارون بشأن مواجهة فرعون المباشرة فيما بعد، ثم ركزت على موسى وهو يتحادث مع فرعون في مراحل غطرسة هذا الحاكم الأخيرة . ولكن في عرض المرحلة الأولى من الإحتكاك بفرعون، أظهرت التوراة بأن هارون هو الذي قام بطرح عصاه أمام فرعون كما ورد في الإصحاح السابع، خروج ٧ :

«طرح هارون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده فصارت ثعباناً . فدعا فرعون ايضاً الحكماء والسحرة . ففعل عرافوا مصر أيضاً بسحرهم كذلك . طرحوا كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين . ولكن عصا هارون ابتلعت عصيّهم، فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب»(١١) .

«ومع هذه النصوص التوراتية، برز اختلاف آخر بين القصة التوراتية والقرآنية عن موسى . فالقرآن ذكر بأن معجزة «العصا»، ومعجزة «اليد البيضاء» قد تم القيام بهما من قبل موسى بتأييد من الله عز وجل أمام فرعون، وذلك عندما أبدى فرعون إصراره على تكذيب موسى بشأن شرحه لعبارة «رب العالمين» القرآنية، كما ذكرنا أعلاه . على أن القصة القرآنية أظهرت أيضاً بأن فرعون لم يحضر السحرة، إلا بعد استشارته للملأ . فقد ظن هؤلاء الخاصة بحكم عدم قدرتهم على التفريق بين المعجزات والسحر، بأن السحرة قادرون على الوقوف أمام معجزات موسى . هذا وعندما أتى وقت المباراة، أظهرت القصة القرآنية بكل وضوح بأن السحرة تمكنوا من سحر عيون الناس واسترهابهم، عندما خيلوا لهم «بحيلهم»بأن الوادي امتلأ بالثعابين والحيات المتراكمة، وذلك عند إلقائهم للعصي . ولكن خديعتهم تلك ذهبت سدى عندما ألقى موسى بعصاه، بوحي من الله تعالى ،فالتقفت كل عصي السحرة . وهذا أدى الى إلحاق هزيمة ساحقة بهم، دفعتهم للإعتراف بفشلهم، والتوجه، من ثم للإيمان بالله تعالى، الذي لا يحد علمه شيء . وبهذا المنهج، فالقصة القرآنية بينت «بطلان» السحر كمبدأ يشمل كل زمان ومكان، وهنا نشأ اختلاف آخر بين القرآن والتوراة كما سنبين في الفصل القادم . ولكن بالعودة الى القصة التوراتية عن موسى، نرى أنها بعد تركيزها على اشتداد قلب فرعون كما هو مبين أعلاه، مضت لتتحدث عن أمر الهي لموسى بالذهاب الى فرعون، وتهديده

http://kotob.has.it/

بتحويل الماء الذي في النهر الى دماء بالاضافة الى أمر آخر يقتضي بإعطاء هارون مهامه في هذا الصدد ، كما ورد في الإصحاح السابع ، خروج ٧ :

«ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دما فيكون دم في كل أرض مصر في الاخشاب وفي الاحجار . ففعل هكذا موسى وهارون كما أمر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر أمام عيني فرعون وأمام عيون عبيده . فتحول كل الماء الذي في النهر دماً . ومات السمك الذي في النهر وأنتن النهر . فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماء من النهر . وكان الدم في كل أرض مصر . وفعل عرّافوا مصر كذلك بسحرهم . فاشتد قلب فرعون فلم يسمع لهما كما تكلم الرب»(١٢) .

إن هذه الحكاية بتفاصيلها ، لم تَردْ في القصة القرآنية عن موسى ، ولكن القرآن يشير الى إنزال تلوث بالمياه وقتئذ بَالدم . وذلك بسبب إصرار آل فرعون على التكذيب ، بالرغم من إصابتهم بكوارث أخرى ، كعقاب لهم من السماء ، يقول تعالى :

(فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين (١٣) .

ولكن بالعودة الى القصة التوراتية ، نرى أنها قدمت «تفاصيل» أخرى بشأن إرسال كوارث على فرعون وشعبه ، فتحدثت عن إرسال للضفادع والبعوض عليهم ثم الذباب ، وإماتة مواشيهم من دون مواشي بني إسرائيل . هذا بالاضافة للتحدث عن كوارث أخرى مرسلة على المصريين ، كما ورد في النصوص التالية من الإصحاح التاسع ، خروج ٩ :

«ثم قال الرب لموسى وهارون خذا ملء ايديكما من رماد الأتون

http://kotob.has.it/

وليذره موسى نحو السماء أمام عيني فرعون . ليصير غباراً على كل أرض مصر ، فيصير على الناس وعلى البهائم دمامل طالعة ببثور في كل أرض مصر . فأخذا رماد الأتون ووقفا أمام فرعون وذراه موسى نحو السماء . فصار دمامل بثور طالعة في الناس وفي البهائم»(١٤) .

ولكن بالرغم من كل هذه الكوارث التي دفعت فرعون لإستدعاء موسى وهارون عدة مرات للصلاة الى الرب ، لإنقاذهم منها ، ورفع الضرر عنه وعن شعبه من قبل الرب ، فقد بينت القصة التوراتية بأن فرعون كان يعود الى قسوته وطغيانه ، ومن ثم إصراره على عدم إخراج بني إسرائيل من مصر . وبهذا تتابع إرسال الكوارث على المصريين ، من دون الإسرائيليين ، منها الكارثة التالية الواردة في الإصحاح التاسع ، خروج ٩ :

«ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون برد في كل أرض مصرعلى الناس وعلى البهائم وعلى كل عشب الحقل في أرض مصر . فمدّ موسى عصاه نحو السماء ، فأعطى الرب رعوداً وبرداً وجرت نارٌ على الارض وأمطر الرب برداً على أرض مصر . فكان برد ونار متواصلة في وسط البرد . شيء عظيم جداً لم يكن مثله في كل أرض مصر منذ صارت أمة فضرب البرد في كل أرض مصر جميع ما في الحقل من الناس والبهائم . وضرب البرد جميع عشب الحقل وكسر جميع شجر الحقل . إلاّ أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل فلم يكن فيها برد»(١٥) .

وبعد التحدث عن كارثة البرد والنار مضت القصة التوراتية للكشف عن مزيد من الكوارث فعمدت الى إلقاء الضوء على كارثة إرسال الجراد على تخوم فرعون بسبب قسوة قلبه ورفضه لإخراج بني إسرائيل من مصر بالرغم من رفع الضرر عنه ، وعن شعبه ، بعد رجاء منه لموسى وهارون بالصلاة الى الرب . هذا ، وقد جاء ما يلي بشأن إرسال الجراد في الإصحاح العاشر ، خروج ١٠ :

http://kotob.has.it/

«ثم قال الرب لموسى مُدّ يدك على أرض مصر لأجل الجراد . ليصعد على أرض مصر ويأكل كل عشب الأرض كل ما تركه البرد . فمد موسى عصاه على أرض مصر . فجلب الرب على الارض ريحاً شرقية كل ذلك النهار وكل الليل . ولما كان الصباح حملت الريح الشرقية الجراد(١٦) .

ولكن أزاء صلف فرعون ، وقسوة قلبه بعد رفع الضرر عنه لمرة أخرى ، فقد ذكر كتاب التوراة بأن الله تعالى آيّد موسى بإرسال ظلام دامس على أرض مصر لمدة ثلاثة أيام ، ظهرت آثاره لمرة أخرى على المصريين ، من دون الإسرائيليين كما ورد في الإصحاح العاشر ، خروج ١٠ :

«ثم قال الرب لموسى مد يدك نحو السماء ليكون ظلام على أرض مصر . حتى يُلمس الظلام . فمد موسى يده نحو السماء فكان ظلام دامس في كل أرض مصر ثلاثة أيام . لم يُبصر أحد أخاه ولا قام أحد من مكانه ثلاثة أيام . ولكن جميع بني إسرائيل كان لهم نور في مساكنهم»(١٧) .

على أن القصة التوراتية بيّنت فيما يلي من أحداث ، بأن فرعون أبقى على صلفه تجاه بني إسرائيل . وبما أنه لم يتعظ من كل ما مر عليه وعلى شعبه ، فقد قال الرب لموسى ما يلي ، كما ورد في الإصحاح الحادي عشر ، خروج ١١ :

ثم قال الرب لموسى ضربة واحدة أيضاً اجلب على فرعون وعلى مصر .

بعد ذلك يُطلقكم من هنا . . .»(١٨)

يتضح مما تقدم أعلاه بشأن العقاب المنزل على فرعون وأتباعه إنطلاقاً من ظلمه لبني إسرائيل بأنه قد تم تقديم الموضوع في إطار «تفصيلي» يتناسب مع المفهوم التوراتي للإله المختص ببني إسرائيل ومشاكلهم ووسائل إنقاذهم من همومهم . ولكن لو انتقلنا الآن الى القصة القرآنية بصدد موضوع العقاب نفسه ، نرى إختلافاً بارزاً من حيث الأسلوب . فموضوع العقاب هذا قدم بشكل موجز للغاية في القرآن ويتمثل

http://kotob.has.it/

في الأخذ الإلهي لآل فرعون ، بتوالي القحط عليهم للذكرى والاتعاظ ، ثم إرسال السيول عليهم لإهلاك زرعهم ، والجراد لاجتياح ثمرهم ، ثم إرسال القمل والضفادع لكي تمتلىء بيوتهم بها ، والدم لإحداث تلوث في مياههم كما جاء في كتب التفسير ، كما تحدث القرآن أيضاً عن كشف الرجز عنهم ، بلجوئهم لموسى للدعاء لله تعالى ، لإنقاذهم بموجب استعداد من جانبهم للدخول في طاعة الله تعالى . ثم تلي ذلك بذكر سريع عن النكث بالعهود من قبل هؤلاء ، واستحقاق العقاب عليهم ، كما جاء في الآيات التالية :

(ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز الى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)(١٩) .

إن الحديث القرآني «المقتضب» عمّا نزل بفرعون وآله من رجز يرمي بالواقع إلى إقرار مبادىء تهم الانسان في كل وقت ، دون دخول بتفصيلات تاريخية . فالهدف هنا هو «الفكرة» ، وليس «التاريخ» ، وما التاريخ بصدد مشكلة فرعون مع بني إسرائيل إلاّ أداة أو عربة لنقل تلك الفكرة الإنسانية . على أن الفكرة هنا تمثلت كالآتي . إن الحكم الذي يقوم في قواعده على الظلم المتجسد في الدعوة لتأليه الحاكم ، والمتمثل ، من جراء ذلك ، بإلحاق الأذى بجماعة رفضت الإمتثال لدعوة الحاكم هذا ، لا يدوم . فالله تعالى قادر على إلحاق الخزي بمثل هذا الحاكم- ومن يحذو حذوه عبر التاريخ- بكل سهولة ، وفي الوقت الذي يختاره بحكمته الفائقة وعلمه اللامحدود . على أن الخزي الذي يلحق بهؤلاء الحكام وتابعيهم لا يقع في الإطار الأخروي فقط ، بل يشمل الدنيا أيضاً ، حيث يتخذ مراحل متتابعة يكشف فيها الله تعالى عن عجز ، وضعف ، وضعضعة هؤلاء الحكام في كل مجال ، بالرغم مما يظهرونه من صلف وعناد واستعلاء . وما فرعون إذن إلا نموذج لحاكم متغطرس جبار عنيد ، وما بنو إسرائيل إلا مثل للوقوع في حبائل ظلمه وجبروته ، وقد يجري ما جرى ، بالنسبة لفرعون وبني إسرائيل لأقوام أخر في شتى الأزمنة والأمكنة .

http://kotob.has.it/

حتى الآن ، لقد تحدثنا عن الفترة الممتدة من ولادة موسى الى حين هلاك فرعون وجنوده في اليم . ويقي علينا أن ننتقل للحديث عن الفترة التالية ، وهي فترة التيه والردة لبني إسرائيل من خلال إجراء مقارنة بين التوراة والقرآن بصددها . بالنسبة لهذه الفترة ، فمن الملاحظ أنه بالرغم من تغطية لأحداث مشتركة في كل من الكتابين المقدسين . إلا أن الاطار الذي قدمت به الأحداث يكشف عن وجود إختلاف كبير في بعض المفاهيم العقائدية بين القرآن والتوراة . وذلك يتبلور في الحكايات المتعلقة بإطعام بني إسرائيل وسقايتهم وهم في التيه إضافة الى حكايتهم مع الأرض المقدسة ، فمثلاً ، عندما قدم موضوع تزويد بني إسرائيل بالطعام بالقرآن ، أثناء وجودهم بالصحراء ، فقد ورد ذلك في إطار التركيز على العطاء الالهي اللامحدود لجماعة رعاها الله بعين عنايته حين أنقذها من ظلم فرعون المستطير . أو بكلمة أخرى ، فقد تم تقديم الموضوع من خلال إبراز العلم الالهي بأحوال العباد ورحمته بالمظلومين ، وعطفه عليهم . ولكن مع كل هذا العطاء الالهي الذي يستوجب شكر العبد لربه ، فالقصة القرآنية كشفت عن جحود بني إسرائيل بالنعم الالهية وعن عدم تقدير لها . أما في كتاب التوراة فقد اتخذت القصة اتجاهاً مختلفاً في تفسيرها لإنزال المن والسلوى على بني إسرائيل . فالقصة لم تبين بأن إنزال هذا الطعام الشهي من السماء أتى في إطار الرحمة والرعاية لهم ، بل أظهرت بأنه جاء من خلال «تذمر» هؤلاء الشديد لموسى وهارون وتوجيه «اللوم» لهما لاخراجهم من مصر ، حيث كانوا يأكلون «لحماً للشبع» على حد تعبيرهم . فكأن موسى وهارون قد أخرجاهم بظنهم من مصر لإماتتهم من الجوع . وبهذا المعنى ، ورد ما يلي في الإصحاح السادس عشر ، خروج ١٦ :

> «ثم ارتحلوا من إيليم واتى كل جماعة بني إسرائيل الى برية سين التي بين إيليم وسيناء في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر . فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية . وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع . فإنكما أخرجتمانا الى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع»(٢٠)

http://kotob.has.it/

ويجدر الذكر هنا الى أن كلمة «تذمر» تشير بشكل عام الى عدم قناعة الانسان من شيء ما : وقد يكون التذمر إيجابياً أو قد يكون سلبياً ، فالايجابي يعتمد عادة على قواعد سليمة ، أما السلبي فينطلق من عدم الرضى بشيء . والتذمر ، كما وررد في النصوص المذكورة هنا ، سلبي بطبيعته ، لأنه يحمل لوماً لموسى وهارون في وقت كان قد بذلا فيه كل جهد ، وتحملا الكثير في سبيل تخليص شعبهم من الذل . فالتذمر هنا مقترن اذن بالجحود بالنعمة ، وليس له علاقة بالشكوى التي يتوجه بها الانسان المظلوم بقلب سليم الى الله تعالى لطلب العون منه . ومهما يكن من أمر ، فعلى حسب القصة التوراتية عن موسى ، فقد بينت بأن تذمر بني إسرائيل أتى بالفائدة عليهم ، ونالوا مرادهم من الطعام ، كما يظهر من النصوص الآتية ، من الاصحاح السادس عشر ، خروج ١٦ :

«وقال موسى ذلك بأن الرب يعطيكم في المساء لحماً لتأكلوا وفي الصباح خبزاً لتشبعوا لاستماع الرب تذمركم الذي تتذمرون عليه . وأما نحن فماذا . ليس علينا تذمركم بل على الرب . وقال موسى لهارون قل لكل جماعة بني إسرائيل اقتربوا الى أمام الرب لإنه قد سمع تذمركم . فحدث إذ كان هارون يكلم كل جماعة بني إسرائيل أنهم التفتوا نحو البرية .وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب . فكلم الرب موسى قائلاً . سمعت تذمر بني إسرائيل . كلمهم قائلاً في العشية تأكلون لحماً وفي الصباح تشبعون خبزاً . وتعلمون أني أنا الرب الهكم»(٢١) .

وبهذه النصوص يبرز اختلاف واضح بين القصة القرآنية والقصة التوراتية المتعلقة بإطعام بني إسرائيل . فمع أن القصة القرآنية أشارت مراراً الى جحود بالنعم الالهية من قبل الكثيرين من بني إسرائيل بعد خروجهم من أرض الفراعنة ، إلا أنها لم تتحدث ، بشكل قطعي ، عن أي قول لموسى عن تزويد بني إسرائيل بمطالب لهم ، من قبل الله تعالى عن طريق التذمر . وذلك لأن تزويدهم بما يطلبون بواسطة التذمر يعني بالواقع تطاول هؤلاء على الحدود الالهية ، ورضوخ الله تعالى لهذا

http://kotob.has.it/

التطاول . وهذا أمر مرفوض قطعياً بالمفاهيم القرآنية ، لأن الله يعلو على كل شيء ، ويتحكم بكل شيء بحكمة وعلم ورحمة شاملة ، ولا يعجزه شيء بالسماء ولا في الارض عندما ظن بعض أبناء بني إسرائيل بأنهم قادرون على اعجاز الله تعالى في حكاية «البقرة» القرآنية التي قدمت سابقاً ، وضعهم الله تعالى في «أحرج» موقف ممكن . . وعندما تطاول الكثيرون منهم على موسى ، برفضهم للدخول بالأرض المقدسة وأهلها فيها ، وقولهم له : امض للقتال أنت وربك ، أما نحن فسوف نمكث هنا ، دعا موسى الله تعالى ، لكي يفرق بينه ، هو وهارون ، وبين القوم الخارجين عن أوامره ، كما ورد في الآيات الكريمة الآتية :

(قالوا يا موسى إنا لن ندخلها ابداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . قال رَب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)(٢٢) .

ونتيجة لتذمرهم ، ووضع شروط تمثل تحدياً وتخطياً لأوامر الله تعالى ، فقد بينت القصة القرآنية بأن هؤلاء الضالين عوقبوا بما قدمت أيديهم كما جاء في قوله الكريم : (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين)(٢٣) .

بناء على ما تقدم ، فالنقطة الاساسية التي يجب التركيز عليها هي ، أن التذمر القائم على الجحود بالنعم الالهية والتطاول على الحدود المرسومة للبشر ينتهي «بالعقاب» الصارم ، ولا ينتهي بنيل المطالب فالله تعالى بكماله لا يخضع لأهواء مخلوقاته بل هو الذي يخضع كل شيء لإرادته . وضمن هذا المفهوم الروحي ، فمما لا ريب فيه بأن ما ورد بشأن تحقيق مطالب لبني إسرائيل عن طريق التذمر ، وما ورد عن موسى بشأن قوله «ليس علينا تذمركم بل على الرب» ، أمور تخضع للتحريف .

هذا فيما يتعلق بحكاية إطعام بني إسرائيل وهم في التيه ، ولكن عند الإنتقال لعرض مسألة الحصول على الماء بالنسبة لبني إسرائيل ، في القصة التوراتية ، بعد خروجهم من أرض الفراعنة ، فقد جاء هذا العرض في إطار «مشابه» في جوهره لما ورد بشأن الطعام ، كما يظهر من النصوص الآتية من الإصحاح السابع عشر ، خروج١٧ :

http://kotob.has.it/

«ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل من برية سين بحسب مراحلهم على موجب الرب ونزلوا في رفيديم . ولم يكن ماء ليشرب الشعب . فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب . فقال لهم موسى لماذا تخاصموني . لماذا تجربون الرب . وعطش هناك الشعب الى الماء . وتذمر الشعب على موسى وقالوا لماذا اصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش . فصرخ موسى الى الرب قائلا ماذا أفعل بهذا الشعب . بعد قليل يرجمونني . فقال الرب لموسى مر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل . وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب . ها انا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب . ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ اسرائيل . ودعا اسم الموضع مسة ومريبة من أجل مخاصمة بني إسرائيل ومن اجل تجربتهم للرب قائلين أفي وسطنا الرب أم لا»(٢٤)

إن هذه الحكاية تختلف في جوهرها عما ورد في القصة القرآنية بشأن أمر تفجير المياه لسقاية بني اسرائيل وهم في الصحراء . فالحكاية التوراتية تشير للمرة الثانية الى أن حصولهم على الماء جاء نتيجة لتذمرهم ، وما حمله ذلك من تطاول روحي واخلاقي من قبل بني إسرائيل . على أن هذا التطاول إزداد عن قبل في تلك الحكاية وهو في أوجه يظهر في العبارة الاخيرة من النصوص المذكورة أعلاه ، «ومن أجل تجربتهم للرب قائلين أفي وسطنا الرب أم لا» . إن هذه العبارة التوراتية تشير الى امتحان موجه من قبل بني إسرائيل للرب ، وذلك للتأكد من وجوده بينهم ، وتلبيته لحاجاتهم ، إنطلاقاً من تذمر من جانبهم لموسى ، بسبب عدم وجود ماء للشرب . على أن النصوص التوراتية تبين بأن موقفهم المتعلق بالتجربة للرب كان مرفوضاً من ناحية موسى بدليل قوله لهم «لماذا تجربون الرب» كما ذكر أعلاه ، وبدليل قوله لهم في وصايا في الاصحاح السادس ، تثنية ٦ :

«لا تجربوا الرب إلهكم كما جربتموه في مسة»(٢٥) .

http://kotob.has.it/

فلو أبقينا هذه المعلومات التوراتية في ذهننا وانتقلنا الى القرآن ، لرأينا من المناسب أن نكرر بأن القرآن يشير مراراً لتحدي العدذ الأكبر من بني إسرائيل لموسى ، إضافة الى تطاولهم أو تخطيهم للحدود المقررة لهم كبشر دون أي وازع روحي أو اخلاقي . ويظهر ذلك جلياً على سبيل المثال في الآية التالية التي ذكرت سابقاً :

(. . .فأذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون)(٢٦) .

إن التحدي هنا مقترن بالجحود وعدم التقدير للنعم الالهية ، والاثانية ، والرغبة في تسخيركل شيء لبني اسرائيل ولصالحهم بالرغم من مخالفة ذلك للسنن الثابتة التي تسير الحياة بموجبها . ولكن التحدي المتمثل في مسألة «التجربة» للرب . كما وردت في الحكاية التوراتية عن تذمر بني إسرائيل للحصول على الماء ، لم تأت في القصة القرآنية عن موسى وهذا امر طبيعي يمشي مع الحدود التي وضعها القرآن لابناء البشر . فالقصة القرآنية عن موسى تؤكد في كل جزء منها قدرة الله تعالى اللامحدودة على هؤلاء القوم تماماً مثل غيرهم ، وتشير إلى عقاب متواصل موجه ضدهم لتحديهم ولتخطيهم للحدود البشرية . إن القصة القرآنية تبرز بكل تأكيد بأن الله تعالى الخالق لكل شيء ، المدبر لأمر كل شيء ، العالم بكل صغيرة وكبيرة ، القادر على كشف أي أمر مخفي بجزم وحزم وقوة لا تعلوها قوة ، لا يخضع بجلاله وكماله لإمتحان من قبل مخلوقات وضعهم على وجه الأرض «للإبتلاء» ، «والحساب» لموجب سعيهم . ومن أجل ذلك ، فالقصة القرآنية عن بني إسرائيل قد وضعتهم في مكانتهم الصحيحة كبشر في حين أن الحكاية التوراتية المتعلقة بسقايتهم قد خرجت عن المألوف في بعض مفاهيمها الروحية والاخلاقية ، على أن ذلك يشكل دليلاً واضحاً على خضوع مثل تلك المفاهيم «للتحريف» .

هذا بالنسبة للحكايات المتعلقة بإطعام وإسقاء بني إسرائيل وهم في الصحراء كما وردت في كتاب التوراة والقرآن ، ولكن عند الانتقال الآن الى حكاية بني إسرائيل المتعلقة بتقديسهم «للعجل» المصنوع من الذهب ، فمن الملاحظ أن هنالك إختلافاً جوهرياً بين القصتين .إن كلاً من القصة القرآنية والتوراتية بينت بأن موسى قد ذهب الى الجبل لتلقي الألواح ، وترك هارون مكانه . وفي أثناء غيابه إنحازت فئة كبيرة عن عبادة الله الواحد الأحد الى عبادة عجل مصنوع من ذهب . ولكن بينما ارجعت

http://kotob.has.it/

القصة القرآنية صناعة العجل الى السامري ، فقد أرجعت القصة التوراتية صناعته إلى هارون ، كما ورد في النصوص الآتية من الإصحاح الثاني والثلاثين ، خروج ٣٢ :

«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل إجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا . لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب الذي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وآتوا بها الى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصور بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً . فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه . ونادى هارون وقال غداً عيد للرب . فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب»(٢٧) .

إن هذه الصورة التوراتية عن هارون ، تختلف إختلافاً كلياً عما ورد عنه في القرآن فيما يختص بحكاية بني إسرائيل من عبادة العجل . فالقصة القرآنية تحدثت عن هارون كنبي كريم . بذل أقصى جهد ممكن لمنع المرتدين من بني إسرائيل من عبادة العجل الذهبي الذي صنعه السامري لهم من جهة ، كما أنه عمل على الحفاظ على الوحدة بين الشعب من جهة أخرى ، ولكنه بالرغم من ذلك فلم يستطع كبح جماح المرتدين عن عبادة العجل الذهبي أثناء غياب موسى ، بيد أنه مع وجود هذا الفرق بصدد حكاية السقاية ، فقد تحدث كل من كتاب التوراة والقرآن عن تلقي موسى لنبأ إرتداد فئة من قومه من قبل الله تعالى . وقد جاء النبأ كالتالي في القرآن الكريم :

(قال فإنا فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري)(٢٨) .

ومن هذه النقطة أظهرت القصة القرآنية موسى ، وهو عائد الى قومه ، في حالة من الغضب الشديد معاتباً ومهدداً إياهم ، لفداحة فعلتهم المتمثلة في عبادة العجل . أما القصة التوراتية ، فقد اختصت بعرض حوار بين الله تعالى وموسى من دون القرآن ، وذلك بعد تلقي موسى لنبأ فساد شعبه ، الذي اصعده من أرض مصر ، حيث

http://kotob.has.it/

قدم ذلك الحوار كالآتي في الإصحاح الثاني والثلاثين ، خروج ٣٢ :

«وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة . فالان اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم . فأصيرك شعباً عظيماً . فتضرع موسى أمام الرب إلهه . وقال لماذا يا رب يحمي غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة . لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك . إذكر إبراهيم وإسحق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء واعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيملكونها الى الأبد . فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه»(٢٩) .

إن هذا الحوار «المقتصر» على التوراة يختلف كلياً بمفاهيمه عن المفاهيم القرآنية بالنسبة لمنزلة الرسل والأنبياء ، وعلاقتهم بالله عز وجل . فالقرآن يعين منزلة خاصة للأنبياء والرسل ، بحكم اختيارهم من قبل الله تعالى لتبليغ الرسالات السماوية ، واتباعها بدقة تامة ، وبكل صدق ، وإيمان عظيم . إن النبي في القرآن لا يجادل الله تعالى في حكمه على الأشياء ، لأن الحكم الالهي متصف «بالكمال المطلق» . ولو أن القرآن أشار الى ما يشبه عتاب من جانب نوح لربه بسبب إغراق إبنه ، في لحظات سيطرة عواطف الأبوة عليه ، فقد جاء ذلك في إطار «الإيمان الشديد» ، «والإذعان التام «للمشيئة» الالهية ، والتراجع الفوري وذلك بسبب قوله تعالى له :

(قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين)(٣٠)

فإذا أبقينا هذه المعلومات في ذهننا ، وعدنا ثانية إلى الحوار بين موسى والله تعالى كما قدم في كتاب التوراة أعلاه ، نرى أن هذا الحوار يخترق الحاجز ، أو الحد الفاصل

http://kotob.has.it/

بين النبوة والالوهية كما أبرزه القرآن . فموسى هنا يتحادث مع الله تعالى ، جلت قدرته ، في إطار لا يتناسب كلية مع الاحترام له كخالق للكون : «ارجع» ، «اندم» ، «اذكر» . . . ويتكلم معه وكأنه إنسان يغضب ، وينسى ، ويتصرف بخبث ، ثم يندم على أقواله الموجهة الى «شعبه» الذي ارتكب خطأ بعبادته للعجل !! ويتراجع عنها !! لكن يجب التأكيد هنا بأن الله تعالى فوق هذا كله ، وهو كما وصف نفسه بالقرآن الكريم :

. . .(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(٣١) .

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير)(٣٢) .

وبالاضافة الى ذلك ، فيجب أن نؤكد أيضاً بأن الله تعالى هو رب الخير المحض في حين أن الشر والظلم من عمل الانسان الذي يتبع وساوس الشيطان ونزعاته ، كما ورد في قوله العزيز :

. . .(فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)(٣٣) .

(إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون)(٣٤) .

(ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد)(٣٥) .

إن القرآن يبرز بكل وضوح بأن حكم الله تعالى هو الحكم الحق ، الذي لا تراجع فيه ، ولا ندم عليه ، لأنه صادر عن الكمال . وعند هذه النقطة يحسن بنا أن نحضر قصة عقاب ثمود إلى الإذهان ، لأنها تعطي دليلاً من ضمن دلائل أخرى ـ بأن الله تعالى لا يخاف عقبى أمر بانزال عقاب بقوم . عندما عقر الطغاة من قوم ثمود الناقة التي أمروا بعدم التعدي عليها ، غضب الله تعالى عليهم ، وأنزل عليهم عقاباً شديداً لم يفلت منه أحد من المجرمين ، كما ورد في قوله الكريم :

(فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها)(٣٦) .

هذا ولوضع حد فاصل بين العمل الالهي المتصف «بالكمال» ، والعمل الانساني المتصف «بالنقص» بحكم الطبيعة البشرية ، ورد النص القرآني :

(ولا يخاف عقباها)(٣٧) .

http://kotob.has.it/

في حين أن الانسان الذي يصدر حكماً على شيء قد يخاف من عواقبه ، لأن الحكم قد يكون معرضاً لخطأ فادح بحيث يؤدي الى إلحاق الظلم بالآخرين ، في كثير من الأحيان ، فالله تعالى لا يخشى عاقبة أي حكم قضى به لإنزال عقاب بقوم . فحكمه يمثل الكمال المطلق ، ويوجه نحو محق الشر والظلم وتثبيت العدل ، ونشر الخير وتعديل الموازين التي يتلاعب بها الظالمون من ابناء البشر .

بناء على كل ما تقدم ، وبالرجوع ثانية الى النصوص التوراتية المتعلقة بعرض الحوار المذكور أعلاه بين الله تعالى وموسى ، فمن الواضح أنها تخضع «للتحريف» بكل تأكيد ، لأنها تعطي صورة غير صحيحة عن الله تع"ى وصفاته ، وعن علاقة موسى به . فهي تنسب الشر لله تعالى ، وتنفي العدل عنه ، وتصوره كإنسان يتراجع عن أمر قضى به ، ويندم من أجل الحفاظ على شعور ومصالح بني إسرائيل ، شعبه ! ! تعالى الله بجلاله وكماله ، عن كل ذلك .

هذا فيما يرتبط بالفروق الجوهرية المتعلقة ببعض المفاهيم المختصة بحكاية بني إسرائيل والعجل الذهبي في التوراة والقرآن . ولكن لو انتقلنا الآن الى الجزء المتعلق بمفهوم الوعد لبني إسرائيل بالارض المقدسة في التوراة والقرآن نلاحظ الاختلافات الجوهرية التالية . في الوقت الذي تخصص فيه التوراة الوعد بالارض المقدسة لبني إسرائيل «الى الابد» حسب التعبير في هذا الكتاب المقدس ، وفي الوقت الذي تضع فيه التوراة حدوداً للأرض المقدسة ، وتخصص ذكر الاقوام التي وعد بنو إسرائيل بالحلول مكانها ، وتشير الى أمر إلهي بطرد تدريجي للسكان الأصليين للأرض . فالقرآن يتخذ موقفاً معاكساً . هذا وان الموقف التوراتي من هذه النقاط الثلاثة يظهر في النصوص الآتية :

> اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثرُ نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الارض التي تكلمت عنها فيملكونها الى الابد . فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه(٣٨) . الاصحاح الثاني والثلاثون ، خروج ٣٢ .
>
> اذهب واجمع شيوخ اسرائيل وقل لهم الرب إله آبائكم إله

http://kotob.has.it/

ابراهيم واسحق ويعقوب ظهر لي قائلا إني قد افتقدتكم وما صنع بكم في مصر . فقلت أصعدكم من مذلة مصر الى ارض الكنعانيين والحثيين والآموريين والفرزيين والحويين واليبوسين الى ارض تفيض لبناً وعسلاً(٣٩) الاصحاح الثالث ، خروج ٣ .

وارسل امامك الزنابير فتطرد الحويين والكنعانيين والحثيين من امامك . لا اطردهم من أمامك سنة واحدة لئلا تصير الارض خربة فتكثر عليك وحوش البرية . قليلاً قليلاً اطردهم من امامك الى ان تثمر وتملك الارض . واجعل تخوفك من بحر سوف الى بحر فلسطين ومن البرية الى النهر . فإني ادفع الى ايديكم سكان الارض فتطردهم من امامك .

لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهداً . لا يسكنوا في ارضك لئلا يجعلوك تخطىء الي . . . (٤٠) الاصحاح الثالث والعشرون ، خروج ٢٣ .

إن هذه النصوص التوراتيةالمحرفة كما سنشرح بتفصيل ، والتي تفيض تعابيرها بكل معاني «الظلم» ، تبطل كل معاني الجمال والسلام على الارض ، وتلغي الهدف الجليل من وجود الحقيقة ووجود الاديان السماوية . وهي تتخالف مع الموقف القرآني الذي يؤكد مراراً وتكراراً وجوب اقرار «الحق» «والعدل» على الارض ، ومحق «الظلم» بكل اشكاله وانواعه وانماطه . إن القرآن يقرر بأن الارض جميعها لله تعالى ، ولكنها تورث لعباده الصالحين كمبدأ . فلو أعطيت أرض ما لقوم عرفوا بالاصلاح في يوم ما بحسب مفهوم الاستخلاف القائم على العدل ، ثم ذهب هؤلاء لإرتكاب الظلم والإفساد ، يتبروا ، ويستخلف غيرهم في أرض الله تعالى . فلو أبقينا هذه المعلومات في ذهننا ، وأحضرنا بنو اسرائيل إلى الصورة ، نرى بأن قصتهم القرآنية مع موسى تبين بأنه عندما صمد جيل منهم أمام تعسف فرعون ورفضوا فكرة تأليهه على أساس إلتزامهم بالوحدانية ، أمدهم الله تعالى بعونه وأنقذهم من جبروت فرعون ، ووعدهم بالدخول للأرض المقدسة زمن موسى كمكافأة لهم على صبرهم . على أن تحقيق هذا الوعدكان مرهوناً بأفعال بني إسرائيل ، وإلتزامهم بما يلي : أولاً ،

http://kotob.has.it/

مواصلتهم للتقوى وطاعة الله تعالى والعمل بأحكامه وقوانينه . ثانياً ، عدم الجحود بالنعم الالهية ومن ثم تقديم الشكر لله تعالى الذي أنعم عليهم بالخروج من أرض الفراعنة . ثالثاً ، وجوب إقرار العدل من جانبهم ومن ثم عدم الجنوح نحو الظلم المتجسد في التعدي على حقوق غيرهم من الشعوب . إن هذه الشروط لم تتوفر في القوم ، إذ أنهم منذ خروجهم من مصر الى حين وصولهم للارض المقدسة وهم يعصون الله تعالى ، ويتمردون على أوامره ، ويجحدون بنعمه . هذا من جهة . أما من جهة أخرى فالقصة القرآنية تبين أن عند وصولهم للأرض المقدسة ازداد عبثهم وتطاولهم على فضائل الروح ، فأصروا على أخذ الأرض المقدسة بأكملها دون جهد ، وطرد سكانها الأصليين منها كشرط لدخولها (راجع سورة المائدة آية ٢١ - ٢٤) وبهذا فقد اراد بنو اسرائيل حرمان قوم من ارضهم وممتلكاتهم وحقوقهم المشروعة من اجل مصلحتهم الذاتية وسعادتهم . وبذلك جنحوا نحو العبث والظلم واللامبالاة بكل القيم الروحية والفضائل الاخلاقية والحقوق الانسانية . على أن توجههم نحو طريق الشر قد بعث على الغضب الالهي عليهم . وعليه فقد جاء القضاء الالهي بحرمانهم من الارض المقدسة لمدة اربعين عاما ، أي حرمانهم من نعمة الاستخلاف والحكم من ثم بالتيه عليهم ، والذي قد يحمل المعنى الآتي : إن التيه في الصحراء كقصاص يبين لهم بالتجربة قساوة او مرارة التشرد الذي ارادوا فرضه على السكان الاصليين للارض المقدسة دون اي وازع للضمير . والتشرد يحمل في طياته المعاناة والالم والمقاساة من امور كثيرة . وعليه فالحكم عليهم بالتيه يعطيهم الدرس اللازم لضرورة احترام حقوق الشعب الذي ارادوا طرده . هذا وعندما فهم عدد من ابناء الجيل التالي منهم الدرس واستوعبوا ابعاده بعد المدة المقررة لحرمانهم من الدخول للأرض المقدسة ، دخلوا تلك الارض على اساس التقيد بالمفاهيم الروحية والاخلاقية المذكورة اعلاه ، والعيش بسلام مع اصحاب الارض الاصليين . اما الذين لم يستوعبوا الدرس منهم ، فقد عاقبهم الله تعالى لظلمهم وكفرهم وانحرافهم وضلالهم . كما ذكر سابقاً .

مما تقدم نستطيع ان نتوصل الى ما يلي : إن مفهوم اعطاء الارض المقدسة لبني اسرائيل على مدى الحياة كما ورد ذلك في التوراة امر غير مقبول من الناحية الروحية بشكل قطعي . فهو يتناقض مع مفهوم الاستخلاف القرآني ، كما شرح اعلاه . فالقرآن يبين بانه عدا عن حرمان بني اسرائيل من الدخول الى الارض المقدسة لمدة اربعين عاماً

http://kotob.has.it/

ايام موسى بالقضاء الالهي فقد انزل بهم العقاب خلال دورتين من التاريخ البشري بسبب ضلالهم وظلمهم واستكبارهم وعلوهم في الارض من منطلق الافساد بكل سلبياته . واضافة الى ذلك فالقرآن يؤكد بأن باب العقاب يبقى مفتوحاً لبني اسرائيل في حالة عودتهم الى الظلم والافساد (راجع سورة الاسراء آية٤ - ٨) وتجدر الاشارة الى ان انزال العقاب بقوم مفسدين يعني بالمفهوم الروحي القرآني حرمانهم من أحقية الاستخلاف لان الاستخلاف لا يتمشى مع الافساد والظلم والضلال . ومن اجل ذلك فالمفهوم التوراتي الذي ينص على اعطاء الارض المقدسة لبني اسرائيل الى «الابد» مفهوم متناقض بشكل قطعي مع الحقيقة الدينية والواقع التاريخي والاخلاقي .

وعدا عن ذلك فان المفهوم التوراتي الثاني الذي ينص على وضع حدود للارض المقدسة لبني اسرائيل يتخالف مع الحقيقة على المستوى الروحي . وذلك لأن مثل هذا التحديد يعني بالواقع اعطاء الارض لهم مدى الحياة . وهذا المفهوم مرفوض في القرآن بكل وجه كما شرحنا اعلاه . اما فيما يتعلق بالمبدأ التوراتي الثالث الذي ينص على امر الهي بطرد السكان الاصليين من الارض المقدسة واحلال بني اسرائيل مكانهم بمساعدة سماوية ، فهو غير معقول وغير مقبول من الزاوية الروحية والاخلاقية . فمن الناحية الروحية ، فالمفهوم متصف بالتطاول على الله تعالى ونسبة اقوال كاذبة له . كما أنه متصف بنسبة المحاباة لبني اسرائيل من قبل الله ، في حين أن الله تعالى الذي خلق الانسان ، يعامل بكماله وجلاله جميع ابناء البشر تبعاً لاعمالهم وسعيهم بحكم توجهاتهم الفكرية . فالأفضلية في هذا الاطار تبنى على اساس التقوى والايمان وليس على اساس العرق . كما يفهم من التوراة في حديثها عن التفضيل الالهي لبني اسرائيل . باختصار فالمفهوم التوراتي المحرف والقائل بطرد السكان الاصليين من الارض ينسب الظلم بكل لامبالاة او تفكير بالعواقب الى الله ، ولكن الله جل جلاله يمثل العدل المطلق . واضافة الى ذلك ، فالمفهوم التوراتي بطرد السكان الاصليين بالامر الالهي يعني اعطاء الأحقية والشرعية لبني اسرائيل للاستيلاء على اراضي الغير والعبث بالموازين ، وإحداث فوضى في الساحة الدنيوية دون خضوع للحساب ، وهذه امور تتنافى مع الهدف من خلق ابناء البشر ووجوب خضوعهم للحساب بموجب احصاء دقيق لكل اعمالهم على نطاق جماعي وفردي معاً . اما من الناحية الاخلاقية ، فالمفهوم التوراتي هذا يعني تجريد شعب من وطنه ،

http://kotob.has.it/

وممتلكاته ، وحقوقه ، وتشريده بالارض ، بكل ما يتبع ذلك من معاناة ، وعذاب ، ويأس ، وجوع ، وخوف للمشردين . وتعدي على الحقوق الانسانية والرمي بعرض الحائط بكل قوانين العدل والفضائل والاخلاق .

على ضوء ما تقدم فمن الواضح أن المفاهيم التوراتية الثلاثة المتعلقة بالارض المقدسة كما عرضت اعلاه ، خاضعة «للتحريف» ، وتتناقض مع السنن المقررة لسير ركب الحياة بإطاره السليم . فالحياة لا تسير الا مع العدل المصطحب بالنظام ، والامن والحفاظ على الحقوق للسكان الاصليين للبلاد المقدسة وعدم الاخلال بكرامتهم ، هذا والقصة القرآنية اكدت بأن الاخلال بالموازين لا يدوم ، وذلك عندما تحدثت عن التتبير الالهي لبني اسرائيل خلال دورتين كما ذكرنا سابقاً ، وتركت الابواب مفتوحة للعقاب في حالة العودة الى الظلم والفساد . إن التدخل الالهي العظيم في كل وقت يظن الظالمون فيه بأن القوة كلها بيدهم ، يعطي درساً لهم بأنه لو عجز ابناء البشر المظلومين عن الوقوف امامهم في أي وقت ، فإن الله تعالى لا يعجزه شيء ، فالارض له ، والقوة كلها بيده . وما على الانسان الا الاتعاظ وأخذ الدروس والعبر في كل زمان ومكان . . في حاضره وفي مستقبله ، وحتى انتهاء الحياة عن وجه الارض .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثاني ، نص ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ص . ٨٩

٢ ـ ان شعيبا قد عُرِّف كشخص هام في مدين أو كالنبي شعيب من قبل بعض المفسرين المسلمين .

٣ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثاني ، نص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ص . ٨٩ .

٤ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثالث ، نص ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ص . ٩٠ .

٥ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثالث ، نص ٦ ، ٧ ، ٨ ، ص .٩٠ .

٦ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثالث ، نص ١١ ، ص ٩٠ .

٧ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الرابع ، نص ٧ ، ٨ ، ص . ٩١ .

٨ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الرابع ، نص ١٠ ، ص ص . ٩١ ـ ٩٢ .

٩ ـ ٢٣ الشعراء ٢٦ .

١٠ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ، نص ٢ ، ٣ ، ص . ٩٦ .

١١ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ، نص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ص .٩٦ ـ ٩٧ .

١٢ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ، نص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ص .٩٧ .

١٣ ـ ١٣٣ الاعراف ٧ .

http://kotob.has.it/

١٤ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح التاسع ، نص ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ص . ١٠٠ .

١٥ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح التاسع ، نص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ص . ١٠١ .

١٦ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح العاشر ، نص ١٣ ، ١٤ ، ص ص . ١٠٢ ـ ١٠٣ .

١٧ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح العاشر ، نص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ص . ١٠٣ .

١٨ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الحادي عشر ، نص ٢ ، ص . ١٠٤ .

١٩ ـ ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ الاعراف ٧ .

٢٠ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح السادس عشر ، نص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ص ص . ١١٢ ـ ١١٣ .

٢١ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السادس عشر ، نص ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ص . ١١٣ .

٢٢ ـ ٢٤ ، ٢٥ المائدة ٥ .

٢٣ ـ ٢٦ المائدة ٥ .

٢٤ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح السابع عشر ، نص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ص . ١١٥ .

٢٥ ـ المصدر نفسه ، تثنية ، الاصحاح السادس ، نص ١٧ ، ص . ٢٨٩ .

٢٦ ـ ٢٤ المائدة ٥ .

٢٧ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، نص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ص ص . ١٣٩ ـ ١٤٠ .

٢٨ ـ ٨٥ طه ٢٠ .

٢٩ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، نص ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ص . ١٤٠ .

http://kotob.has.it/

٣٠_٤٦ ، ٤٧ هود ١١ .

٣١ _ ١١ الشورى ٤٢ .

٣٢_١٠٣ الانعام ٦ .

٣٣ _ ٧٠ التوبة ٩ .

٣٤_٤٤ يونس ١٠ .

٣٥ _ ٥١ الانفال ٨ .

٣٦_١٤ الشمس ٩١ .

٣٧_١٥ الشمس ٩١

٣٨ _ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثاني والثلاثون ، نص ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ص . ١٤٠ .

٣٩ _ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثالث ، نص ١٧ ، ١٨ ، ص ص ٩٠ _ ٩١ .

٤٠ _ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثالث والعشرون ، نص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

+ ١ من الاصحاح الرابع والعشرين ، ص ص . ١٢٤_١٢٥ .

http://kotob.has.it/

الخاتمـــــــة

لقد حاولنا في الفصلين السابقين إجراء مقارنة بين الموقف القرآني والتوراتي فيما يتعلق بقصتي نوح ولوط مع قوميهما بالاضافة الى قصة «موسى مع فرعون وبني اسرائيل» ، مبينين بأن هنالك نقاط توافق في الوصف لجريات بعض الآحداث ، وأن هنالك بالمقابل إختلاف يختص معظمه بجوهر العقيدة في الكتابين المقدسين وقلنا بأن مثل هذا الاختلاف في بعض جوانبه يعود إلى « التحريف» في التوراة . ثم بينا إضافات وردت في القرآن على إعتبار أن القرآن أضاف الى التوراة والانجيل . وبالوصول الى هذا الحد ، يجدر بنا أن نجري مقارنة بين مفهوم القرآن والتوراة بشأن موضوعات دينية هامة تشمل : الوحدانية ، صفات الله تعالى ، الجبر والاختيار ، الخير والشر ، الثواب والعقاب بالاضافة الى أمور أخرى مختصة بالمعرفة والاخلاق .

لقد ذكرنا في السابق بأن موضوع الوحدانية قدم في القصص القرآنية من خلال التركيز على مسألة خلق السموات والارض من قبل الاله الواحد الاحد ، ومن خلال إظهار الدقة التامة في التنظيم للكون ، وفي الادارة لشؤون العباد بحكمة تامة ، وقدرة عظيمة ، وعلم لا يحده شيء . وبالاضافة الى ذلك ، بينّا بأن تلك القصص قد أنشأت رابطة وثيقة بين موضوع العبادة لله تعالى وحده ، وبين مفهوم السعادة للانسان ، فقدمت المبادىء الصحيحة اللازمة لتنقية النفس من الشوائب ، وتغذية العقل وصقل الشخصية الانسانية من جهة ، كما عرضت المبادىء اللازمة لتطهير المجتمعات البشريةمن آفات الاستعباد ، والاستغلال ، والقهر للضعيف ، والغرور بالمظاهر الدنيوية والقوة المادية من جهة أخرى ، هذا الى جانب الحث على تطهير تلك المجتمعات من الشذوذ الجنسي ، وكل الرذائل ، بما في ذلك التلاعب بالكيل والميزان (راجع الفصل الحادي عشر)

هذا ، وفي بحث القصص القرآنية لموضوع الوحدانية ، بينا بأن الاله الواحد الاحد

http://kotob.has.it/

هو رب العباد ، رب الناس أجمعين ، المالك للسموات والارض ، والمتحكم بمصير كل شيء ، والذي لا تجوز العبادة من ثم الا له وحده بكماله وجلاله . أما في دراستنا للقصص التوراتية فقد بينا بأن كتاب التوراة يشارك القرآن الى حد معين فيما يختص ببعض الزوايا الموضوع الوحدانية ، ولكنه ينفصل عنه بعد ذلك ، بمفهوم خاص به ، فقصة موسى التوراتية مثلاً تحدثت كالقصة القرآنية عن إله واحد ، خالق للسماء والارض ، ونهت عن عبادة الاصنام ، كما ورد في الاصحاح العشرين ، خروج ٢٠ :

«لا يكن لك آلهة أخرى أمامي . لا تصنع لك تمثالاً منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الارض من تحت وما في الماء من تحت الارض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن . . .»(١)

ولكن بالرغم من هذا التركيز التوراتي على وجوب طاعة الله وحده لا شريك له ، فهنالك نصوص أخرى تسير في إتجاه معاكس لأنها تحمل في طياتها تصدعا أو تجزئة بالنسبة لمفهوم التوحيد ، كما يظهر مما يلي من الاصحاح الرابع ، خروج ٤ :

«وقال الرب لموسى عندما تذهب لترجع الى مصر انظر جميع العجائب التي جعلتها في يدك واصنعها قدام فرعون . ولكني أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب . فتقول لفرعون هكذا يقول الرب . إسرائيل ابني البكر . فقلت لك أطلق إبني ليعبدني فأبيت أن تطلقه . ها أنا أقتل إبنك البكر» .(٢)

وبهذه التجزئة ، يبرز إختلاف جوهري بين التوراة والقرآن إذ انه بينما يأتي التأكيد بالنص في القرآن على أن الله تعالى (لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً احد)(٣) فإن التوراة تخصص إسرائيل كالابن البكر للرب . وبهذا يكون موضوع الوحدانية قد تحول الى مفهوم «التثنية» الذي ربما شكل الاساس لمبدأ «التثليث» عند بعض الفئات النصرانية فيما بعد .

هذا ولا تقف الفروق بين النظرة القرآنية والتوراتية للوحدانية الى هذا الحد ، بل تتعدى ذلك الى جوانب أخرى . فكما ذكرنا سابقا ، فبينما تبرز القصص القرآنية الله ، كرب لجميع أبناء البشر ، ولكل القبائل والشعوب ، فكتاب التوراة يبرز الله كإله

http://kotob.has.it/

لشعب بني إسرائيل بوجه خاص ، وإسمه «يهوه» ، إله أبائهم على أن ذلك يظهر بوضوح في النصوص التوراتية الآتية :

«وقال الله أيضاً لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه آبائكم إله إبراهيم وإله يعقوب أرسلني إليكم . هذا إسمي الى الأبد وهذا ذكري الى دور فدور»(٤) الاصحاح الثالث٧ خروج ٣

«وبعد ذلك دخل موسى وهارون وقالا لفرعون هكذا يقول الرب إله إسرائيل»(٥) الإصحاح الخامس ، خروج ٥ .

«فقالا إله العبرانيين قد إلتقانا» (٦) . الإصحاح الخامس ، خروج ٥ «وإتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً . فتعلمون أني أنا الرب إلهكم الذي يخرجكم من تحت أثقال المصريين»(٧) الاصحاح السادس خروج ٦

إن انفراد الاله يهوه ببني اسرائيل كما يتجلى في هذه النصوص التوراتية ، يعني بالواقع نفي صفة «الشمولية» التي يتصف بها الاله الواحد الأحد ، كما ورد في القرآن الكريم . على أن ذلك يعني بدوره ظهور فروق رئيسية في المفهوم «للصفات» الالهية في كل من الكتابين المقدسين . إذ بينما وضع القرآن حداً فاصلاً بين صفات الله تعالى «الكمالية» وصفات البشر المتسمة «بالنقص» ، ذهب هذا الحاجز مراراً في التوراة . ومن هذه الزاوية أظهر كتاب التوراة الله بصفات بشرية «كالنسيان» بدليل النص التالي«فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب»(٨) . الاصحاح الثاني ، خروج ٢ : هذا بالاضافة الى صفات «التراجع» «والندم» كما ذكرنا سابقاً . على أن ذلك أدى بدوره الى نفي صفة العدل عن الله ، ونسبة الشر اليه (تعالى الله على ذلك) .(راجع الفصل الرابع عشر) . ويجب أن نذكر في هذا المقام بأن مسألة نسبة الشر لله تعالى تتوارد كثيراً في قصة موسى بالتخصيص . فالقصة على سبيل المثال بينت مراراً بأن قساوة قلب فرعون ، وتشدده على بني إسرائيل ، ورفضه المتكرر لإخراجهم من أرض مصر ، بالرغم مما رآه من آيات ، يعود الى الله ، وهذا يظهر في النصوص التوراتية الواردة في الاصحاح العاشر ، خروج ١٠ :

«فدعا فرعون موسى وهارون مسرعاً وقال أخطأت الى الرب

http://kotob.has.it/

إلهكما وإليكما . والآن إصفحا عن خطتي هذه المرة فقط . وصليا الى الرب إلهكما ليرفع عني هذا الموت فقط . فخرج موسى من لدن فرعون وصلى الى الرب . فرد الرب ريحاً غربية شديدة جداً . فحملت الجراد وطرحته الى بحر سوف . لم تبق جرادة واحدة في كل تخوم مصر . ولكن شدد الرب قلب فرعون فلم يطلق بني إسرائيل»(٩) .

ومن قبل رواية هذه الحادثة ، ورد ما يلي بشأن موضوع إرجاع تشدد فرعون نحو بني إسرائيل الى الله :

«ولكني اشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب»(١٠) . الاصحاح الرابع ، خروج ٤ :

«وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من ارضه . ولكني أقسي قلب فرعون وأكثر آياتي وعجائبي في أرض مصر . ولا يسمع لكما فرعون حتى أجعل يدي على مصر . فأخرج أجنادي شعبي بني إسرائيل من أرض مصر بأحكام عظيمة . فيعرف المصريون . أني أنا الرب حينما أمد يدي على مصر وأخرج بني إسرائيل من بينهم . ففعل موسى وهارون كما أمرهما الرب . هكذا فعلاً(١١) . الاصحاح السابع الى ع ٢٤- خروج ٧

ومن الجدير بالذكر هنا الى أنه ، على عكس القصة التوراتية عن موسى وفرعون وبني إسرائيل ، فالقصة القرآنية ، بينت بكل تأكيد بأن تشدد فرعون بالنسبة لقضية عدم السماح لبني إسرائيل بالخروج من أرض مصر ، والإصرار من قبله على البطش بهم ، وقتل أطفالهم ، واستحياء نسائهم ، يعود بواقع الأمر الى غطرسة هذا الحاكم واستعلائه وأنانيته ، وكفره بالدين والفضائل ، وعدم احترامه للحقوق الإنسانية ، نتيجة توجهه بفكره نحو الشر ، والفساد ، والضلال . فالشر بهذا الاطار يعود في القصة القرآنية الى فرعون نفسه ، بفكره وأهوائه ، ونزعاته بحكم حرية الاختيار التي يحظى بها كأي مخلوق آخر ولا يعود الى الله (تعالى عن ذلك) كما هو الحال في

http://kotob.has.it/

القصة التوراتية . ولا بأس أن نكرر هنا ، بأن القرآن كلام الله تعالى يعطي في نصوصه حرية اختيار للإنسان بموجب عقلانية ، ضمن إطار معين أو محدد يكفل النظام والأمن في المجتمع . على أنه ضمن حرية الاختيار تلك ، يجرى حساب دقيق لكل أعمال الإنسان ، الصغيرة والكبيرة منها ، حيث يثاب أو يعاقب عليها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ومن هذا المنظار ، فالشر ينسب الى الإنسان بميوله ونزعاته الشيطانية ، في حين أن الخير يُنسب الى الله تعالى ، بكماله وجلاله . إذن ، فبينما يظهر الاسلام كدين وسط بين الجبرية والقدرية يَرجع الشر أو الخير فيه الى سعي الانسان أو عمله ، فالدين في التوراة يظهر كدين «جبري» . هذا وبينما يبرز القرآن الاله الواحد الأحد ، كإله الخير والعدل المطلق . فالإله يهوه في التوراة يتصف في الكثير من الأحيان بفعل الشر ، وذلك إرضاء لشعب بني إسرائيل !!

وعند هذه النقطة ، يجب أن نبين بأن التأكيد القرآني على نسبة الشر لفرعون بصدد مشكلته مع بني إسرائيل إنطلاقاً من حرية الإختيار الإنسانية يرمي الى تزويد الانسان بالعبر التالية : إن فرعون يُعطي مثلاً حيا لحاكم متسلط ، أصر على تأليهه لنفسه بقصد تثبيت حكمه ، وإعلاء شأنه أمام رعيته ، وحصل على تأييد شديد من خاصته على أساس توافق مصالحهم مع مصالحه . ولكن الله تعالى إله الخير المحض الذي يعطف على المظلومين ويرحم ضعفهم ، وقف مع الفرقة المعارضة وقتئذ لفكرة التأليه تلك ، وهي جماعة بني إسرائيل فأيدهم برحمته ، وبرسوله موسىً وأخيه هارون ، وأنزل الخزي والعار مراراً بفرعون وخاصته في أثناء حياة هذا الحاكم ، وهزه هزات عنيفة بمعجزاته . ولكن عندما أصر هذا الحاكم على كفره وضلاله وظلمه ، أخذه الله تعالى هو وجنوده باليم ، ولم تنفع توسلاته لنيل العفو في لحظات عقابه الأخير . فقد أعطى فرص كثيرة للتوبة والتراجع عن بطشه بالمظلومين ، ولكن استكباره وغروره منعه من ذلك . وبذلك نال عقاباً بما قدمت يداه وأصبح عبرة لمن اعتبر . إن الدرس المستفاد هنا هو أن التسلط على المظلومين من قبل حاكم جبار عنيد كفرعون بسبب توجهه نحو الضلال لن يدوم ، لأن هذا يخالف موازين العدل التي وضعها الله تعالى لسير الحياة . فكما ورد بالقرآن فإن الله يمهل الإنسان ولكنه لا يغفل عن أعماله ، وذلك لكي يعطي هذا الانسان فرص لمراجعة النفس . ولكن لو لم يتعظ ، ففي وقت معلوم لدى الله تعالى ، يتدخل بحكمته الفائقة وقوته التي لا تعلوها

http://kotob.has.it/

قوة ، للقضاء على الشر ، وتثبيت الحق مكانه ، وذلك من خلال انزال العقاب بالمفسدين ، وهذا حكم يتجلى في كل مكان يخضع لظروف مشابهة للظروف التي سادت أيام فرعون . فلا مفر من العقاب الالهي للجماعات الظالمة في شتى الازمنة . وقد انطبق ذلك على بني اسرائيل فيما بعد ، عندما تخطى ظلمهم كل حدّ ، فعوقبوا مرارا . وبوصولنا الى مسألة العقاب ، يجدر بنا ان نذكر بأن القصص القرآنية والتوراتية قد تحدثت عن مسألة العقاب الجماعي الدنيوي ، وكشفت عن وسائل متشابهة الى حد كبير في هذا الصدد كما بينا ذلك سابقاً . ولكن مع وجود هذا التشابه في الكتابين المقدسين ، فهنالك اختلاف بالنسبة لمدى «تأثير» العقاب الجماعي الدنيوي لاقوام سالفة في التاريخ بينهما . اذ انه من الملاحظ بأن القرآن الكريم يركز بشكل اعمق في مداه ، من التوراة ، بشأن هذا الاثر . ويعود ذلك الى الأسباب الآتية :

أولا . فيما يختص بقصة نوح ، فالقصة التوراتية لا تتحدث عن «حوار» بين نوح والملأ ، كما هوالحال في القصة القرآنية . فالحوار الذي استخدم فيه المنطق وأدواته في القصة القرآنية هام جداً في مجال صب العبر والدروس في كل الازمنة والامكنة . ان الحوار هذا قد ابرز اهم المبادىء الدينية والاخلاقية والقواعد والاسس العقلانية اللازمة للاصلاح الناتج عن الطبقية والاستعباد والاستغلال من جهة ، كما أنه كشف النقاب عن نفسية الملأ الكفرة ، وطرائق تفكيرهم ، وتحركاتهم ، وتصرفاتهم الخارجة عن الاطار الروحي والاخلاقي ، وعن تفاهتهم وضحالتهم الفكرية الناتجة عن استعلائهم وغرورهم الاجوف من جهة اخرى ، أن الكشف القرآني عن كل النواحي السلبية للملأ من استكبار وضلال وكفر ادى الى إغراقهم بالنتيجة ، ينفر القارىء منهم ، ويحثه على التأمل بمصيرهم المخزي لتفاديه .

ثانياً ، بيد أنه فيما يختص بقصة لوط مع قومه ، فالمجال الكبير للاتعاظ كما يتبلور في القصة القرآنية يعود الى تركيز تلك القصة على فداحة «الفاحشة» ، واظهار عواقبها المتجسدة في استعلاء الرجال على النساء ، والمطالبة بما يرونه كحقوق لهم ، خارجة بالواقع عن الاطار الديني والاخلاقي والعقلاني ، والتي لا تؤدي الا الى الحط من كرامة المرأة ، وعدم الاعتبار لحقوقها ودورها في البناء الاسري ، والاجتماعي والحضاري . يقول تعالى في كتابه العزيز :

http://kotob.has.it/

(وجاء قومه يهرعون اليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن اطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي اليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمتَ ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد)(١٢) .

اذن ، فالقصة القرآنية نفرت القارىء من فاحشة الشذوذ الجنسي ، وركزت على عواقبها فيما يلي من احداث ، وذلك عندما تحدثت عن محق المفسدين محقا تاما . اما بالنسبة للقصة التوراتية عن لوط فصحيح أن تلك القصة قد سلطت الاضواء على النفسية المريضة للمنحرفين جنسيا ونفرت منهم وتحدثت عن سحقهم التام ، الا أن انتهاء تلك القصة بحكاية شخصية عن لوط ، بشأن سكره ومضاجعته لابنتيه ، قد اذهب الكثير من وقع «الفاحشة» كما هي متجسدة في التصرف المنحرف للرجال من القوم ، وبالتالي من وقع القصاص الالهي عليهم . هذا بالرغم من أن الحكاية الشخصية تلك تقع في اطار «التحريف» كما ذكرنا سابقا (راجع الفصل الثالث عشر) .

ثالثا ، على أنه لو انتقلنا الى قصة موسى في الجزء «المتخصص» منها بفرعون الذي عوقب هو وجنوده بالاغراق لهم باليم ، نجد أن تفوق القصة القرآنية الكبير على القصة التوراتية في مجال صب الدروس والعبر عبر التاريخ يعود الى عاملين بارزين : أولهما ، ارجاع مواقف فرعون في تشدده ازاء بني اسرائيل وبطشه بهم في القصة القرآنية الى توجهاته وأهوائه بحكم مبدأ حرية الاختيار الانسانية ، والتنفير منه ومن أخلاقه بناء على ذلك ، والحث على التأمل بمصيره لتجنبه من الغير خلال التاريخ . إن هذا المسار في التنفير والحث على العظة مما يجري لفرعون لم يوجد في القصة التوراتية ، وذلك لارجاعها لتشدد فرعون في طغيانه ضد بني اسرائيل ، حين رفض اخراجهم من مصر إلى الله (تعالى عن ذلك) لا الى نفس فرعون . ثانيهما ، ان التفوق القرآني في مجال صبّ العبر مرتبط بوقع المعجزات التي ايد بها الله موسى على الغير ، فالقصة القرآنية قد تحدثت عن المعجزات «كخوارق» ذات وقع شديد في هز النفوس الظالمة ، والدفع بالنفوس الطيبة للايمان مركزة على «بطلان» السحر بشكل قاطع . ولكن بالنسبة الى القصة التوراتية فبالرغم من «تفريقها» بين المعجزة والسحر

http://kotob.has.it/

في بعض الاجزاء ، الا أنها «مزجت» بينهما في اجزاء اخرى كما يتجلى من النصوص التوراتية الآتية :

«وفعل كذلك العرافون بسحرهم ليخرجوا البعوض فلم يستطيعوا . وكان البعوض على الناس وعلى البهائم . فقال العرافون لفرعون هٰذا اصبع الله . . .»(١٣) الاصحاح الثامن مع ص ٧ ع ٢٥ ، خروج ٨ .

«ففعل هكذا موسى وهارون كما امر الرب . رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر امام عيني فرعون وامام عيون عبيده . فتحول كل الماء الذي في النهر دما . ومات السمك الذي في النهر وانتن النهر . فلم يقدر المصريون ان يشربوا ماء من النهر . وكان الدم في كل ارض مصر . وفعل عرافوا مصر كذلك بسحرهم . . .»(١٤) الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ـ خ وج٧ :

إن المزج بين الخارقة والسحر في التوراة يضع السحر في طرف متعادل مع المعجزة ، في حين أن الهدف من المعجزة هو التأكيد على أن العلم الذي لا يحده شيء لا ينسب إلا الى الله تعالى وحده . أما السحر ، فهو في جوهره تدجيل وخداع بحيله وأساليبه . إن وضع حد فاصل بين المعجزة والسحر ، وابطال الاخير ، كما هو مقرر بالقرآن ، يرمي الى تذكير الانسان بضآلته وضحالته ، وفشل اساليبه وحيله القائمة على الخداع . هذا من جهة ، أما من ناحية ثانية ، فهذا الحد الفاصل يبين للانسان بأن الله تعالى ، الذي اوجده على الارض ، ووضع القوانين له ، ولكل شيء في الكون ، هو وحده القادر على تخطي تلك القوانين ، وابراز قوته التي لا تعلوها قوة ، حتى يتذكر هذا الانسان حدوده ويتعظ ، فلا يتخطاها بظلمه وجبروته .

ويوصولنا الى هذا الحد ، يجب ان نذكر بأن «ابطال» السحر في القرآن يعني ، اضافة الى ما تقدم ، بأن الاسلام دين قائم على الرفض التام «للبدع» و«الخرافات» . . فمما لا شك فيه بأن الاسلام دين عقلاني يدعو للعلم والمعرفة ، ولا يخاطب الانسان الا من خلال استخدام المنطق وادواته . فالدلائل والبراهين مثلا كانت تستخدم في حوار الانبياء مع اقوامهم ، كما أن الحث على «الموازنة»بين الاشياء ، والتوصل الى

http://kotob.has.it/

الايمان السليم عن طريق النظر . فالتفكير الصحيح بالاشياء ، والاعتبار منها ، يمثل الطريق السويّ للإيمان المستنير .

بناء على ما تقدم ، فإن دراستنا عن «القصة» في القرآن الكريم» تزود القارىء بصورة صادقة عن الاسلام . فإضافة الى عقلانيته ، ونفيه للخرافات ، فإن هذا الدين العظيم يبرز كدين عمل وسعي ، وليس كدين تواكل أو تخاذل أو بدع ، كما يحاول أن يصوره بعض أعدائه ، الذين اتهموه «بالجبرية المطلقة» وسيطرة الخرافات عليه ، بقصد نفي صلاحيته للعصر الحديث . إن القصص القرآنية قد قدمت عرضاً حياً لمشاكل إجتماعية وإنسانية ، تنشأ دوماً على الساحة البشرية ، وأعطت الحلول الصحيحة لكل تلك المشاكل بغية توفير السعادة للأفراد والمجتمعات ككل في شتى الأزمنة والأمكنة .

إن القصص القرآنية قد أفادت المعرفة الإنسانية في كثير من جوانبها . ففي تركيزها مثلاً على اسباب الرقي والإنحطاط في المجتمعات البشرية ، فقد أثرت علم الاجتماع . وفي إهتمامها بالنفوس البشرية وتصويرها الحي لفئات ضالة أو مؤمنة بكل تحركات أصحابها وتوجهاتهم ، وطرائق تفكيرهم ، وسلبياتهم أو ايجابياتهم . فقد ساهمت تلك القصص في إثراء علم النفس . ومن جانب آخر ، فإهتمام تلك القصص بالكشف على الأخلاق اللازمة لصقل الشخصية الإنسانية ، والتوجيه نحو المعاملات السليمة بين الأفراد ، قد أغنى علم الاخلاق ، كما أن تركيزها على عناصر قصصية لا مثيل لها ، من حيث العرض للمشاكل ، وسير الأحداث ، وتعقدها ، حتى الوصول الى الذروة ، ثم حلها بوسائل تفوق العقل البشري ، ومداركه ، قد أغنى الأدب العربي الإسلامي . فالقصة القرآنية وضعت الأصول الصحيحة التي يجب على الادباء والمفكرين اتباعها لكتابة القصة ، المفيدة بدروسها وعبرها ، ضمن حدود العقل البشري . وعدا عن ذلك ، فإن القصص القرآنية قد ساهمت في إثراء علم السياسة ، وذلك بتقريرها للخطوط العريضة اللازمة لإقامة حكم عادل توفر فيه السعادة للمحكومين . هذا الى جانب مساهمة تلك القصص في مجالات أخرى تهم الانسان فيما يختص بأسباب وجوده ، وكيانه ، ومصيره .

وفي الختام ، أرجو أن أكون قد وفقت لما سعيت اليه من إبراز لأهمية القصص

http://kotob.has.it/

القرآنية في شتى المجالات التي تساهم في رقي الانسان وتقدمه عبر التاريخ . كما أرجو أن أكون قد وفقت في الكشف عن نظرة الإسلام وموقفه من قضايا روحية وأخلاقية هامة مقابل الموقف التوراتي منها . كما آمل في الوقت نفسه ، بأن أكون قد تمكنت من إظهار مكانة الاسلام الحقيقة في عصر تعرض فيه هذا الدين العظيم لتحديات واسعة بقصد نفي صبغة العقلانية عنه ، ونسبة الجبرية المطلقة إليه ، لتجريده من صلاحيته في مجال الرقي والتقدم الحديث .

http://kotob.has.it/

الحواشي

١ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح العشرون ، نص ٤ ، ٥ ، ٦ ، ص ١١٩ .

٢ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الرابع ، نص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ص ٩٢ .

٣ ـ ٣و٤ ، الاخلاص ١١٢ .

٤ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثالث ، نص ١٦ ، ص ٩٠ .

٥ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الخامس ، نص ٢ ، ص ٩٣ .

٦ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الخامس ، نص ٤ ، ص ٩٣ .

٧ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السادس ، نص ٨ ، ص ٩٥ .

٨ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الثاني ، نص ٢٥ ، ص ٨٩ .

٩ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح العاشر ، نص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ص ١٠٣ .

١٠ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح الرابع ، نص ٢٢ ، ص ٩٢ .

١١ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ـ ، نص ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ص ٩٦ .

١٢ ـ ٧٨ ، ٧٩ هود ١١ .

١٣ ـ الكتاب المقدس ، خروج ، الاصحاح الثامن مع ص ٧ عـ ٢٥ ـ ، نص ١٩ ، ٢٠ ، ص ٩٨ .

١٤ ـ المصدر نفسه ، خروج ، الاصحاح السابع الى عـ ٢٤ ـ ، نص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ص ٩٧ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ الكتاب المقدس

٣ ـ كتب العهد القديم والعهد الجديد .

فالمراجع تتكون مما يلي :

٤ ـ البيضاوي والنسفي والخازن وابن عباس ، كتاب مجموعة من التفاسير ، جزء ٢ ، ٣ . بيروت : دار إحياء التراث العربي ، لا . ت .

٥ ـ حسين طه ، مرآة الاسلام ، مصر : دار التعارف ، لا . ت .

٦ ـ سيد قطب ، في ظلال القرآن ، جزء ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ . القاهرة : دار الشروق ، ١٩٧٩ .

٧ ـ هيكل ، محمد حسين ، حياة محمد ، القاهرة: مكتبة النهضة ، ١٩٦٨ .

http://kotob.has.it/

http://kotob.has.it/

الفهرس

بين طيات الكتاب ٥
المقدمة ٩
الفصل الأول ٢٧
قصة نوح عليه السلام مع قومه ....
الإتجاهات النفسية والفكرية لدى الأشراف والضعفاء من القوم ....
الفصل الثاني ٤٩
قصة هود عليه السلام مع قومه عاد ....
العواقب المترتبة عن الإعتزاز بالقوة المادية من دون القوة الروحية ....
الفصل الثالث ٦٣
قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود ....
التعدي السافر على الحدود الإلهية : آثاره وعواقبه ....
الفصل الرابع ٧٥
قصة لوط عليه السلام مع قومه ....
الشذوذ الجنسي لدى الرجال إنحدار من المرتبة الإنسانية إلى الحيوانية ...
الفصل الخامس ٨٥
قصة شعيب عليه السلام مع قومه ....
التلاعب بالكيل والميزان قضية لا أخلاقية مضرّة بالأفراد والجماعات

http://kotob.has.it/

الفصل السادس ٩٧
قصة موسى عليه السلام مع فرعون وبني إسرائيل ....
حياة موسى : طفولته ، وشبابه ، وزواجه ....
الفصل السابع ١١٣
موسى ومرحلة النبوة : انتدابه لوضع حد لطغيان فرعون ....
الفصل الثامن ١٢٧
الوحدانية والمعجزات ومصير فرعون ....
المفهوم الفرعوني في الحكم ....
الفصل التاسع ١٤٩
موسى وبنو إسرائيل ....
عبادة بني إسرائيل للعجل المصنوع من الذهب ....
الفصل العاشر ١٦١
بنو إسرائيل : حكايات متنوعة ....
الميقات ، الطعام ، الشراب ....
البقرة ....
الأرض المقدسة ....
الفصل الحادي عشر ١٨١
التطور في العقيدة السماوية ابتداء من عهد نوح إلى عهد موسى ....
الفصل الثاني عشر ١٩٥
التصوير القرآني الحيّ لأصناف بشرية تشكل نماذج لإمثالها خلال التاريخ

http://kotob.has.it/

الفصل الثالث عشر ٢٠٧
مقارنة بين القرآن والتوراة بصدد قصتي نوح ولوط مع قوميهما ....
الفصل الرابع عشر ٢٢٥
مقارنة بين القرآن والتوراة بصدد قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل ....
الخاتمة ٢٥٣
المراجع ٢٦٥

http://kotob.has.it/